رَسائلٌ إلى جاريَ الفلسطينيّ

تأليف :

يوسي كلاين هاليفي

صاحبُ العملِ الأدبيّ "مثلُ الحالمينَ"

الإهداء

أهدي هذا العملَ المُتواضعَ إلى شُركائي وإخوَتي عبد الله عنتبلي ومايكِل أورِن

محتوى الكتاب

مُقدّمة

الرسالةُ الأولى : الجِدارُ الذي يفصِلُ بينَنا

الرسالةُ الثانية : الحاجةُ والحنينُ

الرسالةُ الثالثة : القَدَرُ والمَصير

الرسالةُ الرابعة : الرّوايةُ التاريخيّةُ والوجودُ

الرسالةُ الخامسة : سِتةُ أيامٍ وخمسونَ سنة

الرسالةُ السادِسة : اقتسامُ العدالةِ

الرسالةُ السابعةُ : اسحقُ وإسماعيل

الرسالةُ الثامنة : التناقضُ الإسرائيليّ

الرسالةُ التاسِعة : النّاجونَ والضحايا

الرسالةُ العاشِرة : خيمةٌ في طرفِ الصّحراء

شكرٌ وعِرفان

المؤلّف في سطور

مُقدّمة

عزيزي القاريء،

يُمّثلُ هذا الكتاب محاولةً جادّةً مِن قِبَلي ككاتبٍ وأديبٍ يهوديّ مُتديّنٍ يسكنُ مدينةَ القُدسِ لتوضيحِ أمورٍ في غايةِ الأهميّة بالنسبة لي: أريدُ أن أُوَضّحَ لكَ لماذا أرى في هذه الأرض وطناً لي، ولماذا يجبُ على كلا الجانبينِ الفلسطينيّ والإسرائيليّ أن يَحترِما الرواياتِ التاريخيّةَ والمطالبَ الوطنيّةَ المشروعةَ لكليهما، ولماذا يجبُ عليهما أن يستوعِبا ويتَكيّفا مع وجودِ بعضِهما البعضِ على هذه الأرض التي قُدِّر لنا أن نَتَشاركَها سويّاً. باعتقادي ، وبعد مضيّ قرابةَ قرنٍ من الزمانِ مِن عُمرِ هذا الصراع ، فقد حانَ الوقتُ لأن يقومَ كلّ طرفٍ منّا بتوضيحِ هويّتِهِ للجانبِ الآخر ، ولماذا هوَ هُنا، وما هيَ طموحاتُه وآمالَهُ وتطلّعاتُهُ. بصريحِ العبارة: لقد آنَ الأوانُ لِكّي نتعرّفَ على بعضِنا البعضِ عَن قُرب.

صراحةً ، لم تكُن غايتي من تأليفِ هذا الكتاب هيَ إقناعُكَ بصِحّةِ روايتي التاريخيةِ وإثباتِ خطأ روايتِكَ التاريخيّةِ ودَحضِها ، كوني لا أؤمنُ بأي شكلٍ من الأشكالِ بقُدرتي على تحقيق هذا الأمر ، تماماً كإيمانيَ العميق بعدمِ قُدرتِك على إقناعيَ بمدى خطأ روايتي التاريخيّةِ ودَحضِها ، وهوَ الأمرُ الذي لطالَما حاولَ الجانبُ الفلسطينيّ والعربيّ مِراراً وتِكراراً القيامَ بهِ لكن دونما نجاح. لقد علّمنا هذا الصراعُ بأنّنا كلّما اقتتلنا ، كلّما شعرَ كلّ جانبٍ منا بالتهديد ، الأمرُ الذي من شأنهِ أن يزيد من تَزَمُّتِ وتَعنُّتِ كلا الجانبين.

ولربّما يتبادرُ إلى ذهنِك سؤالُ مهمّ أيها الجارُ العزيز: لماذا نُكلّفُ أنفُسنا عناءَ تفسيرِ وتوضيحِ روايتنا التاريخيّة لبعضِنا البعض؟ السببُ بسيطٌ وواضحٌ جداً : بنهايةِ المطافِ فإنَ كلا هاتين الروايتين ستَندَثِر ، تماماً كما سيندَثِرُ كلا الشعبين يوماً ما. لقد قُدّرَ لنا أن نعيشَ في خِضمّ روايتينِ تاريخيّتين يصعبُ التوفيقُ بينهُما ، بِدءاً من النكبةِ ومروراً بحربِ حزيران وانتهاءاً بأسبابِ فشلِ اتفاقيّة أوسلو. كذلكَ فقد قُدّرَ لنا أيضاً أن نتشاركَ هذه المساحةَ من الأرضِ الصغيرة المقدّسة المُعذّبةَ والممتدة من نهرِالأردن إلى البحرِ الأبيضِ المُتوسّط.

وليَكُن بمعلومِكَ أيّها الجارُ العزيز، بإمكانِنا أن نستمرَ بالخوضِ في هذا الجَدَلِ العقيمِ حولَ مدى صحّةِ رواياتِنا التاريخيةِ إلى الأبدِ، زاعمينَ بأن الروايةَ التاريخيّة للطرفِ الآخر هي محضُ كذبةٍ ليسَ إلاّ ، وبأنّ الطرفَ الآخر لا يمتلكُ روايةً تاريخيّة أصلاً ، لكن عليكَ أن تُدركَ أيها الجارُ العزيزُ بأن هذا المسارَ لن يقودَنا إلا إلى مئةٍ سنةٍ أخرى من القِتال ، وأنّ هذا الجدلَ البيزنطيّ سيَمُدُّ من عُمرِ هذا الصراعِ القائمِ بينَنا ، خاصةً وأنهُ يوجدُ جانبٌ سيئٌ جداً لهذا الصراعِ يتمثّلُ في إنكارِ كلّ طرفٍ للروايةِ التاريخيّة للطرفِ الآخر على اعتبار أنّ هذا الإنكارَ هو واقعٌ وجزءٌ من حقيقةٍ تاريخيّة غيرُ قابلةٍ للنقاش.

فَعلى الجانبِ الإسرائيلي ، يُنكرُ العديدُ من المُنتمينَ إلى اليمينِ الإسرائيليّ شرعيّةَ الهويّةِ الوطنيّةِ الفلسطينيّةِ، زاعمينَ بأنها محضُ بِدعة جديدةٍ ليسَ إلّا ، كونهُ لم يَتواجَد على هذهِ الأرض شعبٌ يُدعى الشعبَ الفلسطينيّ في السابِق، بالتالي كيفَ منَ المُمكنِ أن يتواجدَ شعبٌ يُدعى الشعبَ الفلسطينيّ على هذهِ الأرض في الحاضِر؟

أما على الجانبِ الفلسطينيّ فالأمرُ لا يختلفُ كثيراً ، إذ يُنكرُ الجانبُ الفلسطينيّ مبدأ الأمّة اليهودية ويعتبرون اليهوديّة ديانةً فقط ، بالتالي يرفضون الطريقةَ التي يرى فيها اليهودِ أنفُسهَم على أنّهُم أمةٌ بحدّ ذاتِها اضافةً إلى كونهِم أبناء ديانة سماويّة ، الأمرُ الذي يجعلهُم يرفضونَ رفضاً قاطعاً شرعيّةَ وجودِ الدولةِ اليهوديّة. بعبارةٍ أخرى ، يبدو وكأنّ كلّ طرفٍ من الطرفينِ يقولُ للآخر: أنتم تعتقدونَ بأنكُم تمثّلونَ شعباً بحدّ ذاتِهِ لكنكُم مُخطئون ، كونَنا نعرفُ عنكُم أكثرَ مما تعرفونهُ عن أنفُسِكُم!

بالتالي ومِن هذا المنطلق ، فإن الطرحَ الموجودَ في هذا الكتاب يمثّلُ منبراً يحترمُ حقّ كلا الجانبينِ في التعريفِ عن أنفُسهِم من منظورِ روايتهِم التاريخيّة ومدى فهمهِم الخاص لتلكَ الرواية ، وهذا أمرٌ في غايةِ الأهميّة من أجلِ الوصولِ إلى السلامِ بين اسرائيل والأمةِ العربيّة بشكلٍ عام ، والشعبِ الفلسطينيّ بشكلٍ خاص، حيثَ أن إصغاءَنا إلى روايةِ الطرفِ الآخرِ من شأنهِ أن يُساهمَ بدرجةٍ كبيرةٍ في الوصول إلى ذلك السلام المنشود ، ذلكَ لأنّ الخطوة الأولى في المضيّ قدُماً في طريقِ السلامِ تتمثّلُ في اعترافِ كل جانبٍ بأن كلّ شعبٍ من الشعبين يعرفُ تماماً عن هويّتهِ وتاريخهِ وروايتهِ أكثرَ من أي شعبٍ آخر.

بعبارةٍ أخرى ، أذا أراد الفلسطينيون التعريفَ عن أنفُسهِم على أنّهُم شعبٌ ذو طموحاتٍ وطنيّةٍ مُستقلّةٍ عن الأمةِ العربيّة فإنّهُ ينبغي على الجانب الإسرائيليّ احترامُ ذلك ، كذلكَ إذا أرادَ اليهودُ التعريفَ عن أنفُسهِم كأمةٍ ذات هويّة دينيّة مُحدّدة ترتبطُ بمنطقةٍ جغرافيةٍ محدّدة فإنه أمرٌ ينبغي على الجميعِ احترامُه أيضاً.

إنني آملُ وبكلّ صِدقٍ أن يتمكنَ الفلسطينيونَ من فهمِ العقليّة الإسرائيلية والمنظور الذي يَرى بهِ الإسرائيليونَ أنفُسهُم ، تماماً مِثلما تعرّفتُ خلال تجربتي الطويلة على العقليّةَ الفلسطينيّة والمنظور الذي يَرى به الفلسطينيونَ أنفُسهُم. إنّهُ لمنَ الضروريّ أيّها الجارُ العزيزُ أن تجولَ أصواتُنا في خواطرِ بعضِنا البعض حتى نتمكّن من تغيير تلكَ الطريقةِ المُتحيّزةِ التي نُحدّثُ بها أنفُسنا عنِ الطرفِ الآخَر.

لقد ألّفتُ في السابقِ كتاباً أطلقتُ عليهِ "على مدخلِ جنّةِ عَدَن" ، وهوَ كتابٌ لخّصتُ فيهِ تجربتي التي تغلغلتُ خلالّها في المُجتمعِ الفلسطيني بدايةَ تسعينيّات القرنِ المُنصرم ، أي الفترةَ التي كانَ يُسمحُ للإسرائيليّ أن يزورَ المدن الفلسطينيّة وهوَ يشعرُ بالأمان إلى حدٍ ما.

كانت تلكَ الرحلةُ بمثابةِ محاولةٍ مني لفهمِ عقيدةِ جيرانيَ الفلسطينيينَ وتجربتهِم على الجانبِ الآخر من هذا الصراع. لذلكَ أنا أعتبرُ كتابَ "رسائلٌ إلى جاريَ الفلسطينيّ" بمثابةِ استكمالٍ لتلكَ الرحلة ، محاولاً توضيحَ العديد منَ القضايا المتعلّقةِ بِعقيدتي اليهوديّةِ وتجربتي كإسرائيليّ على الجانبِ الإسرائيليّ من هذا الصراع.

بالتالي فإن هذا الكتابَ يُمثّلُ دعوةً مفتوحةً لجيرانيَ العربِ في منطقةِ الشرقِ الأوسطِ بشكلٍ عام ، وجيرانيَ الفلسطينيينَ على وجهِ التحديد ، من أجلِ الدخولِ في نقاشاتٍ وحواراتٍ مُشتركةٍ نناقشُ من خلالها ماضينا وحاضِرنا ومُستقبلنا في هذه المنطقة. نقاشاتٌ لا تهدفُ إلى مجرّدِ النقاش فقط ، بل نقاشاتٌ هادفةٌ بنّاءةٌ تقومُ على الاحترامِ المُتبادلِ من أجلِ حلّ العديدِ من القضايا الجدليّة التي لطالما اختلفنا حولَها.

كذلكَ فها أنا أدعوكَ لتُخاطبَني عبر هذا الموقع الالكترونيّ الذي قُمت بتحميل الكتابِ من خلالِه ، أدعوكَ لكتابةِ كلّ ما يجولُ بخاطركَ حولَ القضايا المطروحةِ في هذا الكتاب ، وسأسعى جاهداً للردّ على أي رسالةٍ تَردُني من أي شخصٍ عربيّ أو فلسطينيّ أيّاً كانَ مضمونَ تلكَ الرسائل ، بشرطِ ألّا تَحرجَ تلكَ الرسائلُ عن حدودِ الأدبِ والاحترامِ المُتبادلِ.

أخيراً وليسَ آخراً ، أتمنى أن تدركَ أيّها الجارُ العزيزُ بأنني لا أمتلكَ حلّاً خلّاقاً لهذا الصراع ، ولا أريدُ أن أوهِم أحداً بذلك ، كوني أعملُ كاتِباً وأديباً لا رجلَ سياسةٍ أو صانعَ قرار ، بالتالي فإن مسؤوليّتي ككاتبٍ تتجلّى في كتابةِ حقيقةِ هويّتي بحسبِ طريقةِ فهمي لها ، وهوَ الأمرُ نفسهُ الذي أتمنى منكَ فعلهُ : أن تكتبَ لي عن هويّتكِ الفلسطينيّةِ وطريقةِ فهمِك لها. إنني أكتبُ لكَ وكلّيَ أملٌ أن نصنعَ سويّاً نموذجاً يُحتذى بهِ في طريقةِ خلقِ حوارٍ حضاريّ بين جانبينِ مُختلفين أثناءَ الصراع القائمِ بينهِما من خلالَ إصغائِنا لبعضِنا البعض ، الأمرُ الذي من شأنهِ أن يقودنا للمضيّ قدُما في سبيلِ خلقِ طبيعةٍ جديدةٍ ومُختلفةٍ للعلاقةِ القائمةِ بيننا. ها أنا أخاطِبُكَ وكلّي أملٌ بأن نخوضَ مع بعضنا البعض تجربةَ الإصغاءِ إلى بعضِنا البعض وأن تتكلّلَ تلكَ التجربةُ بالنجاح.

المؤلّف
يوسي كلاين هاليفي

الرسالةُ الأولى : الجِدارُ الذي يفصِلُ بينَنا

جاريَ العزيز،

بدايةً، فقد لقّبتُكَ بـِ **"جاري"** كوني أجهلُ اسمكَ وأيّ معلومةٍ شخصيّة أستدلّ بها عليك. بطبيعةِ الحالِ ونتيجةً للظروفِ المحيطة بنا فإن كلمة "جار" قد تكون لقباً عفوياً جداً يصفُ طبيعة العلاقة بيننا; كونَنا نمثّلُ جانبينِ متطفّلينِ دخيلينِ على أحلام بعضِهما البعض، إننا مُنتهِكونَ لما يشعرُ به كلٌّ منّا تجاهَ وطنه ، كما أننا نُجسّد فعلياً أسوأ الكوابيسِ التاريخية لبعضِنا البعض ..

جيران؟! .. عمليّاً أنا لا أعرفُ أي لقبٍ آخرٍ لأخاطبكَ به سوى هذا اللّقبْ!

لوهلةٍ اعتقدتُ بأنّه قد تحينُ الفرصةُ التي سألتقي فيها بِك، وها أنا أكتبُ لكَ على أملِ أن نلتقي يوماً ما، مُتخيّلاً إياكَ داخلَ منزلكَ في مكانٍ ما على التلّة المقابلة التي تُطلّ عليها شُرفتي. إنّنا لا نعرفُ بعضنا بعضاً على أرضِ الواقعِ، إلا أنّ حياتي وحياتَكَ متداخلتان ببعضِهما البعضِ إلى حدٍ كبير.

في واقعِ الحال يا جاريَ العزيز، كلانا يعيشُ على جانبين متقابلين من جدارٍ اسمنتيّ ينغّصُ علينا منظرَ الطبيعية الخلّابةِ التي نتشاركها سويّة. أنا أسكنُ في حيّ يُدعى التلّة الفرنسية، شرقي القدس، شقّتي موجودة في الصفّ الأخير من المنازلِ التي تبدو لكَ كمبانٍ مدرّجة تنحدرُ من تلكَ التلّة.

ومن التلّة الفرنسيّة - حيثُ أسكنُ - بالكاد أستطيع رؤيةَ الحاجز العسكريّ، ذلكَ الحاجزُ الذي لا بدّ لكَ وأن تعبره كي تتمكّنَ من دخول مدينةِ القدس - إن كانَ لديكَ تصريحٌ يخوّلكَ بالدخول إلى القدس أصلاً- . أنني أشعرُ بوجود ذلكَ الحاجزِ في كلّ مكانٍ رغم أني بالكادِ أراه. بينَ الحينِ والآخر تُعكّر أصواتُ أبواقِ السياراتِ روتين حياتيَ الصباحيّ الذي أبدأهُ بالتأملّ والصلاة، تلكَ الأصواتُ التي يصدرُها السائقونَ المحبطونَ الذينَ يصطفّون أمام الحاجز، ولربّما تكونَ أنتَ يا جاريَ العزيز أحدَ اولئكَ العالقينَ في صفّ اليأسِ ذاك!

أحياناً أرى الدخانَ يتصاعدُ من فوقِ تلّتِك حيثُ تَسكُن، وقد عَلِمتُ منذ وقتٍ طويلٍ أن ذاكَ الدخانَ الأسودَ قد يكونُ مصدرهُ الإطاراتُ المُشتعلةُ التي عادةً ما تُرافقُ المواجهاتِ التي يرشقُ بها الشبّانُ الفلسطينيون الحجارةَ على الجنود الاسرائيليين ، ثمّ يتلو ذلك تصاعدٌ للدخان الأبيض، مما يعني أن الجنودَ قد أطلقوا على الشبان غازاً مسيلاً للدموع. لطالما كنتُ أتساءلُ عن كيفية إدارتِكَ لأمورَ حياتك، كيفَ تُحافظُ على قدرٍ منَ الحياةِ الطبيعيةِ وسط هذه المَعمَعة؟

إنني أعي تماماً بأنك كمواطنٍ فلسطينيّ محرومٌ من حقوقِ المواطنةِ التي أتمتع بها أنا كمواطنٍ إسرائيلي، وهذا التفاوتُ المُستمرّ بين حقوقي وحقوقِك، بينَ تلّتي وتلّتكَ، يتعارضُ مع فهْميَ العميقَ لذاتي، كما ويتعارضُ مع أخلاقيّاتي كيهوديّ وكإسرائيليّ ; لذا فإنّ إنهاءَ هذا التفاوتِ بيننا هو أحدُ أهمّ الأسبابِ التي تجعلني أدعمُ خيارَ حلّ الدولتين كَحلّ للصّراعِ الفلسطينيّ الإسرائيليّ.

عادةً وقبَيلَ الفجرِ، أجلسُ في مكتبي المقابلِ لتلّتِك، بينما يُنادي المؤذنُ للصّلاةِ بصوتٍ هاديءٍ وكأنه متردّدٌ لا يريدُ أن يُكدّرَ سكونَ الليل. في هذا الوقتِ من اليوم، ألُفُّ نفسيَ برداءِ صلاةٍ أبيضَ وأجلسُ متربّعاً على وسادةِ التأمّل، أسجدُ فيَطَأُ جبينيَ الأرضَ تلبيةً لنداءِ الصّلاةِ القادمِ من هناك. وخلالَ هذا الحديثِ الروحانيّ مع الله، أسألُهُ أن يجيبَ دعوايَ وأن يُمَكّنني من الحديثِ معكَ يوماً ما.

تشرِقُ بعدها شمسٌ شاحبةٌ على الصحراء من خلفِ الجدار، أثني ذراعيّ الملفوفتين بأشرطةِ التفيلين السوداءَ، بينما أثبّتُ على ساعدي صندوقاً أسودَ صغيرَ صوبَ قلبي وصندوقاً آخرَ على جبيني، في إشارةٍ إلى اقترانِ القلبِ والعقلِ معاً في أداءِ العبادة. في داخل هذه الصناديقِ الصغيرةِ تُكتُبُ آياتٌ من التوراة، إضافة إلى الصلاةِ اليهوديّة التي تؤكّدُ على وحدانيّة الله: **" إسمع يا إسرائيل، الرب إلهُنا ربٌّ واحد"**، أو كما تقولُ الآيةُ القرآنية الكريمة:**"وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ"**.

إنني أرى بوضوحٍ من نافذةِ بَيتي في زاوية المدى البعيد مساحةً شاسعةً مغطاةً بالرملِ تتلوها رقعةً زرقاءُ غير مُتسقة: أرى البحرَ الميّتَ خلفَهُ هضابُ الأردنِ، فأتخيّل نفسيْ وكأنني أندمجُ في تلك المساحةِ الرّحبة، أتخيلُ نفسي جزءاً من بلاد الشرق الأوسط، إلّا أن الجدارَ يعيدُني إلى الواقع، إلى المساحةِ الضيّقةِ التي تطلّ عليها شُرفتي.

أذكرُ جيّداً إحدى المراتِ التي حاولتُ أن أتعرّفَ فيها عليكَ قبل أن يُبنى الجدارُ وقبلَ أن تسوءَ الأوضاعُ هنا، كانَ هذا أواخر عام 1998. بدت لي تلكَ الفترةُ وكأنها زمنٌ آخر، بالفعل كانت قَرناً آخر! أذكرُ حينَها أنّي انطلقتُ لرحلة "حجّ" أتعرّفُ بها على الديانتينِ الإسلاميّة والمسيحيّة، دياناتِ جيراني على هذهِ الأرضِ المُقدسة. انطلقتُ في هذهِ الرحلةِ كَيهوديّ متديّنٍ لم يكُن يَسعى لفهم مُعتقَدِكَ بقدرِ ما كانَ يسعى لفهمِ جزءٍ من تجربةِ حياتكَ الدينيّة، أردتُ أن أتعلّم كيفَ تُصلّي وكيف تقفُ بين يدي اللهِ في أكثرِ الأوقاتِ قُرباً وروحانيّةً بينكما.

كانَ هدفي آنذاك أن اكتشفَ إمكانية وجودِ بعضِ القواسمِ المُشتركةِ بينَ اليهودِ والمسلمونَ فيما يخصّ الذاتَ الإلهية، وفيما إذا كانَ باستطاعةِ أبناءِ هذه الدياناتِ أن يتشاركوا مع بعضِهِم البعضَ هذه البقعةَ من الأرض، هذه الأرضُ التي يُستغلّ بها اسمُ اللهِ في الكثير من الأحيانِ لتبرير الكثيرِ من الأعمالِ الشنيعةِ . أردتُ أن أتعلّم كيفَ بإمكاني أن أشعرَ وكأنني في بيتي حينَ أكونُ في المسجد، أردتُ أن أرى في الإسلامِ فرصة روحيّة، لا مصدراً لتهديدِ وجودي. أردتُ أن أصغيَ للدعوةِ الحقيقيّة التي يقصدُها المؤذنُ حينَ يُؤذّنُ لصلاةِ الفجرِ: الدعوةُ للاستيقاظ!

في الديانةِ اليهوديّة هنالِكَ خطيئة نعتبرُها أفظعَ من خطيئةِ الإفطارِ في يومِ الغفران، وهي ازدراءُ الذاتِ الإلهيّة ، فيما يكونُ الذنبُ أكبرَحينَ يَرتكبُ إنسانٌ متديّنٌ هذه الخطيئة فإذا أساءَ هذا المتديّنُ للذاتِ الالهيّة او اقترفَ ظلماً باسم الله فإنّهُ سَيقودُ غيرهُ لارتكابِ هذهِ الخطيئة باعتبارهِ قدوةً ومثلاً. ومن هذا المنطلقِ فإن إحدى الأمورِ التي تجمعُ بين الأديانِ - بحسب رأيي- هي تقديسُ اسمِ الله . إنني أرى في التفاعلِ مع مؤمني الدياناتِ الأخرى فُرصةً لخلقِ تواضع دينيّ يقود إلى قناعةٍ راسخةٍ مفادُها بأنّ الوصولَ إلى الحقيقةِ والقداسةِ لا يَقتصرانِ على طريقٍ واحدٍ. إنني أعتزّ بديانتي اليهوديّةِ وأفخرُ بها، وأعدّها لغةً حميميّة روحانيّةً للتواصلِ مع الله ، لكنّي في الوقتِ نفسِهِ أؤمنُ بأنّ الله يتكلمُ لغاتٍ عديدةً معَ عبادِه.

لقد كنتُ مُبتهجاً للغايةِ حينَ شاركتُ بالعديد من المحادثاتِ والنقاشاتِ التي استطعتُ من خلالِها أن ألمسَ شيئا من ذاتِ الله، حيثُ كانَت تلكَ غايتي ومَقصدي عندما تعرّفتُ على عالم الإسلام. إنني أذكرُ جيّداً ذلكَ الشرفَ العظيمَ الذي حظيتُ بهِ حينَ سَنحَتْ ليَ الفرصةُ بزيارةِ عدّةِ مساجد، خاصة وأن زيارتي قد تزامنَت مع وقتِ أداءِ الصلاة.

رأيتُ آنذاك كيف تكونُ صفوفُ العبادةِ واندمجتُ بتلكَ الحركاتِ المُنسّقة والمُتناغمةِ التي يؤدّيها المسلمونَ أثناء صلواتِهِم، إذ تشعرُ خلالَ تأديةِ تلكَ الحركاتِ بأنّ جسدَك يُغمرُ كليّاً في روحانيّة العِبادة، حيثُ تعلّمت حينها أن تجربة الخضوع للهِ تبدأ مع اصطفافِ المسلمينَ بجانبِ بعضِهِم، حينَ ترتصّ الصفوفُ فيلاصقُ كتفُكَ كتفَ جارٍ لكَ من كلا الجانبين، ثم يتلو ذلك أداءُ الحركة المقدّسة: الانحناءُ ثمّ الاستقامةُ ثمّ السّجودُ ومن ثمّ الوقوف، فيما تتكرّرُ هذه الحركاتُ

إلى أن تشعرَ بأن جَسدَك يموجُ كالماءِ، كجزيئةٍ صغيرةٍ من موجةٍ عظيمةٍ من الصلواتِ التي بَدأت منذ زمنٍ طويلٍ قبل َأن تُخلقَ، وستستمرُّ لفترةٍ طويلةٍ بعد أن تَفنى.

إنّ التعايشَ في الأرضِ المقدّسةِ منوطٌ أحياناً "بالانفصالِ المُشترَك" ; أعني انفصالاً متّفقاً عليه إلى حدٍ ما، هذا الانفصالُ الذي يتجسّدُ فعليّاً في أحياءِ القدسِ الأربعة: الحيّ الإسلاميّ واليهوديّ والمسيحيّ والأرمنيّ ; فهؤلاء يمثّلونَ تجسيداً عملياً لواقع الأمانِ هناك، إذ ترتبطُ درجةُ الأمان بمقدار المسافة الفاصلةِ بيننا. لقد كانت رحلتي بمثابةِ اختراقٍ لواقع التعايشِ عن بُعد، لقد مَثّلتْ رحلتي إصراراً على امكانيةِ وجود مودّةٍ حقيقية بين الجميع.

وكجزءٍ من رحلةِ اكتشافي للإسلامِ دُعيتُ في يومٍ من الأيامِ من قبلِ بعضِ الأصدقاءِ في غزة، تحديداً من مخيم النصيرات للاجئينَ الفلسطينيين. أذكرُ هذا المكانَ جيداً كوني خدمتُ فيهِ أثناءَ تأدية خدمتي العسكريّة سنة 1990، حيثُ شاركتُ في دورياتِ الجيشِ التي كانت تمرّ بزقاق المخيم الضيقة، فكانَ الشبانُ يرشقوننا بالعبواتِ الزجاجيّة المكسورة بينما كانوا يهتفون قائلين "عَمنون بيسلّم عليك" ، قاصدينَ بذلك أنّ الجندي عمنون بوميرانتز يبعثُ لك سلاماً. وعَمنون بوميرانتز هوَ جنديّ اسرائيليّ من جنودِ الاحتياط خدم في غزة آنذاك إلا أنه وعن طريقِ الخطأ توجّه إلى مخيم البريج - وهوَ مخيم مجاور لمخيمِ النصيرات- فلقيَ مصرَعَهُ حينَ أحاط به حشدٌ من الفلسطينيّين ثمّ أحرقوه حيّاً.

بعد مضيّ عقدٍ من الزمان عدتُ هذه المرة إلى مخيم النصيرات كزائرٍ مدنيّ "حاجّ" ، لا كجنديّ. أذكُر وقتها أنّي قابلتُ شيخاً طاعِناً في السنّ يُدعى الشيخ عبد الرحيم، كان هذا الشيخُ إمامَ مسجدٍ صوفيّ صغيرٍ في تلك المنطقة، وما يميّزُ جماعةَ الصوفيّين هو أنّهم يركّزون على إعمال القلب في العبادة أكثرَ من أي شيءٍ آخر. رحّب الشيخُ بي في مسجدِهِ الصغير الذي بُنيَ في الجهة المقابلةِ لمقبرة ; الأمرُ الذي لم يكن بمحضِ الصدفة، فالهدفُ من وجودِ المقبرةِ في الجهةِ المقابلةِ للمسجدِ هو ردعُ العباد وتحذيرهُم من اتّباعِ طريقِ الضّلال من خلالِ تذكيرِهِم بالموتِ.

حاولَ الشيخُ في بداية لقائِه بي أن يُقنعني باعتناقِ الإسلامِ، فطلبَ منّي رفع سبابةِ يدي وتَرديدَ الشهادتينِ - وهما الجملتانِ اللتان يبدأ دخولُ الانسانِ للإسلام بالنطق بهما - ، إلا أنني وضّحتُ له بأن هدفي من زيارةِ هذا المكانِ هو التعرّفُ على كيفية أداءِ المسلمينَ لعباداتهم، وأنّي لم آتِ إلى هُنا لتبديل ديني كونيَ على قناعةٍ تامّة بديانتي اليهودية.
لم يكُن كلامي مُقنعاً للشيخُ ; كونَه يعتقُد بأنه لا يوجدُ سوى طريقٍ واحدٍ يقودُ إلى الله، وهو الطريقُ الذي رسمه النبيّ محمد (صلّى اللهُ عليهِ وسلّم)،على حدّ تعبيره. فَجأةً، قادني الشيخُ إلى المقبرةِ المقابلةِ للمسجد، فدخلنا إلى ضريح شيخِهِ ومعلّمِهِ، ووقفَ كلانا بصمتٍ لبعض الوقت ثم ما لبثَ أن أمسكَ الشيخُ بيدي مُعلناً بذلكَ عن صداقةٍ تجمعُ بيني وبينه، صداقةٍ حقيقيّةٍ في السرّاءِ والضرّاء.

وبعدَها بشهورٍ قليلةٍ عدتُ إلى مُخيم النّصيرات، لكنّ هذه الزيارة كانت مختلفة بعضَ الشيء ; إذ قابلَني الشيخُ عبد الرحيم هذه المرّة وقد بدَت على وجهه الابتسامة، واضعاً يدهُ على قلبه قائلاً: " لقد اعتبرتُكَ صديقاً من أصدقائي منذُ اللحظةِ التي زرتَ فيها هذا الضريح ووضعتَ يدك بيدي" ، ثم أردف قائلاً : " إنني أحبُّ جميعَ تلاميذي من كلِّ قلبي، ولا أفرّق بينهَم سواءاً كانوا يهوداً أو مسلمينَ".

وبعد أن انتهتَ رحلتي التي استغرقَت قرابةَ العامِ بدأ حبُّ الإسلامِ يتملّكُ قلبي. لقد احترمتُ وُجدانَ الإسلامِ الذي لا يَعرفُ الخوفَ، خاصة عندما يتعلّقُ الأمرُ بمواجهةِ الموتِ، الأمر الذي وجدته مميزاً للغايةِ مقارنةً بنظرة الانسان الغربيّ الذي يحاولُ التملّصَ من أي مواجهةٍ تذكّرهِ بالموت، خلافاً لطبيعةِ المسلمين. لقد تعرّفتُ جيِّداً خلالَ هذه الرحلة على القدرة العجيبةِ التي يمتلكُها الإسلامُ في خلقِ وعيٍ عميقٍ لدى أتباعهِ بحقيقةِ فناءِ الإنسانِ، مهما صَغُرَ أو عَظُمَ شأنهُ.

لقدُ سُئلتُ أكثرَ من مرّةٍ في خضمّ نقاشاتيَ السياسيةِ مع الفلسطينيين هذا السؤال: لماذا نُجادلُ بَعضَنا البعضَ حولَ قضيةِ مَن مِنّا يملكُ هذه الأرض طالما أنّ الأرضَ ستمتلكُنا جميعاً في نهاية المطاف؟ السؤالُ الذي لفتَ نظري إلى وجود تعبيرٍ مشابهٍ في معتقداتي أيضاً. ومن هذا المنطلقِ فإن جُرأتنا في تبنّي فكرة وجودِنا المؤقتِ على هذه الأرض كمرحلةٍ انتقاليّة تفصِلُ بين هذهِ الحياةِ وحياةٍ أخرى بامكانِها أن تُساعدنا على ايجادِ خطابٍ دينيّ للسّلامِ بين شعبينا ; الأمرُ الذي سَيشكّلُ أساساً لتحقيق مرونةٍ سياسيّةٍ تقودنا إلى نبذِ التوجّهاتِ المتشدّدةِ والعزوفِ عنها.

جاريَ العزيز، إنّني أسردُ لكَ هذه الحكايا والقصص كوني أفترضُ بأنّك انسانٌ متديّن - شأنُك شأنُ أغلبِ الفلسطينيين الذي التقيتُ بهم -، وإن لم تكُن كذلك، فأنا أفترضُ بأنّك -على الأقل- مؤمنٌ موحّدٌ لله. لقد جَسّدَت رحلتي التي خضتُ فيها غمارَ عقيدتِكَ الإسلاميّة محاولةً منّي لتعلّم لغةٍ دينيّة للسّلام ; الأمرُ الذي عمّق من قناعتي بأنّ أحدَ الأسبابِ التي جَعلت الجهودَ الدبلوماسيّة المبذولةَ حتى الآن تبوءُ بالفشل - رغم وجود نوايا حسنةٍ تقفُ وراءها - هو تجاهُلُها لِمسألةِ عُمقِ الالتزاماتِ والواجباتِ الدينيّةِ المتأصّلةِ في الدياناتِ على كلا طرفي الصراع. بالتالي يتوجّبُ علينا أن نخاطبَ أفئدةَ بعضِنا البعض حتى نَنجحَ في تحقيق سلامٍ حقيقيّ في الشّرقِ الأوسط.

ولهذا ها أنا أخاطِبُك من هذا المُنطلق، من منطلقِ انسانٍ مؤمنٍ يخاطبُ انساناً مؤمناً آخر، وبغضّ النظرِ عن اختلافنا في التعبير عن ايماننا بعقيدتنا إلّا أنّ إيماني وإيمانكَ يتشاركان نظرةً جوهريّة ومُشتركة للعالَم: بنهاية المطاف فإنّ ما لا نراهُ هوَ حقيقيّ وملموسٌ أكثرَ ممّا هوَ ماديٌّ وملموس، وأنّ هذا العالمَ ليسَ تركيباً عبَثيّاً أو عشوائيّاً، بل هوَ تعبيرٌ بحثٌ عن خلقٍ وُجِدَ لغايةٍ مُعيّنة، حتى وإن كانت تلكَ الغاية مُستترةً. إنّهُ تعبيرٌ عن أننا أرواحٌ قبلَ أن نكونَ أجساداً، حيثُ تترسّخُ هذه الأرواحُ مجتمعةً في مبدأُ الوحدانية، وحدانيّة الله عزّ وجَلّ. بالنسبة لي، فأنا لا أرى أمراً أكثرَ سُخرية من قضيّةِ انكارِ وجودِ اللهِ سوى الأفكارِ القائلةِ بأنّ مُعجزةَ الحياة والوجودِ قد جاءَت بمَحضِ الصّدفة.

في حقيقةِ الأمر، لم يهدِف ترحالي في المجتمع الفلسطيني إلى التعرّفِ على حياتكَ الدينية وطريقة تأديتك لعباداتِكَ فقط، بل أردتُ رؤيةِ جزءٍ من هذا الصراع من وجهة نظركَ أنت. أردتُ أن أجبرَ نَفسي على الانفتاح أكثَر لأرى المأساةَ الفلسطينية، تلكَ المأساةُ المتمثّلةُ في وجودِ شعبٍ مُنكسِرٍ تجمعُه ذكرى الشتاتِ والتشريد، شعبٌ يستحضرُ كلّ سنةٍ ذكرى الهَزائِمَ المُهينةِ التي تجرّعَ مرارتَها.

جاري العزيز، لقد بَذلتُ قُصارى جهدي كي أقابلَ وأواجهَ الفِلسطينيينَ وأتفهّم علاقتَهم التاريخية وسببَ تشبثّهم بهذه الأرض بمعزلٍ عن روايتي الشخصيّة كيهوديّ اسرائيليّ يمثّل طرفاً من أطراف هذا الصراع. لقد حاولتُ جاهِداً أن أتفهّم الأخطاءَ التي اقترفناها تجاه شعبِك، وفي خضمّ تلكَ المحاولاتِ قابلتُ العديدَ من الفِلسطينيينَ الذي هُدمت بيوتهُم من قبل السلطاتِ الاسرائيليّة نظراً لعدم حيازتهِم على تصاريحَ للبناء، تلك التصاريحُ التي لطالما عقّدت بلديّة القدسِ من إجراءاتِ منحِا للفلسطينيين بالدرجة الأولى.

لقد أصغيتُ لروايتكَ المُتعلّقة بهذا الصراع وقرأتُ مؤلّفاتٍ ومذكّراتٍ عديدة لمؤرّخينَ وأدباءَ فلسطينيين، لذلكَ أريدُكَ أن تكونَ على قناعةٍ تامّةٍ بأنّ الروايةَ الفلسطينية لهذا الصراع تُلازمني دوماً. ولكن، ولكي أكونَ صريحاً معك، فإن تفهّمي لروايتكَ لا يعني فقداني لتعاطفي وحبّي تجاه حقيقةِ عودةِ شعبيَ اليهوديّ إلى أرضِه، كوننا نضعُ رجوعنا إلى وطنِنا في هذا السياق الدينيّ.

إنّ عودتَنا إلى وطنِنا هو أمرٌ أعتزّ بهِ كثيراً، كونَ هذهِ العودة تُجسّد قصّةَ إصرارٍ وثباتٍ وجُرأة، والأهمّ من هذا كلّه: إنّها قصّة ايمانٍ وعَقيدة. لكن من جهة أخرى، لم يَعد بإمكاني أن أتجاهَلَ جانبكَ – الجانبَ المقابلَ لقصّة عودتِنا – والذي يعني لكَ انتهاكَ أرضِكَ واحتلالِها وتشريدَ شعبها. أريدكَ أن تُدركَ تماماً بأنّ كلا الروايتينِ لكلا الطرفين على جانبي هذا الصّراع تتواجدان بداخلي كروايتين مُختلِفَتينَ للقصّةِ ذاتِها.

إننا نُقرّ كإسرائيليينَ بأننا قد تجاهلناكُم لسنواتٍ طويلة، لقد عاملناكُم كما لو كنّا لا نَراكُم، كما لو انكّم غيرُ موجودونَ أبداً، تماماً كما تجاهلَ العالمُ العربيّ حقّ اليهودِ في التعريفِ عن أنفسهِم كشعبٍ يَستحقّ سيادةً وطنيّة، لذا فقد تجاهلنا حقّكُم كفلسطينيينَ في التعريف عن هويّتكُم الوطنية كشعبٍ مستقلّ رغم انتمائِه للأمّة العربية. لهذا فإن حلّ هذا الصراع لا يستوجبُ منا الاعتراف المتبادلَ بحقّ كلا الجانبين في تقرير المصير فقط، بل يستوجبُ أيضاً الاعترافَ المتبادلَ بحقّ كل طرفٍ من الأطرافِ في التعريفِ عن هوّيتِه الوطنيّة التي تعبّرعنه.

وليكُن بمعلومِك يا جاريَ العزيز، فقد بدأ يتجّهُ الكثيرُ من الاسرائيليينَ نحو قبولِ فكرةِ حقّ الفلسطينيين في التعريفِ عن هويّتِهِم الوطنيّة التي تعبّرعنهُم. فبعدَ اندلاع الانتفاضةِ الأولى في أواخرِ الثمانينيّات من العقد المُنصرِم اصبحَ الكثيرُ من الاسرائيليين من أبناء جيلي على قناعةٍ تامّة بأنّ اليسارَ الإسرائيلي كانَ مُحقّاً منذ وقتٍ طويل حينَ حذّرَ من العواقبِ الكارثيّة لاحتلالِ الضّفة الغربيّة، ليسَ على الفلسطينيين فحَسب بل على الإسرائيليين أيضاً. لقد أدرَكنا لاحقاً بأن ثمَنَ تطبيقَ ادّعائِنا التاريخيّ بأحقيّتنا في السيطرة على كاملِ الأرضِ من النّهرِ إلى البحر كانَ ثمناً باهظاً. لقد أدرَكنا بأننا لن نَستمرَ في كوننا دولةً ديمقراطيّة تحكُمُها القيم الأخلاقيّة اليهوديّةِ طالما تواصلَ احتِلالُنا لشعبِكُم، وليكُن بمعلومِكَ أيضاً بأننا نحنُ أنفسُنا لم نمتلكِ أيّ نيّة لاحتلال شعبِكُم. إنني أكتبُ لكَ وكلّي أملٌ بأنك تُدركُ تماماً عدم وجودِ أيّ نيّةٍ لديّ لتجاهلِ أو انكار حقِّكَ أو ألمِكْ.

بطبيعةِ الحال وخلال تلكَ الفترة واصلَ الكثيرُ من الاسرائيليين تبنّي الفكرةَ القائمةَ على كونِ الجانبِ الإسرائيليّ محقاً كل الحقّ في ادعاءاتهِ وحجّتهِ التاريخية، مُنكرينَ بذلك أيّ أحقّيّةٍ تاريخيّة للفلسطينيينَ في الوجودِ على هذه الأرض، لكن في الوقتِ نفسه ظهرَتْ نسبةٌ لا يستهانُ بها من الشعبِ الاسرائيليّ التي تنظرُ إلى الأمورِ بطريقة مُختلِفة تماماً.

وقد ظهرَ آنذاك معسكرٌ من "الاسرائيليّينَ الذينَ يسيطرُ عليهِمُ الشعورُ بالّذنبِ". لقد آمنَ هذا المُعسكرُ – وأنا من ضِمنِهِم – بأن مسؤولية مدّ يدِ السّلامِ للفلسطينيينَ تقعُ على عاتقِ دولةِ إسرائيلَ كونها قوّةً مُحتلّةً، تلكَ الفِكرةُ التي يجبُ أن تطبّقِها إسرائيلُ على أرضِ الواقع من خلالِ طرحِها لخطّة سلامٍ حقيقيةٍ مع الفِلسطينيين. ولهذا السّبَب فقد وقَفنا جميعاً خلفَ رئيس الوزراءِ الإسرائيليّ إسحق رابين حينَ مدّ يدهُ وصافحَ ياسرعرفات في باحةِ البيتِ الأبيضِ في الثالث عشر من أيلول عام 1993، مُعلنينَ بذلكَ انطلاقَ مباحثاتِ أوسلو للسّلام بشكلٍ رسميّ.

وفي الشهر ذاته - شهر أيلول- من سنةِ 2000 اندلَعَت الانتفاضةُ الثانية، حينَها قتلُ وأصيبَ الآلافُ من الإسرائيليّينَ في الشوارِع الإسرائيليّة، في الوقتِ نفسِه تعرّضَ عددٌ أكبرُ من الفلسطينيين للقَتلِ والإصابة في المناطق الفلسطينية، فيما أصبحَت هياكلُ الباصاتِ الإسرائيليّة التي تعرّضَت لعمليّات التفجير جُزءاً من المَشهدِ الإسرائيليّ آنذاك. يُمكننا القولَ بأن المشاهدَ المؤلمةَ التي شهدناها في تلكِ الفترة بدأت بالتلاشي شيئاً فشيئا، إلا أنّ هذه القصة لا تزال محفورةً في مُخيلتي حتى الآن.

بدأت هذه القِصة عندما أقدمَ انتحاريّ فلسطينيّ على تفجير نفسه في مَقهىً بجانبِ مكتبي ومكانِ عملي في القدس، فأدّت هذه العمليةُ الانتحاريّة إلى مقتلِ أبٍ وابنتِهِ عشيّةَ حفلِ زفافِها الذي كان مُقرّراً في اليوم التالي، فجاءَ الناسُ مُعزّينَ بدلاً من أن يكونوا مُهنّئينَ، واجتمعَ الناسُ في جنازتِها بدلاً من أن يجتمعوا في حفلِ زفافها. لقد كانَت تجمعُني صداقةٌ ببعضِ أفرادِ تلكَ العائلة، لذا زرتُ منزلهُم مؤدّياً واجبَ العزاءِ، فكانَت زوجةُ الفقيدِ وأمّ أبنائِهِ المفجوعةُ من هولِ ما حدث تستقبلُ المعزّينَ وتواسيهُم، مؤكدّة لَهُم صَبرها في محنتِها وإيمانها العميق وإصرارها على البقاء،عندها فقط أدركتُ أنّ الأمّة اليهودية لَن تُقتلعَ مِن أرضِها مرةً أخرى مهما حدَث.

لقد ربّيت وزوجتي سارة ابنين كانا في سِنّ المراهقةِ عقبَ اندلاع الانتفاضة الثانية، أذكر جيّداً كم داومتُ على تقبيلِهم وتوديعهِم كل يوم صباحاً قُبيل مُغادرتي المنزل، مُتسائلاً بيني وبينَ نفسي فيما إذا كنتُ سأراهُم مجدّداً أم لا. ولسوءِ الحظّ، فقد وَجَدَ ابناي لمراتٍ عديدة أنفسَهُما بالقُربِ من أحداثِ العُنف التي وقعَت حينَها، إحدى هذه المشاهد كان الاعتداءُ الذي راحَ ضحيّتهُ شاب اسرائيليّ يبلغُ الثلاثينَ من العُمرِ يُدعى كوبي ماندِل، والذي كانَ زميلَ ابني غابرييل في إحدى المخيّمات الصيفية، حيثُ رُجِمَ كوبي حتى الموت فيما عُثِر على جُثّتِهِ في إحدى الكهوف. تشوّهَت ملامِحُ كوبي إثرَ هذا الاعتداءِ ولم يكن بالإمكان التعرّف على جثّتِهِ لولا تحليلُ الحمضِ النوويّ.

وبطبيعة الحال يختلفُ الإسرائيليونَ والفلسطينيونَ بشدّة فيما يتعلّق بقضيّةِ المسؤوليةِ عن فشلِ مباحثاتِ أوسلو للسّلام، وممّا لا شَكّ فيهِ بأنَ الجدَلَ حول هذه المسألةِ قد يستمرّ لسنواتٍ عديدة قادمة. يُؤمنُ غالبيةَ الشعبِ الإسرائيليّ - ومِن ضِمنهِم أنا شخصيّاً - بأنّ القيادة الإسرائيليّة قد بَذَلَتْ ما في وسعِها لإحلالِ السلام آنذاك، في الوقتِ الذي رفَضَت فيه القيادةُ الفلسطينيّةُ التنازُلَ وتوجّهت - عِوَضاً عن ذلك - لخيارِ العُنفِ بهدفِ إضعافِ إسرائيل واجبارها على التنازلِ أكثرَ وأكثر. إنه لمنَ المهم جداً أن تُدرك يا جاري العزيز- بغضّ النظر عن مدى معارضتك لوجهةِ النظرِ الإسرائيلية فيما يخصّ فشَل مباحثاتِ أوسلو- بأنكَ لن تتمكّنَ من فَهمِ المُجتمع الإسرائيليّ حالياً دونَ أن تأخذَ بعينِ الاعتبارِ كيف أثّرت تجربةُ أوسلو بشكلٍ عميقٍ في صياغةِ الرؤيةِ الإسرائيليّة ورسمِ سياساتِها.

لقد جسّدت الانتفاضةُ الثانيةُ لحظةً خابَ فيها أملُنا في القيادةِ الفلسطينية، وتحديداً نحنُ "الإسرائيليون الذين يسيطرُ عليهُم الشعورُ بالذّنبِ"، فَبدأنا نشكّكُ في صِدقِ نوايا القيادةِ الفلسطينيّة تجاه السلام، فنحنُ لم نتوصّل لهذه القناعة نتيجةً لما تعرّضنا لهُ من اعتداءاتٍ وعنفٍ فقط، بل توصّلنا لتلكَ القناعةِ نتيجةً لكونِ موجةَ العُنفِ تِلكَ جاءَت بعد أن قدّمت إسرائيلُ عَرضاً نعتقدُ وبكلّ صدقٍ بأنّهُ كان عرضاً جادّاً لانهاءِ الاحتلالَ.

وإن أرَدنا أن نكونَ دقيقينَ أكثر، فقد قدّمت إسرائيلُ عَرضَينِ لا عَرضاً واحداً لانهاءِ احتلالِها للضفّةِ الغربيّةِ وقِطاع غزة. ففي كامب ديفيد، وبالتحديد في تموز عام 2000، كانَ رئيسُ الوزراءِ الإسرائيليّ حينها ايهود باراك أوّل رئيسَ وزراءٍ إسرائيليّ يوافقُ على قيامِ دولةٍ فلسطينيّةٍ في الضفّة الغربية وقطاع غزّة، بحيثُ تكونُ عاصمتُها أحياءٌ عربيّة في القدس الشرقيّة ; الأمرُ الذي يعني أن إسرائيلَ كانت ستقومُ باجتثاثِ عشراتِ المستوطنات وطَردِ عشراتِ الآلافِ من المستوطنينَ من بيوتهِم. لم يكُن هناكَ جدارٌ فاصلٌ آنذاك، وأي منطقةٍ فاصلةٍ كانَت ستُبنى حينَها، كانَت ستهدفُ بالدرجةِ الأولى إلى فصلِ المناطقِ التي ستخضعُ للسّيادةِ الإسرائيليّة عن المناطق التي ستخضعُ للسّيادةِ الفلسطينيّةِ. وحتماً كان بالإمكانِ التخلّصُ منَ كلّ مظاهرِ الظلمِ التي رافقَت وجودَ الاحتلالِ لو قبِلَ الفلسطينيون بهذا العَرضْ، إلا أنّ ياسر عرفات رَفَضَ هذا العرضَ جُملةً وتفصيلاً دون أن يَطرحَ بديلاً لخطّة السلامِ تلك.

بَعد فشلِ محادثاتِ كامب ديفيد، تواصلُ الجَدلُ بين الإسرائيليين والفلسطينيين حولَ مدى جدّيّة الطرح الذي قدّمته إسرائيل كخطةٍ للسلام، إلّا أنهُ وبعد مضيّ ستة أشهرٍمن طرحِ تلك الخطة وتحديداً في شهر كانون الأول من عام 2000 ، قدّم الرئيسُ الأمريكيّ بيل كلينتون خطّةً جديدةً للسّلام، تتضمّنُ زيادةِ مساحةِ الأراضي التي وافقَ على منحها رئيس الوزراءِ الإسرائيلي ايهود باراك في مباحثات كامب ديفيد لإقامةِ دولةٍ فلسطينية ، لتُصبحَ 95% بدلاً من 91% ، إضافة إلى تبادلٍ للأراضي كنوع من التعويضِ، عدا عن شقَ طريقٍ يَصلُ الضّفةَ الغربيّةَ بقطاع غزة جُغرافياً، لكن مرة أخرى وافقَ إيهود باراك فيما رفضَ ياسر عرفات هذا العرض، الأمرُ الذي دفع بالرئيس الأمريكي بيل كلينتون لأن يُلقيَ اللّوم على ياسر عرفات ويحمّلهُ مسؤوليةَ فشلِ مباحثاتِ السلام آنذاك.

لقد كانت تلك لحظةَ انكسارٍ وخيبةَ أملٍ للكثير من الإسرائيليينَ الذين لطالما آمنوا بامكانيّة حلّ هذا الصراع. أنا شخصياً أعرفُ الكثير من المواطنين الإسرائيليين الذين بذلوا جُهداً لا يُستهانُ به لاقناع زملائهِم في العمل – على سبيل المثال – بوجودِ نيّة صادقةٍ لدى القيادة الفلسطينية بتحقيق السلام، وأن كلّ ما علينا فِعلهُ كاسرائيليينَ هو طرحُ خطة سلامٍ جادّة، وبمُجرّد طرح تلك الخطة فإن شعبَك، يا جاري العزيز، سيوافقُ عليها بكلّ تأكيد. لقد تمثّلَت مأساةُ اليسار الإسرائيليّ في نجاحهِ بإقناع الغالبيةِ العظمى من الرأي العام الإسرائيليّ بأهميّة الوثوقِ بتوجهّاته السياسية القائمةِ على ضرورة طرح خطة سلامٍ جادّة مع الفلسطينيين، لكن لاحقاً انفجرت خطة السّلامِ تلكَ في وجوهنا، انفجرَت بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى.

وفي عام 2008 عرضَ رئيسُ الوزراءِ الإسرائيلي آنذاك ايهود أولمَرت خطّة سلامٍ مشابهة تتضمّنُ انسحاباً كاملاً من الضفة الغربية وقطاع غزة ، اضافةً إلى تبادلٍ للأراضي ، إلا أننا لم نتلقَ أيّ ردٍ من الرئيسِ الفلسطينيّ محمود عباس على تلك الخطة . حالياً، وبناءاً على تجاربِنا السّابقةِ في طرح خططِ سلامٍ ورفضِها من قبلِ الفلسطينيين فإنّ المواطنَ الإسرائيليّ العادي يعتبرُ اليسار الإسرائيليّ بائعاً للوهم، ذلكَ المواطنُ الذي يتجلّى طموحهُ في العيشِ بأمنٍ وأمان في دولته ومع جيرانهِ كأيّ مواطنٍ يسكنُ أيّ دولةٍ أخرى. في الوقتِ نفسهِ ورغمَ كلّ هذه التجارِب لا يَزالُ اليسارُ الإسرائيليّ مُصرّاً على صِدقِ نوايا القيادة الفلسطينية في التوصّل إلى اتفاقِ سلامٍ مع الإسرائيليين .

ومَهما بلغَت درجةُ العنفِ أثناء الانتفاضةِ الثانيةِ من ترويع وفظاعة، تبقى الدوافع الخفيّة وراءَ موجةِ العنفِ تلكَ مُقلقةً ومروّعةً للإسرائيليينَ أكثر من موجةِ العُنف نفسِها، فهذهِ الدوافع كانَ أساسُها إنكارُ حقّ الشعبِ اليهوديّ في الوجود، وإنكارِ حقّهِ في السّيادةِ على أي بقعةٍ من هذه الأرض التي نتشاركهُا معاً اضافةً إلى تجاهلِ فكرة ومبدأ تشاركِ الأرض من قبل كلا الشعبينِ الفلسطينيّ والإسرائيليّ. لقد عايَشنا موجةً من العنفِ التي جَسّدت تعبيراً صريحاً عن المُشكلةِ العميقةِ المُتمثّلةِ في وجودِ نيّةٍ لإزالةِ الوجودِ اليهوديّ مِن على هذه الأرض. لم تكُن الانتفاضةُ التي شهدِناها موجّهةً ضدّ الاحتلالِ فقط ، بل كانت انتفاضةً موجّهةً ضدّ وجودِ دولةِ إسرائيلَ بأكملِها.

ولطالَما سمعتُ العديدَ من الفلسطينيينَ يُردّدون القولَ بأنهُم لا يملكونَ أيّ خيارٍ آخرَ سوى مواجهةِ الاحتلالِ بالعُنفِ. في الوقتِ نفسه، ينظرُ الإسرائيليون إلى هذا الموضوع من زاويةٍ مُختلفة تماماً. فمِن وجهةِ نظرنا فإنّ الاحتلالَ لم يَخلقْ العُنفَ، إلا أنّ العُنفَ هو الذي أطالَ من عُمرِالاحتلال، حيثُ رسّخ العنفُ الفلسطينيّ قناعةً لدى الإسرائيليينَ مفادُها بأنهُ مهَما قدّم الإسرائيليونَ من تنازلاتٍ سيبقى سيفُ العُنفِ الفلسطينيّ مسلّطاً على رقابِ الإسرائيليينَ، فيما جَسّدَت غزّة مثالاً حيّاً يؤكّدُ هذه القناعة، حيثُ أُطلِقَت آلافُ الصواريخ الفلسطينيّةِ تجاهَ الأحياءِ الإسرائيليّة المحاذيةِ للحدودِ رغم الانسحابِ الإسرائيليّ الكاملِ عام 2005 وإزالةِ كافّة المستوطناتِ و القواعد العسكريّة الإسرائيليّةِ من قطاع غزة.

وعدا عن هذا كلّه، لم تتوقّف القيادةُ الفلسطينيّة عن اقناع الشّعبِ الفلسطينيّ بعدمِ وجودِ أيّ شرعيّة تاريخيّة لإسرائيلَ كدولةٍ على هذه الأرض. لكنّ المفارقةَ في الموضوع تكمنُ في كونِها القيادةَ الفسطينيّة ذاتَها التي أقنعت الجانبَ الإسرائيليّ بأن هذا الصراعَ لا يتمحورُ بالأساسِ حولَ الحدودِ أو المستوطناتِ أو حتى القُدس والأماكن المُقدّسة، بل إنّ جوهرَ هذا الصراعِ يَكمنُ في حقّ الشعبِ اليهوديّ في الوجودِ على هذه الأرضِ والاعترافِ باليهودِ كسكّانٍ أصليّينَ لهذه البلاد أيّا كانَت الحدودُ التي تُحيط بهِم.

حقيقةً ، لقدّ أثّر احتضارُ اليسار الإسرائيليّ وانخفاضُ شعبيّتهِ في الشارع الإسرائيلي على سياساتِ إسرائيلَ لقرابةِ جيلٍ كامل، ومَع الفشلِ الذريع لمحادثاتِ أوسلو، حلّ اليمينُ الإسرائيلي مكانَ اليسارِ وأمسَك بمقاليدِ الحُكمِ في إسرائيل مرّة أخرى. ومَع هذا التحوّلِ الجذريّ أصبحَ مُعسكرُ اليسارِ الإسرائيليُّ الذي كان قادراً على حشدِ مئاتِ الآلافِ من الإسرائيليينَ في الشوارع أوائلَ التسعينياتِ عاجزاً عن حَشدِ بضعةِ آلافٍ حاليّاً.

وبطبيعةِ الحال، يُدركُ الكثيرُ من الإسرائيليّينَ أن مسؤوليّةَ الوصولِ إلى هذا الطريقِ المسدودِ لا تقعُ على عاتقِ الجانبِ الفلسطينيّ وَحدَهِ ; فالجانبُ الإسرائيليّ يتحملُ جزءاً كبيراً من هذه المسؤوليّة أيضاً. فعلى سبيلِ المثالِ، لقَد واصَلنا بناءَ المُستوطناتِ في الوقت الذي كانَت تجري فيه مباحثاتُ أوسلو بين الجانبين ; الأمرُ الذي زَعزَع مِن ثقةِ الفلسطينيينَ بمدى التزامِ الجانبِ الإسرائيليّ بالحلّ مما َعزّزَ مِن شعورِ الجانبِ الفلسطينيّ بالضّعف. ولكن عندما حانَت اللحظةُ الحاسِمةُ لايجادِ حلّ يُنهي هذا الصراع رأينا القيادةَ الإسرئيليّة تقولُ نَعَم، بينما رأينا القيادةَ الفلسطينية تقولُ لا.

إنني استذكرُ هذه الأحداثَ الهامّة كونَها غيّرَت توجّهات المُجتمع الإسرائيليّ كلّياً، بَل وغيّرَت توجهاتي أنا شخصياً، هذا عدا عن كونها تفسّرُ لكَ مدى العِبءِ الأخلاقيّ الجاثمِ على صَدري، ذلكَ العبءُ المتمثّلُ في الاحتلالِ من جهة والجدارِ الموجودِ أمامَ نافذتي من جهةٍ أخرى.

ومع الأسفِ الشدّيد، فقد ولَّت تلكَ الحُقبةُ التي كنتُ أزورُ فيها الأراضي الفلسطينيّة، كونَ تواجدي هَناكَ يُعرّضُ حياتي للخطر، فدخولُ الإسرائيليينَ إلى الأراضي التابعةِ للسلطةِ الفلسطينيةِ أصبحَ أمراً محفوفاً بالمخاطرِ، ووجودُ المواطنِ الإسرائيليّ في المناطقِ الفلسطينيّة يعني مجازفتهُ بحياتِه، لذلكَ منعَت الحكومةُ الإسرائيليةُ مواطنيها من دخولِ الأراضي الفلسطينيّة، مُنهيةً بذلك كلّ العلاقاتِ التي نسجتُها مع أصدقائيَ الفلسطينيينَ في السابق.

وفي الوقتِ الذي كانَت تتهافتُ فيهِ القنابلُ البشريّة من الجانبِ الفلسطينيّ بداية سنة 2000 ، فإنني – وكغالبيّة الشعبِ الإسرائيليّ – دعمتُ وبشدّة بناء جدارٍ عازلٍ يَفصلُ الضّفة الغربيةَ عن إسرائيل. لقد كانَت تلكَ محاولةً يائسةً بعد أن نفذَ صبرُنا ونحنُ نحاولُ وقفَ العملياتِ الانتحاريّة من الضفة الغربية داخلَ مناطق السيادة الإسرائيليّة، تلك العملياتُ التفجيريّة التي لم نعُد قادرينَ على احتمالها بعد استهدافِها للحافلاتِ والمقاهي الإسرائيليّة في كلّ مكان. وقَد بدا جلياً أن فكرةَ الجدار كانَت مُجدية ; فقد تزامنَ بناءُ الجدار العازلِ مع توقّف العملياتُ الانتحاريّة بشكلٍ تامّ، الأمر الذي جعلَني أرى في فكرةٍ وجودِ الجدارِ العازلِ وسيلةً تحقّقُ الأمانَ لأطفالي وضمانةً لبقائي في الشرق الأوسط. لذلك يتملّكني الشعورِ بالتناقُض، فها أنا أشعرُ بأني مُمتنٌ جدّاً لهذا الجدار الذي أكرهُه، إلا أنني - من جهةٍ أخرى - لا أملكُ أي وسيلةٍ أضمنُ بها أمني وسلامتي سوى هذا الجدار.

جاريَ العزيز، لقد أرهقَتني الانتفاضةُ الثانيةُ وأضعفَت من قُدرتي على المَضيّ قُدُماً، لم أعتقِد بأنهُ باستطاعتي أن أكملَ تلكَ الرّحلة بأي شكلٍ من الأشكال. لقد فقدتُ كل رغبةٍ في سماعِ قِصَصكَ و حُجَجِك وحُزنَك على الإطلاق! كُل ما أردتُ فعلهِ هو أن أصرخَ صوبَ تلّتِك لأقولَ لكَ بأعلى صوتي:
لقد كانَ من المُمكنِ أن يكونَ حالُنا مُختلفاً! فلنَتَشارَك الأرضَ معاً ولنتفاوَض ونتنازَل لبعضِنا البَعض! انظُر إليّ! حدّق بي! اعتَرِفْ بوجودي! مثلما تمتلكُ قصّةٌ تُريدُني أن أصغيَ لها ،عليكَ أن تعلمَ بأنّ لديّ قصّةٌ أنا الآخرَ وعليكَ أن تُصغيَ لها!

حقيقةً كلّما شاهدتُ الصورةَ التي يصوّر بها الإعلامُ الفلسطينيُ الشعبَ اليهوديّ وروايتَهُ التاريخيّة كلّما شعرتُ باليأس، ولأكونَ صريحاً أكثر يبدو ليَ الوضعُ في المُجتمع الفلسطينيّ وكأنَ إنكارَ فكرة وجودِ الشعبِ اليهوديّ وإنكارَ أحقيّتِهِم في إقامةٍ دولةٍ يهوديّة هو الأمرُ الذي يوحّدُ جميعَ وسائلَ الإعلامِ الفلسطينية بمُختلفِ ايديولوجياتّها وتوجّهاتِها.

ومعَ الأسفِ الشديد، فإنّ الفِكرَ نفسهُ يُنشرُ في المدارسِ والمساجدِ الفلسطينيّة أيضاً ، نفسُ الفكرِ الذي يتجاهلُ تاريخَ الوجودِ اليهوديّ على هذه الأرض، وبأنّ الصهيونيّة هيَ محضُ روايةٍ زائفةٍ وكذبةٍ كبيرةٍ ليسَ إلّا. وعدا عن هذا كله فهوَ الفكرُ ذاتُهُ الذي يَدّعي بأنّ المحرقةَ اليهوديّةَ - الهولوكوست - هي محضُ روايةٍ صهيونيّةٍ مُزوّرةٍ استغلّها الصهاينةُ لاستقطابِ الدعمِ الأوروبيّ لدولةِ إسرائيل. وبالرجوع إلى روايتِكَ التقليديّةِ المُتداولةِ في الجانبِ الفلسطيني فأنا بِنظَرِكَ - كيهوديّ- عبارةٌ عن شخصٍ مهووسٍ بنشرِ الأكاذيبِ وعلى رأسِها روايتي التاريخيّة المزوّرة من وجهةِ نظرك أيضاً، وأنّي مُجرّدُ لصٍ لا يَمتلِكُ أية حقوقٍ على هذه الأرض، كائنٌ فضائيّ لا يَمتّ لهذهِ الأرضِ بأي صِلة.

ولأزيدَك من الشّعر بيتاً، عادةً ما تصوّرُ وسائلُ الإعلامِ الفلسطينيّة اليهودَ على أنهم وحوشٌ ضارية! فنحنُ نقفُ خلفَ أحداثِ الهجوم على بُرجي التجارة العالميّين في الولايات المتحدّة - المعروفة بأحداث الحادي عَشر من سبتمبر- ، كما وأننا تعاونّا معَ النازّيينَ أثناءَ المحرقةِ اليهوديّة والتي أصلاً - بحسبِ اعتقادِكُم - لم تحدُث على الإطلاق. ونحنُ أيضاً - تبعاً لوسائلِ إعلامِكُم - نحصدُ أرواحَ الفلسطينيينَ ونَسرقُ أعضاءَهُم، ونحنُ أيضاً نتلاعبُ بالطبيعةِ من أجلِ التسبّبُ بكوارثَ بيئيّة. أنني أعرفُ الكثيرَ من الفلسطينيينَ الذينَ يرفضونَ تلكَ الصورةَ الشيطانيّة التي يتمُ رسمُها في مخيّلتِكِم عن اليهود بشكلٍ عام، وهُم لا يتوانَون للحظةٍ عن الاعترافِ بحقيقةِ كوننا - على كلا طرفي الصّراع - عالقونَ بين روايتينِ مُختلفتينِ ليسَ إلا. إنني أخاطبكَ وكلّي أملٌ بأنْ تكونَ واحِداً مِن أولئكَ الفلسطينيينَ، لكن وبحسب معرفتي بالمُجتمع الفلسطينيّ فإنّ مثلَ هذا التوجّهِ محظورٌ كليّاً من الظهور في وسائلِ الإعلامِ الفلسطينيّة التي تمثّلُ التوجّهَ العامَ للشعبِ الفلسطينيّ.

إنني على قناعةٍ تامّةٍ بأن أيَ صوتٍ فلسطينيّ يوحي ولو بمجرّد الإيحاءِ بشرعيّة الروايةِ التاريخيّة اليهوديّة - جنباً إلى جنبٍ مع شرعيّة الرواية الفلسطينية لا كروايةٍ بديلةٍ عنها - فإنّ هذا الصوتَ سيتمّ إخراسُهُ بكلّ تأكيد ; الأمرُ الذي يَطرح سؤالاً مُنطقيّاً جدّاً: كيف لنا أن نتعايشَ مع بعضِنا البعض إن كنتُ أنا غيرَ موجودٍ على الإطلاق؟ كيف لنا أن نتعايش مع بعضنا البعض إن لم يكُن أصلاً ليَ أيّ حقٍ في الوجود؟

ولهذا ، فإنني أرى في الجدار الاسمنتيّ الفاصلِ بيننا تعبيراً عن جدارٍأعمَق يفصلُ بيني وبينك ، كونّنا عاجزينَ حتى عن الاتفاقِ على أبسط الأمور وأكثرها وضوحاً. إنني أعتبرُ وجوديَ هنا على هذه الأرضِ جزءاً من عودةِ سكّان البلادِ الأصليّينَ - الذينَ تمّ اجتثاثهُم منها سابقاً- إلى ديارهِم ، كما وأعتبرُ أنّ دولتنا اليهوديّة قد وُلدت من جديد بهذه العودةِ التي أعتبرها جُزءاً من عدالةٍ تاريخيّة وتعويضٍ عن ظُلْمٍ تاريخيّ تعرّضنا لهُ نحنُ اليهود. إنّ كونيَ يهوديّاً يعيشُ في القدسِ تحت السّيادة اليهوديّةِ يُعدُ مَصدراً لشُعوريَ بالسُّموّ والرِّفعة ، عدا عن كونهِ مَصدراً للإلهام الدينيّ والروحيّ أيضاً.

وعلى الجهةِ المُقابلة ، فإنني أرى في وجودِكَ على هذه الأرضِ جزءاً لا يَتجزّءُ من وجودِ الأرضِ نفسِها ; الأمرُ الذي يجعلني أعي تماماً سببَ تشبيهِ الفلسطينيينَ لأنفُسِهم بشجرالزيتون، وهو تعبيرٌ قويّ وموحي، فهوَ يُعبّرُ تماماً عن جذوركَ الضاربةِ في عمقِ هذهِ الأرضِ وحُبكَ الحقيقيّ لها.

لكن يبقى السؤالُ المُلِحّ يا جاري العزيز : ماذا عنك؟ كيف تراني؟ وماذا تَعتَبرُني؟ هَل أُعدّ أنا بنظرِكَ غازياً مُستعمِراً وجزءاً من غزوٍ استعماريّ لهذه الأرض؟ هل تعتبرُ قدوميَ هُنا مُشكلةً تاريخيةً وجزءاً من هجمةٍ دينيّةٍ أشنّها عليك؟ أم أنّك ترى في الوجودِ اليهوديّ على هذه الأرضِ جُزءاً من نسيجها الأصليّ؟ هَل بإمكانِكَ أن تُشبّهَ وجودي على هذه الأرض بِشجرةِ زيتونٍ تمَ اقتلاعُها منذ زمنٍ طويلٍ ثم ما لبِثَت أن عادَت إلى تُربتِها مرةً أخرى؟

جاري العزيز ، يبدو ليَ وكأن هذا الجدارَ الفاصلَ بيننا سيتوغّلُ أكثر وأكثرَ في هذه الأرضِ وسيتعمّقُ أكثرَ في تلالِها وبيوتِها وحتى مصدرِ نورِها كلّما اشتدّ الصراعُ القائمُ بينَنا. عندما يَختفي الجدارُ في مخيلتي فإنّهُ يَختفي مرةً واحدة، فعينيَ اعتادَت على عدمِ رؤيةِ هذا الجدارِ، كما أنّ شقّتي مرتفعةٌ بدرجةٍ كافية لتُمكنّني من رؤية ما وراء ذلك الجدار ، لذا فإني أرى تلكَ الصحراءَ المُمتدّة ما وراء الجدار لدرجةِ أنني أتفادى الحيّز الضيّق الذي أراها من خلالهِ وأستَمتعُ بامتدادِها الواسع. ولكن ، لا يزالُ هذا الجدارُ أمراً مُهيناً، أمراً يجسّد تجاهُلاً لأمليَ الصادق الذي أتمناهُ لدولةِ إسرائيل، وهوَ أن تجدَ اسرائيلُ مكاناً لها بينَ جيرانها يوماً منَ الأيام.

لسنواتٍ عديدةٍ تَبِعت الانتفاضةَ الثانية ، قلتُ لنفسي - كغالبيّة الشعبِ الإسرائيليَ - : لقد مدَدنا أيدينا للسّلام مرارً وتِكرارً لكننا قوبلنا بالرّفضِ بأبشع الطُرُق وأشدّها عُنفاً، لكنّ الأقوالَ أسهلُ بكثيرٍمن الأفعال. ولأكون دقيقاً أكثّرَ يا جاري العزيز فإنّهُ محظورٌ عليّ كانسانٍ يهوديّ مُتديّنٍ أن أقبلَ باستمرار هذه الهوّةِ الموجودة بيني وبينك، أنهُ لمن المحظورِ عليّ أيضاً أن أمدّ يديّ للسلامِ بينما أنا فاقدُ للأملِ بإمكانيّة تحقيقِ ذلكَ السلام، وهوَ باعتقادي الأمرُ نفسهُ الذي أكّدَ عليه القرآن أيضاً حين شدّد على أنّ فقدانَ الأملِ واليأس يُعادلُ الكُفر بالله.

وعلاوةً على ذلك، فإنّ التشكيكَ في إمكانية تحقيقِ المصالحة وحلّ الصراع يُجسّدُ استخفافاً بقدراتِ الله ، بالتحديدِ بقدرتهِ على صناعةِ المُعجزاتِ ، خاصة عندما يتعلّقُ الموضوعُ بهذه الأرض: أرضُ المُعجزات. فمِن منظور الديانةِ اليهوديّةِ ، فإن التوراة تأمرُني بصريح العبارةِ :**" ابحَث عنِ السلامِ واسعى إليه "** حتى ولو كانَ الوصولُ إلى ذلك السّلامِ مُستحيلاً، وربّما تكونُ هيَ تلكَ اللحظةُ المناسبةُ للبحثِ عن السلام ، أي اللحظةُ التي يكونُ فيها صنعُ السّلامِ مُستحيلاً.

ولهذا يا جاريَ العزيز، فإنني أخاطِبُكَ وكلّي أملٌ بأن سَرديَ الصّادقَ لقصّتي سيؤثرُ فيكَ وسيلامسُ مشاعِرَكَ لدرجةٍ تُساعدُنا في الوصولِ إلى تفهّم، وحبّذا لو كان اتفاقاً، بينيَ وبينك. إنني أرغبُ بأن تَتحدّثَ حكومَتي الإسرائيليّةُ بلُغةِ الأملِ والتعايشِ والمسؤولياتِ الأخلاقية، لا بِلغةِ الحديدِ والنارِ والتهديد والوعيدِ. كما أنّني أرغبُ أيضاً بأن تتوقفَ حكومَتي عن بناء المستوطناتِ والتوسّع بها، لا لأجلِكَ فقط بَل لأجلي أنا أيضاً، إلّا أنّ حكومةَ اليمينِ الإسرائيليّ التي تُمسكُ بزمامِ الحُكمِ حالياً - خلال فترة كتابتي لهذا الكتابِ - لا تبدو وكأنها مُستعدّة لتبني تلكَ الرؤية.

إنّ أَمليَ الآن، خاصةً ونحنُ نشاهدُ ما يحدثُ من دمارٍ وحروبٍ مروّعة في سوريا ومناطقَ أخرى في الشرق الأوسط، بأن يَجسرَ الفلسطينيونَ والإسرائيليونَ تلكَ الهوّة الفاصلةِ بينَهُم، وأن يختاروا الحياة على الموت، ولكن حتى يتحقّق هذا الأملُ علينا أن نُدركَ جيّداً أحلامَ ومَخاوفَ بَعضِنا بعضاً.

لقد زرتُ المناطقَ الفلسطينيّة مرّتين، في المرةِ الأولى زُرتُها كجنديّ، لكن في المّرةِ الثانية زُرتُها كمَدنيّ "حاجّ" كَوني أرفضُ أن تقتصرَ حدودُ العلاقةِ بيني وبينكَ على كوني مُحتلاً لأرضِك. لهذا ، فإن لديّ الكثير لأقولَهُ عمّا خُضتُهُ خلالَ تلكَ التجربة، لكن ما أودّ قَولَهُ حالياً بأني لم أعد أحتملُ تبعاتَ الاحتلالِ الجاثم على صدورِ جيراني، والذي يبدو وكأنه سيدومُ إلى الأبد. ومن جهة أخرى، لم أعد أحتملُ الاحتلالَ الذي باتَ يشكّل عِبءاً على مصداقيّتي الأخلاقيّة كيهوديّ. إن وَصفي باليهوديّ يَعني التزاميَ بالأعرافِ والتقاليدِ اليهوديّة العريقةِ القائمةِ على المُثُل العليا والقيمِ العظيمةِ كالعدلِ والعدالة، إذ مثّلَت هاتان القيمتانِ جوهرَ الديانةِ اليهوديّة وتبوّءَتا مكانةً خاصةً فيها، كما وضَعَت الديانةُ اليهوديّة قيمة الحياةِ الانسانيةِ بالصّورة التي خَلقها الخالقُ في صميمِ نظرتِها لهذهِ الحياةِ.

إنّني أبعثُ لكَ بهذه الرسائلِ لأواصلَ رحلتي إليك، لكن مع وجود اختلافٍ هذه المرة. لقد كانَ هدفي أن أتمكّن من فَهمِك عندما بدأتُ رحلتي وزرتُ المناطقَ الفلسطينيّة وتعرّفتُ على المُجتمع الفلسطينيّ ، وخلالَ الجُزءِ الأكبر من هذه الرحلة لم أناقِشك في أيّة تفاصيلٍ لدرجةِ أنني لم أحدّثكَ حتى عن نفسي ; إذ كانَ أكبرُ همّي هو أن أصغيَ إليك ، إلا أنّي أرغبُ الآن في أن أشاركَك بَعضاً من التفاصيلِ المُتعلّقةِ بعقيدتي وقصّتي ، واللتان تتشابكانِ مع بعضهما البعض إلى حدٍ كبير.

وبطبيعةِ الحال ، يبدو وكأنّ كلانا يَسعى جاهِداً لإقناع الآخر بروايةِ جانبهِ من هذا الصراع ، فكلانا يعيشُ بعمقٍ في تفاصيلِ هذه الرواية المتجذّرة في وجوده، بالتالي فهي تُعرّفُ هويّتنا الجماعيّة والشخصيّة ; الأمرُ الذي يَعني أن تفريطنا وعدم تشبّثنا في روايتِنا لهذا الصراع يُعدّ بمثابةِ الخيانة. لكن ، ما نحنُ بحاجةٍ إليه فعلياً هو التدقيقُ في الرواياتِ التي نَتداولُها في مجتمعاتنا عن بعضِنا البعض ، ففي تفاصيلِ تلكَ الروايات فَرَضَ كلّ منّا على الآخرِ أسوأ الكوابيس التاريخيّة وصوّرَ الطرف الآخر بأبشعِ الصّوَر.

فمن وجهةِ نظَركَ يا جاريَ العزيز ، نحنُ المستعمرونَ الصليبيّونَ ، ومن وجهةِ نظرنا ، أنتمُ الأعداءُ الذي يسعونَ لارتكابِ إبادةٍ جماعيّة بحقّنا في سبيل تدميرِ الشعبِ اليهوديّ وإزالتِهِ من الوجود. هَل بإمكانِنا – عوَضاً عن نشر تلكَ الكوابيسِ المُرعبةِ عن بعضنا البعض – أن نرى شعبين مَرّاً بالكثيرِ من الصدماتِ والتجاربِ المروّعة، وأن نرى في كلّ ما يقومُ بهِ الشعبانِ محاولةً للتشبّثِ - بكلّ ما أوتيا من قوّة - ببقعةِ الأرضِ المُمتدّة ما بين نهرِ الأردن والبحر الأبيض المتوسّط؟ وهل بامكانِنا أن نُدركَ أنه لن يجدَ أيّ من الشعبينِ سلاماً أو عدالةً حتى يؤمنَ كلّ طرفٍ بمصداقيّة مطلبِ الطرفِ الآخر حينَ يطالبُ بتحقيقِ العدالة؟

إنني لا أؤمنُ بامكانيةِ تحقيقِ السّلامِ دون أن يكونَ هناكَ - على الأقلّ - محاولةٌ للوصولِ إلى تفهّمٍ مُتبادلٍ بين كلا الجانبين، وفي حال لم يتحقق ذلك فإنّ العلاقةَ بينَ تلّتي وتلّتِك ستبقى علاقةً هشّةً مُتضعضعةً على أرضِ الواقع مَهما وقّع قادتُنا منِ اتفاقياتِ سلامٍ رسميّة مُستقبلاً . سوف تكونُ تلكَ اتفاقيّاتَ سلامٍ باردةً تعبّرعن سلامٍ وهميّ خالٍ من أي معنى للمحبّة ، سلاماً إما سيتلاشى مع الوقت ، أو لربّما يتمّ تصفيتُه ، وبأحسن الأحوال ، فإن لم نتفقّ على أيّ شيءٍ وواصلنا انفصالَنا عن بعضنا البعض ، فإن التلاصُقَ الجُغرافيّ الحميمَ بين تضاريسِ أرضِنا كفيلٌ بأن يجعلَ من الفصلِ الكلّي بين أرضي وأرضِك أمراً مُستحيلاً. لهذا علينا أن نتعلّمَ كيف نعيشُ مع بعضِنا البعضَ حتى نتمكّن من الحياةِ على هذه الأرض.

جاريَ العزيز، لا يختلفُ عاقلانِ على أن الانفتاحَ على روايةِ الطرفِ الآخر للصّراع ورؤيةَ الاختلافِ والفروقاتِ بينَ روايَتي الطرفين هوَ أمرٌ سهلٌ على المُنتَصِر، إلا أنّه أمرٌ صعبٌ على المهزوم الذي تعرّضَ - ولا زال يتعرّضُ - للاحتلال. فبأيّ حقٍ أطلُبُ منكَ أنا - كمُحتلّ - اعترافاً مُتبادلاً؟ ربَما لكونيَ مُحتلّاً ذا عقليّةٍ مُختلفةٍ بعض الشيء ، نظراً للمخاوفِ التي تتملكّني من قضيّة الانسحابِ والرجوعَ إلى حدودِ عام 1967 ، تلك الحدودُ الممتدّة على طولِ تسعة أميالٍ والتي حدّدت حدودَ إسرائيل قبل اندلاع حربِ الأيامِ الستةِ. إنّ الانسحابَ من هذه الأراضي قد يعني إضعافَ قُدرَتي على الدّفاع عن نفسي إلى درجةٍ قد تقودُ إلى القضاءِ عليّ ، خاصةً وأننا نعيشُ في منطقة الشرق الأوسط التي تشهدُ أوضاعاً غير مُستقرةٍ من التشتّتُ والخراب مؤخراً. مرةً أخرى ، إن الانسحابَ من هذه الأراضي لا يعني تهديداً بانحِسارِ قوّتي فقط ، إلا أنه تهديدُ يمثّلُ خطراً شديداً على وجودي كيهوديّ في هذه المنطقة.

لقَد أدركتُ منذ وقتٍ طويلٍ أنّ مطالِبي وتطلّعاتيَ وحنينيَ الدينيّ الذي يَربطني بهذه الأرضِ لا يُبرّرُ استحواذيَ على كاملِ الأرضِ على حسابِ شعبٍ آخر. ولهذا ، وبغضّ النظرِ عن حجمِ الألمِ الذي سيسبّبُهُ اقتسامُ الأرضِ فيما بينَنا ، إلا أنني أقبلُ هذهِ القِسمةَ ، تعبيراً عن حلّ واقعيّ لهذا الصراع بينَ جانبينِ لا يوجدُ أدنى شكٌّ في مدى مشروعيّة ادّعاءاتِهما في الوجودِ على هذه الأرض . لكن من جهةٍ أخرى، فإنّ تَجربَتنا الطويلة في الرفضِ المُستمرّ لشرعيّة إسرائيلَ من قبلِ الأمتينِ العربيّة والإسلاميّة بشكلٍ عام ، والشّعبِ الفلسطينيّ بشكلٍ خاص ، يثيرُ سَخطَ الجانبَ الإسرائيليّ بل ويزيدُ الأمور تعقيداً عليه ; فرفضُ الجانبِ الفلسطينيّ لفكرةِ وجودِنا هُنا كجزءٍ لا يَتجزّأ من هذه المنطقة يقودُ بالنهايةِ إلى الاستخفافِ برؤيتِنا للحّل. ولِتعلمَ جيداً بأن حجمَ تضحيتي لا يقلّ مقداراً أو شأناً عَن حجمِ تضحيتِك ، لذلكَ أقولُ لكَ بأنّي على أهبةِ الاستعدادِ للتضحيةِ في سبيل ضمانِ وحمايةِ مكانتي على هذه الأرضِ التي نتشاركُها معاً.

إنّ مفتاحَ الحلّ وإنهاءَ الاحتلالِ الإسرائيليّ مرهونٌ بإشعارالشعبِ اليهوديّ بوجودِ أملٍ بأنّ الانسحابَ الإسرائيليَ الكاملَ من الضفة الغربية وقطاع غزّة كالتزامٍ اقليميّ سيرافقُهُ التزامٌ مُتبادلٌ من الجانبِ الفلسطينيّ، التزامٌ يَتضمّنُ قبولَ واقتناعَ

الفلسطينيين بالضّفة الغربيّة وقطاع غزّة كدولةٍ فلسطينيّة، دونَ أن يُرافقَ هذا أيّ محاولةٍ من الجانبِ الفلسطينيّ للإضرار بدولةِ إسرائيل .

إنني أدركُ تماماً بأن قدراً كبيراً من كلاميَ الذي أوجههُ إليك يا جاريَ العزيز قد يكون وقعهُ شديداً عليكَ ، ولربّما يكون قاسياً بعضَ الشيء ، ففي الرسائلِ اللاحقةِ سأستخدمُ مُصطلحاتٍ مثل " أرضِ إسرائيلَ " - والذي أعتبرهُ مُصطلحاً عادياً في قاموسِ مُفرداتي - ،الأمرُ الذي قد يبدو لكَ وكأنهُ إهانة ، وهوَ أمرٌ لَم أقِصدُهُ أبداً في هذه الرسائلِ.

إنني أبعثُ لكَ بهذهِ الرسائلِ وكلّي أملٌ بأن يقرأها أحدٌ من الجانبِ الآخر للجدارِ الفاصلِ ويردُّ عليّ برسائلَ مماثلة. إنني أكتبُ وكلّي أملٌ بأن أتوقّفَ عن مخاطبتكَ كانسانٍ مجهولِ الهويّة بالنسبة لي، وأن أخاطبكَ باسمِكَ وهويّتكَ وأراكَ كانسانٍ يمتلكُ صوتاً واضحاً ليعبّرعن نفسهِ وقضيّته. وليكُن بمعلومِك بأنني سأتقبلّ بصدرٍرحبٍ ردّك على رسائلي مهما عبرّت فيه عن غضبكَ وسَخَطِك ، فحتى هذه اللحظة لَم نُفلح أنا ولا أنتَ في حلّ هذا الصّراع رغم اتّباعِنا لشتّى السُبُل ، على العكس تماماً ، فقد جلبَت تلكَ السُبلُ الموتَ والدمارَ لكلا الجانبين . لذلك دعنا نَسلُك طريقَ الحوارِ ولنستكشِف معاً ماذا سيجلبُ لنا هذا الطريق.

لهذا يا جاريَ العزيز، ها أنا ذا أدعوكَ إلى عالمي الروحيّ على أملِ أن يأتيَ ذلكَ اليومُ الذي سنتمكّنُ فيه من استضافةِ بعضِنا بعضاً في عالمِنا الماديّ على أرضِ الواقع.

الرّسالةُ الثانية : الحاجةُ والحنينُ

جاريَ العزيز،

يوافقُ اليومَ ذكرى أشدّ الأيامِ فظاعةً في السنة اليهوديّة، يومُ التاسع من آب - آب هو اسمُ الشهر الحادي عشرَ في السنة اليهوديّة - ، وهوَ يومٌ نصومُ فيهِ حِداداً وحُزناً كونهُ يُصادفُ ذكرى دمارِ الهيكلِ مرّتين. في المرّة الأولى هدمَ الملكُ البابليّ نَبوخذ نصّر الهيكلَ اليهوديّ سنةَ 587 قبلَ الميلاد ، الأمرُ الذي أدّى إلى تهجيرِ اليهودِ إلى بابِل – أو ما يُعرفُ بالسبي البابليّ لليهود - أما المرةُ الثانيةُ التي هُدِمَ فيها الهيكلُ فكانت سنةَ 70 بعدَ الميلاد على يدِ الامبراطورِ الرومانيّ تيتوس ، مُسبّباً بذلكَ شتاتَ اليهودِ في شتّى بقاعِ العالم. دامَ مَنفى اليهودِ في بابلَ مدة سبعينَ سنة ، حيثُ عادَ اليهودُ من المَنفى حينَ غزا الملكُ الفارسيّ سايروس دولةَ بابلَ وأمرَ بعودةِ اليهودِ إلى وطنهِم ، لكن مَنفى اليهودِ في شتّى بقاعِ العالمِ خلالَ حُكمِ الرومان دامَ قُرابةَ ألفَي سنة ، وانتهى حينَ عادَ اليهودُ إلى وطنهِم بعد قيامِ دولةُ إسرائيلَ عام 1948.

وبينَما أنا صائمٌ أحدّقُ بساعةِ يدي من وقتٍ لآخرمترقّباً بلهفةٍ انتهاءَ مِحنةِ ذلكَ اليومِ الشاقّ ، أستذكِرُ شهرَ رَمضانْ ، حيثُ يترقّبُ أصدقائيَ المُسلمونَ الذينَ أعرفهُم بلهفةٍ حُلولَ هذا الشهر الفضيل. إنّهُ شهرٌ مميزٌ بالنسبة لهم ، كونهُ يجسّدُ تجربةً دينيّة يَنغمسُ فيها المُسلمُ روحيّاً مُكرّساً وقتهُ للطاعاتِ والعِبادات. إن تذكّري لشهرِ رمضانَ أثناء صيامي في يوم التاسعِ من آب يَخفّفُ عنّي من عناءِ تلكَ المشقّة ، ويُساعدُني في الإحتفاءِ بتلك التجربةِ الروحية القائمة على حرمانِ النفسِ مِنِ الملذات .

إنّ الحرارةَ المُنبعثةَ من الصحراءِ صباحَ هذا اليوم الجافّ من أواخر شهر تموزَ تزيدُ من مشقّة وعناءاً الصيام. على أيّة حال ، فإنّ هذا ليسَ بالأمرِ المُستغرَبِ ، ذلكَ لأنّ التقويمَ العبريّ يُمثّلُ انعكاساً لدورةَ الحياةِ الطبيعيّة على هذه الأرض ، أرضِ إسرائيلَ بالذّات. إننا نحتفلُ بعيدِ الفصحِ الذي يَرمزُ إلى الحريّة والتجدّدِ في بدايةِ فصلِ الرّبيع ، بينما نحتفلُ بِذكرى نزولِ التوراةِ بعدَ سبعةِ أسابيع من ذكرى عيدِ الفصح في الفترةِ الزمنيّة التي ينتهي فيها فصلُ الربيعِ ويتلوها حصادُ القمح ، في رمزيّة إلى الوقت الذي حصدَ فيهِ اليهودُ حصادَهُم الروحيّ المُتمثّلَ بنزولِ التوراة . ومن نفس المُنطلق ، فإن صيام التاسعَ من آب يحلُّ في فصلِ الصيفِ الحارّ، أي الوقتُ الذي تبدو فيها الأرضُ جافّةً وكأنها يائِسة بائِسة.

توجّهتُ ليلةَ أمس لزيارةِ الحائطِ الغربيّ ، أي الجُزءَ الوحيدَ المُتبقّيَ من حطامِ الهيكل حينَ هُدم في التاسع من آب. بَدَت ساحةُ الحائطِ المُعبّدةِ بالحجارةِ مكتظّة باليهودِ على اختلافِ طوائفِهِم ، في تنوّعٌ يكادُ يكونُ أقربَ إلى تنوّع البشريّة نفسِها ، فيما جلسَ المتعبّدونَ على شكلِ دوائرَ وحلقاتٍ على الأرض يقرأونَ بكلّ لهجةٍ من لهجاتِ شتاتِنا كُتابَ الرّثاءِ الذي يَشرحُ كيفَ كانَت مدينةَ القدس - آنذاك - وحيدةً حبيسة ، ذلكَ الكتابُ الذي جُمعَ قبل قرابةِ الفين وخمسمئة سنةٍ لرثاءِ هدمِ مدينةِ القدس وخرابِ الهيكَل.

رأيتُ في الساحةِ الكثيرَمنَ اليهودِ الأرثوذوكسِ (الحريديم) من جميعِ الطوائفِ ، وما يميّز كلّ طائفةٍ هو حجمُ وشكلِ القبّعةِ الخاصةِ بكلّ طائفةٍ ، اضافةً إلى طولِ الرّداءِ الأسودِ الذي يرتدونهُ. سمعتهُم يرتّلون بلهجةِ اليهودِ البولنديينَ والهنغارِ للغّة العبريةِ اليديشيةّ. رأيتُ أيضاً يهوداً من أصولٍ يمنيّة مُميزينَ بسوالفهِم المَجدولةِ الطويلة يرتّلونَ العبريةِ بحَشرَجةٍ حلقيّة صاخبةٍ تُحاكي النبرةَ العبريّة التي كان يتكلّمُ بها اليهودُ قبل أن يتمّ نفيهُم من هذه البلاد ، حيثُ ارتبطَت اللغة العبريّة بالطقوسِ والعباداتِ والدراساتِ الدينية ; تلكَ اللغةُ التي حُظرَ على اليهودِ أن يتكلّموا بها في الشتّات.

سمعتُ لغاتٍ عديدة أيضاً في ساحةِ الحائِط الغربيّ ; سَمعتُ اليهودَ الذي يتكلّمونَ باللغة الروسيّة والانجليزيّة واللغة الأمهاريّة الاثيوبيّة ، والأهمّ من هذا كلّه سمعتُ اللّغة الفرنسيّة ، وأقولُ أهمّ من هذا كلّه كونَ اليهود الذينَ قدِموا من فرنسا يمثلونَ آخرَ اليهودِ المهاجرينَ القادمينَ إلى إسرائيلَ من الشّتات ، حيثُ هربوا إلى هذهِ الأرضِ فارّينَ من العنفِ الذي تعرَضَوا لهُ في ظلّ " الديمقراطيّة الغربية ".

وفي خِضمّ هذا الأجواءِ التي غلبَت عليها مشاعرُالحزنِ والرّثاءِ في كلّ ايماءةٍ وكلّ حَركة ، لَم أشعُر بوجودِ معاناةٍ حقيقيّة بمعنى الكلمة . صَدحَ بعضُ المتديّنين بكلماتِ الرّثاءِ بينما كانت الدموع تذرفُ من عيونهِم ، إلا أنّ هذا بدا ليَ وكأنه حزنٌ مُصطَنَع ، كونهُ يصعبُ عليكَ أن تعيشَ معنى حزنِ المنفى في الوقتِ الذي انتهى فيهِ منفاكَ.

صحيحٌ بأن اللهَ لم يَستَجب لجميعِ أدعيَتنا ، وصحيحٌ بأننا عُدنا إلى وطنِنا ، لكنّ مَشهدَ الجنودِ الإسرائيليينَ وهُم يحيطونَ بنا في باحةِ الحائطِ الغربيّ بهدفِ حمايتِنا لا يُذكّرنا فقط باستعادتِنا للسّيادة على هذه الأرض، بل يُذكّرنا أيضاً بتهديدٍ متواصلٍ لوجودِنا عليها .هُناكَ بعضُ وجهاتِ النّظر التي توضّحُ بأنّ جزءاً من عواقبِ خرابِ الهيكل في التاسع من آب قد تمّ تداركُهُ فعليّاً من خلالِ انهاء الشتاتِ اليهودي وقيام دولةِ إسرائيل، إلا أنّ الجُزءَ الآخرَ من تلكَ التبعات لا زالَ موجوداً حتى اليوم ، والذي يَتمثلُ في عدم تحقّقِ الخلاصِ نفسه. إنّ التقاليدَ والمُعتقداتَ اليهوديّة لا زالت غير قادرةٍ على تحديد الفترة التي ستفصلُ بين عودة اليهود إلى أرضِهِم ويومِ الخلاص نظراً لوجوبِ تحقّقهما معاً . لذلك فإننا نقلّد ونكرّر طقوسَ الرّثاءِ والحدادِ بينما تتملكّنا الحيرةُ والتعبُ ، فها نحنُ عُدنا إلى ارضنا لكن لم يتحقّقِ الخلاصُ بعد.

وبالتنقّل من حلقةٍ لأخرى في ساحةِ الحائطِ الغربيّ ، انتابَني شعورٌ بالذهولِ من قدرتِنا على العودةِ إلى وطننا الأمّ كشعبٍ يهوديّ ، كونَنا آمنَا بقوّة بأنّ هذا سيحدُث وبأننا سنبني أنفسَنا مُجدداً كشعبٍ واحدٍ بدلاً من مُجتمعات متفاوتةٍ مشتّتةٍ هُنا وهُناك.إنّ معظم الإسرائيليّين الذين أعرفهُم هُم أشخاصٌ مؤمنون ، حتى وإن لم يكونوا مُلتزمينَ دينيّاً إلا أنهُم بلا شكٍ أناسٌ مُلتزمونَ بحياةٍ ذاتِ معنى.

جاريَ العزيز ، يشعرُ الإسرائيليّونَ بأنّ قُدرتَهُم على الحديث باللّغةِ العبريّة في وطنهِم هو معجزةٌ بحدّ ذاتِها ; كونهُم أحيوا لُغتهُم الأم من جهة ، وعادوا إلى وطنهِم من جهة أخرى ، وهو ما تُدلّلُ عليه الآيةُ من سفر المزاميرِ الدينيّة - سفرِ داوود – التي تقول: **" عِنْدَمَا رَدَّ الرَّبُّ سَبْيَ صِهْيَوْنَ، صِرْنَا مِثْلَ الْحَالِمِينَ "**، لذلكَ ، فإنّ كونكَ انساناً اسرائيليّاً يَعني أن تستقيظَ لتجدَ حُلُمكَ وقد تحقّق.

أذكرُ في صباحِ أحدِ الأيّامِ حينَ كنتُ أقودُ سيّارتي مُصطحِباً ابني شاحار – الذي كان مراهقاً حينها - إلى المدرسة ، حيثُ علِقنا في ازدحامٍ مروريّ في منطقة ليسَت بالبعيدة عن البلدة القديمة في القدس ، فقلتُ لابني شاحار : " أَتَدري ، لِلحظةٍ معيّنة ، يتبادرُ إلى ذهني كيفَ أننا عالقونَ هُنا وسط هذا الازدِحام ، كأي شخصٍ عاديّ عالقٍ في ازدحامٍ مروريّ عاديّ في أيّ مدينةٍ أخرى مِن هذا العالم ، لكن هذه التفاصيلَ المُملّة من حياتِنا اليوميّة كانَت بمثابةِ أحلامٍ مُستحيلةٍ لطالما تمنّاها أجدادُنا " . لَم أكُن أتوقّع أيّ ردٍ من ابني شاحار - عازفِ الجازِ- كونهُ لا يحبّ الخوضَ في المواضيعِ المتعلّقة بالتاريخ والأحداثِ التاريخيّة ، إلا أني فوجئتُ حين ردّ شاحار قائلاً : " وأنا ايضاً ، كثيراً ما يتبادرُ إلى ذهنيَ نفسُ التفكير ". أدركتُ بأنهُ هوَ الآخر يفكّرُ كثيراً بالموضوع ذاتِه ;إذ كيفَ ليهوديّ يعيشُ هُنا ألا يُفكّر في الأمورِ التي تُهدّدُ وجودَهُ على هذهِ الأرض؟

وفي موقفٍ آخر ، ذهبتُ في رحلةٍ إلى مدينةَ روما كجزءٍ من رحلةِ " حجٍ " زرنا فيها قوسَ تيتوس الذي يمثّل نصباً تذكارياً يوثّقُ دمارَ مدينةِ القدسِ وخرابَ الهيكَل. حينَ تنظرُ لذلكَ القوسِ تجدُ صورةً منقوشةً عليهِ تصوّر الدّمارَ الذي لحقَ بنا حينَها: صورةُ العبيدِ اليهودِ وهُم يحمِلونَ الشمعدانَ اليهوديّ في شوارعِ روما. خلالَ فترةِ الشّتاتَ ، حرصَ اليهودُ على عدمِ المرورِأسفلَ ذلكَ القوسِ في رمزيّةٍ إلى رفضِ الإذعانِ والانصياعِ للهزيمة ، لكنّي مَررتُ بذلكَ القوسِ وشرعتُ بتلاوةِ صلاةٍ من الصلواتِ التي نتلوها في المناسباتِ التي نشعرُ فيها بالامتنان ، كوني أشعرُ بعظيم الامتنان لأنني أعيشُ في زمنٍ صار يمتلكُ فيه اليهوديّ ضمانةً للبقاء.

ولطالما جالَت بخاطري أسئلةٌ كثيرة : كيفَ تمكّنَ اليهودُ منَ البقاء؟ كيفَ حافظَ أجدادُنا على الأملِ في المَنفى؟ لماذا حافظوا على ولائِهِم لله رغمّ كلّ ما ألمّ بهِم من مصائب ، ورغمَ أن الأمرَ بدا وكأن الله نفسَهُ قد تخلّى عنهُم واستبدلَ اليهوديّة بالمسيحيّة والإسلام؟ كيف قاوَمنا كلّ الضغوطاتِ التي كانَت تُمارسُ ضِدّنا بهدف اجبارنا على تركِ ديانتِنا واعتناقِ دياناتِ الدولِ التي كنّا نخضعُ لها ؟

لقد تخلّى آنذاك بعضُ اليهودِ - بلا شكٍ - عن الديانةِ اليهوديّةِ ; الأمرُ الذي قد يكونُ أحدَ الأسبابَ التي تُفسّر قِلّة عددِ اليهودِ في العالمِ ، فعدَدُنا بالكادِ يصلُ إلى أربعةَ عشرَ مليون يهوديّاً، أما أولئكَ الذينَ حافظوا على ديانتهِم اليهوديّة فهُم سلالةٌ تنحدرُ من رجالٍ ونساءٍ ذوي ايمانٍ معقّد ، ايمانٍ لربّما نعجزُ عن فهمهِ أحياناً ، كونَهُم - أجدادُنا المضطّهدونَ - قد أقنعوا أنفسهُم بالقصّة التي أخبرَهُم أجدادُهُم بها ، وأنّ عودةَ اليهودِ إلى وطنهِم أمرٌ سيتحقّقُ لا محالة . إنّ أحدَ أهمّ الأسبابِ التي تجعلُني يهوديّاً شديدَ الإيمانِ بعقيدتي اليهوديّة هو ذلكَ الإيمانُ القويّ الذي تحلّى به أجدادُنا وقتَ الشدّة.

إنّ ما ألَمّ باليهودِ في التاسع من آب قد أظهرَ الديانةَ اليهودية وقتما كانَت في قمّة مِحنتِها ، حيثُ مثّلَت أرضُ إسرائيلَ والهيكلُ معاً أركانَ الحياةِ اليهوديّة التوراتيّة في وقتٍ من الأوقات. بالتالي ، ماذا سيَحدُث حينُ تُهدمُ أركانُ تلكَ الحياة بطردِ اليهودُ من أرضِ إسرائيلَ مِن جهة ، وهَدمِ هيكلِهِم مِن جهةٍ أخرى؟

لقد أدركَ اليهودُ تدريجيّاً بأنّ الشتاتَ سيكون مُختلفاً هذه المرة، و خلافاً للسبي البابليّ ، لم توجَد أية مؤشراتٍ على وجودِ حدودٍ زمنيّة تلوحُ في الأفقِ لتنبّيءَ بنهايةِ ذلكَ الشّتات ، إلا أنّ اليهودَ تفهّموا ذلكَ الواقعَ وتعاملوا معَ قضيّة النفيّ والشتاتِ بطريقةٍ مُتناقضة بَعضَ الشيء. فمن جهة ، رأوا في نفيهِم من أرضِ إسرائيلَ عِقاباً إلهيّاً لما ارتكبوهُ من خطايا ، لذلكَ استسلموا لقدرِهِم حتى يشاءَ اللهُ إنهاءَ ذلكَ الشّتات. إلّا أنّهُم - من جهةٍ أخرى - رفضوا الخنوعِ الأبديّ للمنفى ورفضوا أزليّة ذلك الشتات ، فاستحضروا بهمّةٍ الأمَلَ والإيمانَ بالحقيقةِ المُحيّرة القائمةِ على حتميّة انتهاءِ الشتّاتِ يوماً ما حينَ يقرّرُ اللهُ عودةَ اليهودِ من أقصى بقاعِ الأرض إلى وطنهِم ، وهوَ ما بشّرَ وتنبّأ بهِ أنبياؤنا سابقاً.

ومع ذلك ، فإنّ احتمالّية انتهاء الشّتاتِ وعودة اليهودِ إلى وطنهِم كانَت شبه مُستحيلة نظراً لاستبعادِ اليهودِ حدوثَ ذلكَ قبلَ مجيء المسيح المُخلّص – بحسبِ المُعتقداتِ اليهوديّة فإنّ المسيحَ المُخلّصَ هو ملكٌ مستبقليّ ينحدرُ من نسلِ الملك داوودَ سَيحكمُ الأمّة اليهوديّة على الأرضِ في الفترة التي تسبقُ الحياة القادِمة - . فالمسيحُ المُخلّصُ هوَ الوحيدُ القادرُ على استعادةِ السيادة اليهوديّة وإرجاعِها للأمة اليهوديّة المشتّتة والمُستضعفةِ بينَ الأمم.

وخلالَ تلكَ الفترةِ الزمنيّة المُطوّلة والفاصلةِ بينَ التاسع من آب وموعدِ الخلاصِ ، وازنَ اليهودُ بينَ هاتين الاستراتيجيّتين المزدوجتين والقائمتينِ على قبولِ الشتّاتِ كحقيقةٍ يجبُ التسليمُ بها من جهة ، ورفضِ أزليّة هذا الشتاتِ من جهةٍ أخرى. وفي خضمّ تلكَ الفترةِ ،اختلَفَت أمورٌ كثيرة في الحياةِ اليهوديّة ، حيثُ تولّى أحبارُ اليهودِ وحاخاماتهُم وعلماؤهُم ومشرّعوهُم وحكماؤهُم أمرَ اليهودِ كأوصياءَ يقعُ على عاتقهِم رعايةُ شؤونَ الحياةِ اليهوديّة ، ففي الفترةِ التي سبقَت خرابِ الهيكلِ تولّى الكهنةُ شؤون أداءِ الشعائر الدينيّة في الهيكلِ، الأمرُ الذي اختلفَ توّاً بعد خرابِه. إضافةً إلى ذلك ، فقد أخمِدَ صوتُ أنبيائِنا بعدَ انقطاعِ الوحي الإلهيّ ، وهوَ أحدُ أكثرِ العباراتِ ألماً وتعبيراً عن فشلِنا الروحيّ ، نَظراً لأنّ النبوءةَ - تبعاً للمُعتقداتِ اليهوديّةِ - تُعطى لليهودِ على أرضِ إسرائيلَ فقط.

ونتيجةً لهذا ، أصبحَت الكُنُسُ اليهوديّةُ بديلاً للهيكلِ ، فيما حلّت الصلواتُ عوضاً عن التضحيةِ بالحيواناتِ كقرابينَ لله ; الأمر الذي اعتُبرَ خطوةً مهمّةً على طريقِ التطوّر الروحيّ للديانة اليهوديّة. ومِن خلالِ هذه التطوّراتِ في الحياةِ اليهوديّةِ والتي تمّ استحداثُها بعد خرابِ الهيكل ،عقدَ اليهودُ عَقدَهُم الذي يقضي بالتأقلمِ مع الشتّات والمَنفى خارجَ أرضِ إسرائيل.

ومعَ ذلك ، فقد بنى أحبارُ اليهودِ أملاً بين ثنايا المنفى اليهوديّ ، بنوا أملاً عميقاً بأنّ يوم التاسعِ من آب سيتحوّلُ من يومٍ لذكرى خرابِ الهيكلِ إلى يومٍ يحتفي فيه اليهود بيومِ خلاصِهِم، وبحسبِ أحدى الأساطيرِاليهوديّةِ فإنّ المَسيحَ المُخلّصَ سَيولدُ أيضاً يومَ التاسعِ من آب.

لقد حملَ اليهودُ أرضَ إسرائيل في قلوبهِم في خضمّ ترحالهِم في بلدانِ الشتات، ، حملوا معهُم أوقاتَ كلّ موسمٍ من مواسمِ زرعِها ، حملوا قصَصها ونُبوءاتِها ، فيما تناقشوا وتجادلوا في البيوتِ التي درسوا فيها الديانةَ اليهودية بخصوصِ قوانين شميتا – قوانينُ شميتا تعبّرُ عن أمرٍ ألهي يقضي بعدمِ زراعةِ أرضِ إسرائيلَ وتركِها بوراً مرةً كلّ سبعةِ سنواتٍ لتستريح وتستعيدَ نُضرتَها-. وعلى الرغم من وجودِ اليهودِ في المنفى إلا أنّهُم كانوا يعلَمونَ تماماً الأوقاتَ التي تُزرعُ وتُحصدُ فيها المزروعاتُ وكأنهُم فلاّحو تلكَ الأرضِ الذينَ لم يتوقّفوا أبداً عن زراعتِها أو حصادِها.

وبعد الشتات ، انتقلَت العلاقةُ بين اليهودِ وأرضِ إسرائيل من علاقةٍ مكانيّةٍ إلى علاقةٍ زمانيّة، وبالنسبةِ لنا فقد وُجِدت هذهِ الأرضُ في كلا الزمنين ، الماضي والمستَقبَل ، كذكرىً مَضَت سابقاً وأمرٍ لا زلنا نترقّبُ حدوثَه مُستقبلاً. ولهذا، آمنَ اليهودُ بقوّةٍ بأنّ الأرضَ ستبزُغُ مرةً ثانيةٍ وتعودُ علاقتنا بها من علاقةِ زمنيّة في المنفى ، إلى علاقةٍ مكانيّةٍ فوقَ أرضِ إسرائيل.

لقَد حافظَ اليهودُ على أرضِ إسرائيلَ في صلواتِهم أكثَر من أي شيءٍ آخر ، فقَد غلَبَت على الصلواتِ اليهوديّة ملامحُ الشوقِ والحنينِ إلى الأرض ، وتجربتي كطفلٍ صغير ترعرَعَ في بيتٍ متديّنٍ في بروكلين هيَ خيرُ برهانٍ على ذلك. لقَد أديتُ صلواتيَ مُستسقياً المطرَ في فصلِ الشتاء ، طالباً من الله أن يُنزلَ الندى والبركةَ على ما تُنتجُهُ الأرضُ في فصلِ الصيف، طلبتُ من الله أن يستجيبَ لتلكَ الدّعواتِ غير آبهٍ بحالةِ الطّقسِ خارجَ نافذتي ; فبوصلةُ دعواتي تتجهُ صوبَ مواسمِ وفصولِ تلكَ الأرض البعيدة . لقد كنتُ أتضرّعُ إلى صهيون - صهيونُ تعني أرضَ إسرائيلَ - في صلواتِ الصباحِ والمساء ، في الصلواتِ التي نصلّيها بعدَ تناولِ الطعام . لقَد عرفتُ أرضَ إسرائيلَ كذاكرةٍ موروثةٍ قبلَ أن أعرفها كمكانٍ موجودٍ على أرضِ الواقعِ.

أذكرُ جيّداً حين وقفنا أنا وزوجتي سارة في حفلِ زفافِنا أسفلَ المظلّة التي تُنصبُ أثناءَ مراسمِ الزواج ، مُردّدينَ ما رددهُ اليهودُ من قبلنا منذُ قرونَ مضت ، ردّدنا هذه الآيةَ من سفر المزامير : " **إنْ نَسِيتُكِ يَا أُورُشَلِيمُ، تَنْسَى يَمِينِي** " ، ثمّ كَسَرنا بعدَها كأساً زجاجياً مُستذكرينَ خرابَ الهيكلِ في أجملِ لحظةٍ من لحظاتِ حياتِنا.

ولربّما تكونُ أكثرَ العباراتِ قوّة في التعبيرِعن شوقِنا وحنينِنا إلى العودةِ إلى أرضِ إسرائيلَ موجودةً في الأشعار الدينيّة التي ألّفها اليهودُ الذينَ عاشوا في البلادِ الإسلاميّة . فعلى سبيلِ المثال ، غنّى أهلُ اليمنِ قائلينَ : " سوفَ أسألُ إلهي أنَ يفكَ أسرَ المأسورينَ " ، قاصدينَ بهذا أنفُسهُم ، كونهُم يعيشونَ في أسرِالمنفى بعيداً عن أرضِ صُهيون. وفي مثالٍ آخر ، كتبَ الشاعرُ اليهوديّ الاسبانيّ الذي عاشَ في القرونِ الوسطى يهودا هاليفي - والذي لقّبَ نفسهُ بأبي الحسن اللاوي- دعاءً حزيناً اقتبَسهُ اليهودُ في شتّى بقاعِ العالم ، كتبَ هليفي : " يا صهيون ، هَلا تكترثُ بما حلّ بأسرى هذه الأرض في المنفى؟ ". واضافةً إلى ذلكَ ، لطاما اجتمعَ يهودُ المَغربِ في كُنُسهِم في منتصفِ الليلِ سائلينَ الله أن يُعيدَهُم إلى أرضِ إسرائيل.

لقد استحضرَ اليهود خلالَ شتاتِهِم الكثيرَ من الشعائرِ الدينيّة التي تعبّرُعن الشوق والحنينِ إلى هذه الأرض ، وخيرُ مثالٍ على هذا هوَ أحدُ أعيادِ اليهودِ الاثيوبيينَ والمعروفِ بعيد " السّغد " ، حيثُ يصعدُ اليهودُ الاثيوبيّون من قُرى اقليمِ غُندار مرّة كل سنةٍ في أواخر فصلِ الخريف إلى جبلٍ من جبالِ تلكَ المنطقة مرتدينَ اللباسَ الأبيضَ، صائمينَ مولّينَ وجوهَهُم جهةَ الشمال ، تجاه أرضِ صَهيون ، سائلينَ اللهِ أن يُعيدَهُم إليها.

لقدّ تعرّفتُ على عيد "السّغد " الاثيوبيّ عن طريق صديقي شمعون الذي هاجرَ إلى إسرائيلَ في نفس الفترةِ التي رحلتُ فيها أنا الآخرُ إلى إسرائيلَ في ثمانينيات القرن الماضي تقريباً . ورغمَ انتماءِ صديقي شمعون إلى أشدّ المُجتمعاتِ اليهوديّة فقراً وبُؤساً في الشتات - أي يهودَ اثيوبيا - وانتمائي لأكثرِ المُجتمعاتِ اليهوديّة ثَرَفاً - أي يهودَ أمريكا - ، إلّا أنّ كلانا قد كبرَ وترعرعَ على حبّ أرضِ صهيون. بالنسبة لشمعون ، فقد بدأ شوقُهُ إلى العيشِ في أرضِ إسرائيلَ مُذ بدأ عيدُ السغِد ، حيث حدّثني أنّهُ - وبكلّ فخرٍ- بدأ يلتزمُ بصيامِ هذا اليوم منذ كان عمرهُ ثمانية أعوامٍ.

عاشَ يهودُ اثيوبيا مُقتنعينَ بأنهُم آخرُ اليهودِ على وجهِ الأرض ، نظراً لانقطاعهِم عن باقي المُجتمعاتِ اليهوديّة في الشتات ، فيما عاشَ جيرانهُم المسيحيّونِ في خوفٍ دائمٍ منهُم كونهُم كانوا يعتقدون بأنّ يهودَ اثيوبيا هُم مجموعةٌ منَ السّحرة، لذا لقّبوهُم بالفلاشا ، أي الغُرباء. وهذا - بالمناسبةِ - هو نفسُ الاعتقادِ الذي سادَ بين مسيحيّي أوروبا في العصور الوسطى ، حيثُ كانوا يخافونَ من اليهود لاعتقادهِم بأنّ اليهودَ هُم عبدةُ الشيطان ومُسمّمو آبار المياه.

لُقّبَ يهودُ اثيوبيا أنفسَهُم بـ " بيتا إسرائيل " ، أي بيتُ إسرائيل ، وبانقضاءِ سنةً تلو الأخرى ، وقَرنٍ تلو الآخر ، كان يصعدُ يهودُ اثيوبيا إلى الجبلِ بعقيدةٍ متزنةٍ يملؤها الشوق لأرضِ صهيونَ من جهة ، والصبرُ على فراقِها من جهةٍ أخرى.

وفي أحدِ أيام عامَ 1983، انضمّ صديقي شمعون إلى عائلته وجيرانهِ مُطلقينَ العنانَ لرحلةِ العودةِ إلى القدس مشياً على الأقدام . مؤخّراً ، اعترفَ أحبارُ وحاخاماتُ اليهودِ في إسرائيل بيهودِ اثيوبيا " بيتا اسرائيل "، وأقرّوا بكونهِم يهوداً، وهو أمرٌ كان موضعَ جدلٍ ونقاشٍ نظراً لانقطاعِ المجتمع اليهوديّ الاثيوبيّ عن باقي المُجتمعاتِ اليهوديّة في العالمِ لآلاف السنين ، فيما أعلنَ رئيسُ الوزراءِ الإسرائيليّ مناحيم بيغن - حينها - ترحيبهُ بيهودَ اثيوبيا وبعودتهِم إلى أرضِ وَطنِهِم إسرائيل.

انضمّ آلافُ اليهودِ الاثيوبيينَ إلى موجةِ النزوحِ إلى أرض اسرائيل مشياً على الأقدامِ والتي استمرّت لأسابيعَ ، مروراً بالغاباتِ والصحاري. توفّيَ خلال هذه المسيرةِ العديدُ من كبارُ السنّ نتيجةَ الارهاقِ الشديد ، فيما تُوفّي الكثيرُ من أطفالِهم جوعاً. نسبياً، لم يفقِد أي مُجتمعٍ يهوديّ في الشتات ضحايا بشريّة أثناءَ رحلةِ العودةِ إلى أرضِ صهيونَ بقدرِ ما فقدَ يهودُ اثيوبيا.

لقد كانَت أوّلُ محطّةٍ توقفَ فيها شمعون وعائلتُهُ أثناءَ تلكَ الرحلة هيَ مخيمٌ للاجئينَ في السودان ، لكن خوفاً من الحكومةِ الإسلاميّة هُناك ، أخفى شمعون ورفاقهُ هويّتهُم كَيهودٍ وانتظروا عُملاءَ الموسادِ الإسرائيليّ ليقوموا بانقاذِهِم. آنذاك ، شاهدَ جنديّ سودانيّ شمعون واشتبهَ بكونهِ يهوديّاً ، فما كانَ من ذلكِ الجنديّ إلا أن سَحقَ رجلَ شمعون - الذي كانَ حافياً وقتها - بحذائهِ المغلّفِ بالفولاذ . ومنذ ذلكَ الحين حتى وقتنا هذا وصديقي شمعون يَعرجُ على قدمهِ مُتأثراً بتلكَ الضربة.

إنني أستذكرُ يهودَ اثيوبيا كلّما سمعتُ زعيماً شرقَ أوسطيّ يتحدّثُ عن كون تعرّضِ اليهودِ للهولوكوست هوَ السببُ الوحيدُ الذي يقفُ خلفَ قيام دولة إسرائيل ، وبأنّ الفلسطينيينَ دفعوا ثمناً باهظاً لما اقترفهُ الغربُ تجاهَ اليهود. حقيقة ، لم يَسمَع الكثير من يهودِ اثيوبيا عن الهولوكوست حتى نزوحِهِم إلى أرض إسرائيل ، كما أنّ قرابة نصفِ اليهود الإسرائيليينَ أتوا إلى إسرائيلَ قادمينَ من العالمِ العربيّ ، تلكَ البلادُ التي لم يَنجح النازيّونَ في الوصولِ إلى معظمِها.

في الواقعِ، لقد وُجدَتْ إسرائيلُ لسببٍ بسيط: وهو أنّها لم تتوقف أبداً عن الوجود، حتى وإن كانَ ذلكَ الوجودُ في صلواتنا فقط . لقد استَعَدنا أرضَ إسرائيلَ بفعلِ قوّة شوقِنا وحنينِنا اليها ، تلكَ القوة المتراكمةِ منذ زمنٍ طويل، لكنّ ارتباطنا بهذهِ الأرضِ لم يكُن محصوراً بشوقِنا إليها فقط. ولقرونٍ عديدة مَضَت جاءَ اليهودُ من كلّ حدٍ وصوبٍ، من الشرقِ والغربِ، ليسكنوا أرضَ إسرائيلَ ويُدفنوا فيها.

وبعدّ أن دَمّر الرومانُ مملكةَ يَهودا حَظروا وجودَ اليهودِ في القدس ومنعوهُم من العيشِ فيها ، وهوَ الحظرُ نفسهُ الذي كانَ أشدّ وأقسى في فترة الحُكم المسيحيّ لمدينةِ القدس ، فيما كان الحُكّامُ المُسلمونَ للقدسِ أكثرَ رحمةً من غيرهِم ، فكانَ الخليفةُ المُسلمُ عمرُ بن الخطّابِ ، بعدَ كلّ ما سبق ، هو أوّل حاكمٍ يسمحُ بعودة بعض اليهودِ إلى القدس عقبَ سيطرتهِ على مدينةِ القدس عامَ 638 م. ، لذلكَ فإنني أرى في كَرَمِ الأخلاقِ هذا جزءاً لا يتجزّأُ مِن تاريخِنا المُشترَك.

بطبيعةِ الحال ، فقد أصبحَ الدافعُ لوجودِ تعبيرٍ سياسيّ عن حنينِ اليهودِ إلى وطنهِم وعودتهِم إليه - بتحويلِ العلاقة مع أرضِ صهيونَ من علاقة زمانيّة إلى علاقةٍ مكانيّة - أمراً مُلحّاً للغاية . لقد تعرّض يهودُ روسيا في القرن التاسع عشر - على سبيلِ المثال لا الحصر- لموجةٍ مُمنهجةٍ منَ التحريضِ ضدّهُم من قبلِ النظامِ الحاكمِ ; الأمرُ الذي هدّد وجودَهُم آنذاك ، مما دفعَ آلافَ اليهودِ الروسِ لتركِ بيوتهِم والفرارِ نحوَ الغَرب. لذلك ، فقد سعَت الحركة الصهيونيّة التي كانت حديثة الولادة حينَها إلى ايجادِ حلّ يُعالجُ مشكلة "جميعَ اليهودِ "، لا جزءاً منهُم ، حلاًّ جذريّاً يُخلّصُ اليهودَ من مُشكلةِ عدمِ وجودِ وطنٍ آمنٍ يأويهِم. وبغضّ النظر عن مدى سوءِ حالِ اليهود ، فإنّ معاداة الساميّة والحاجةَ إلى ملجأ ومأوى لم تحدّد ماهيّة الحركةِ الصهيونيّة ، فالحاجةُ جَعلَت من وجودِ الحركةِ الصهيونيّة أمراً ملحّاً للغاية ، إلا أنّ الشوقَ والحنينَ إلى أرضِ إسرائيلَ مَنَحَ الصهيونيّةَ جوهَرَها الروحيّ.

لقد جَسّدت الحركةُ الصهيونية نقطةَ التقاءٍ بينَ الحاجةِ إلى أرضِ إسرائيلَ والحنين إليها ، وفي الوقتِ الذي تَعارضَت فيه "الحاجةُ " مع "الحنينِ" - كما حدثَ في بداياتِ تاريخِ الحركةِ الصهيونية - فقد تغلّبَ حنينُنا إلى أرضِ إسرائيلَ على حاجتِنا إليها.

وفي عام 1903 ، فرغَت جُعبةُ الصحفي النمساويّ ثيودور هِرتزِل – مؤسّس الحركةِ الصهيونيةِ - من كل الخياراتِ والحلول، حيثُ كانَ معروفاً عن هرتزل هَوسهُ الدائمُ بانقاذ اليهودِ مما كانوا يتعرّضونَ له آنذاك ،في الوقتِ الذي كانَ فيهِ هرتزِل يهوديّاً علمانيّاً غيرَ مُتديّنٍ ، بالتالي فقَد كانَ دافعهُ لتأسيسِ الحركة الصهيونيّة هوَ الحاجةُ إلى أرضِ إسرائيل ،لا الحنينَ إليها.

آنذاك ، فشلِ ثيودورهرتزِل في اقناع السلطانِ التركيّ بالسّماح بالهجرةِ الجماعيّة لليهودِ إلى أرضِ إسرائيلَ ليعيشَ اليهودُ لاحقاً تحتَ الحكمِ العُثمانيّ ، فيما كانَ موقفُ بابا الفاتيكان مماثلاً لموقفِ السلطان العثمانيّ ; حيثُ ردّ البابا على مطلبِ هرتزِل قائلاً بأنهُ لن يتمكّن من دعمِ الحركة الصهيونيّة نظراً لأنّ شتاتَ اليهودِ في العالمِ هوَ عقابٌ إلهيّ نتيجةً لرفضِهِم لعيسى المسيح . لذلك ، فقد بَدت حركةُ هرتزِل وأحلامهُ البائسةِ مُتعسّرةً على أرضِ الواقع ، فقد تخلّى عنهُ مُعظمُ اليهودُ الأثرياء اعتقاداً منهُم بأن خُطّة هرتزِل لإنشاءِ دولةٍ يهوديّةٍ قَد تُبدّدُ الجهودَ التي يبذلُها اليهودُ لقبولِهِم في المجتمعاتِ غير اليهوديّة وتَجعلُها هباءاً منثوراً ، فيما اكتَفى يهودُ برلينَ وفينّا بالدّعاءِ لهرتزِل وتمنّي التوفيقِ لهُ في ما يَطمحُ لتحقيقه.

لقد شعرَ هرتزِل حينها باليأس ، خاصةً وأنّ العُنفَ والهمجيّة كانَتا في تصاعدٍ مُستمرٍ تجاهَ يهودِ روسيا. كان حدسُ هرتزِل يحدّثُهُ بأنّ كارثةً لا يُمكنُ تصوّرهُا ستحلّ بيهودُ أوروبا ، كارثةً تفوقَ في فظاعتِها كُلّ العُنفِ المُمنهَج الذي تعرَضَ له اليهود في السابق

لاحقاً ، حاولَ البريطانيّونَ التقرّب من هِرتزِل من خلالِ عَرضٍ يتضمّنُ إقامةَ مُستعمرةٍ لليهودِ في شرقي أوروبا ، حيثَ كانَ يطمحُ الانجليزُ من هذا العرضِ إلى ايجادِ مُستعمرينَ مُخلِصينَ لهُم ، مُستغلّينَ بذلكَ فكرةَ هِرتزِل التي تسعى لإقامةِ وطنٍ قوميّ لليهود وحاجةَ اليهودِ الماسّة إلى ذلك . كانَ هرتزِل يعلمُ جيّداً بأنهُ ستكونُ هناكَ مُعارضةٌ بين الصهاينةِ لما صارَ يُعرفُ لاحقاً باسم "خُطّة أوغندا " ، إلا أنّه في الوقت نفسهُ كان يُدركُ بأنّ الحركةَ الصهيونيّة كانت حركةً براغماتيّةً واقعيّة ، فإن لم تكُن العودةُ إلى أرض صهيونَ أمراً مُمكناً ، فإنّ رفاقَ هِرتزِل في الحركةِ الصهيونّة سيوافقون على قبولِ ما هو مُمكِن ، وهذا ما كانَ هِرتزِل يأملُ حدوثَه.

طرحَ هِرتزِل خطّتهُ على المؤتمرِ الصهيونيّ آنذاك عارضاً خريطةً لشرقِ أفريقيا على المنصّة مُؤكداً لِلحضور بأن لا مكانَ سيحلّ محلّ أرضِ صهيونَ في قلوبنا ، إلا أنّه حثّهُم على ضرورةِ الأخذ بعين الاعتبار المخاطرِ التي يتعرّض لها اليهود ، خاصة في روسيا ، وأنّ حاجتنا تسبقُ حنينَنا في ظلّ هذهِ الظروف.

قوبلَت خطّةُ هرتزل بصيحاتٍ من الغضبِ والمعارضةِ الشديدة ، خاصةً من قبلِ النّوابِ - الذينَ كانوا صغار السن حينها - والذينَ كانوا يمثّلونَ مُختلفَ المُجتمعاتِ اليهوديّة في روسيا. في الوقتِ نفسهِ هرعَت شابةُ يهوديّة إلى المنصّة مُمزّقةً خريطةَ شرق افريقيا من على الجدار، الأمرُ الذي شكلَ مفارقةً حينها ، إذ عارضَ اليهودُ الروسِ خطة هرتزِل التي كانت تهدفُ إلى انقاذهِم بالدرجة الأولى.

غادرَ النّوابُ الروسُ الجلسةَ وعلى رأسهِم حاييم وايزمان الذي شغلَ منصبَ أول رئيسٍ لدولةِ إسرائيلَ . كان أغلبُ هؤلاءِ النّوابِ يهوداً علمانيّينَ اشتراكيّينَ خارجينَ عن نمطِ الحياة الدينيّة التي ترعرَعوا عليها في بيوتهِم. تجمّع هؤلاءُ في غرفةٍ مُجاورةٍ وجلَسوا على الأرض - التقليدُ الذي يؤدّيهِ اليهودُ في التاسع من آب أثناء وجودُهِم في الكنيس - فيما أجهشَ بعضهُم بالبكاء. لقد كانَ هذا الحشدُ في حالةِ حزنٍ وعويلٍ ، لا على أرضِ صهيونَ بل على حالِ الصهيونيّة آنذاك.

اقتربَ هِرتزِل منَ الحشدِ الحزينِ فاحتضنوه ببرودٍ لطيف ، فهو بنهايةِ المطافِ زعيمَهُم المحبوبُ الذي يُعدّ أوّل يهوديّ - منذ ألفي سنةٍ - يُفكّر في حلّ عمليّ يُنهي شتاتَ الشعب اليهوديّ. إن خطة هرتزِل وطموحَهُ بإنشاءِ مُستعمرةٍ لليهودِ في أوغندا كانت ستَجلبُ الأمانَ للشعبِ اليهوديّ ، فيما كانت ستمثّلُ محطّةً انتقاليّةً للوصولِ إلى أرضِ صهيون. نجحَ هِرتزِل قي تجنّبَ إحداثَ أيّ انقسامٍ في صفوفِ الحركة الصهيونيّة ، إلّا أنّ النّوابَ الروس ظلّوا مُصرّينَ على مُعارضتهِم لتلك الخطّة. وعلى أية حال ، ففي ختامِ جلسة المؤتمرِ تلكَ ، رفع هِرتزِل يدهُ اليمنى مُردّداً تلكَ الكلماتِ من سفر المزامير: **" إِنْ نَسِيتُكِ يَا أُورُشَلِيمُ، تَنْسَى يَمِينِي ".**

وبعدَ مضيّ سنةٍ على ذلك المؤتمر ، توفّي ثيودورهرتزِل عن عمرٍ يناهزُ أربعةٍ وأربعين عاماً إثرالإجهادِ الشديدِ والذي أدّى إلى قصورٍ حادٍ في عملِ قلبِهِ. رحلَ هِرتزِل ورحلَت معهُ خُطتُه لإنقاذِ اليهود ، وحَدثَت كارثةٌ كانَ بالإمكانِ تلاشي حدوثِها. وفي الحقيقة ، تَلتَ خطةُ أوغندا عدةُ محاولاتٍ لإنشاء وطنٍ قوميّ لليهود في أنحاءَ مُختلفةٍ من العالم ، فعلى سبيلَ المثال ، تمّ اقتراحُ دولةِ بيروبيجان لهذا الغرض ، تلبيةً لطموح السوفييت في إقامةِ دولةٍ على الحدودِ مع الصين ، دولةٌ ذاتُ ملامحَ شيوعيّة فيما يتحدّثُ أبناؤها اللغة اليديشية ، لكن بنهاية المطاف ، باءَت كلّ المحاولات لايجادِ بديلٍ عن أرضِ صهيونَ بالفشل.

ولأكونَ صريحاً أكثر، لو كُتبَ لخطة أوغندا النجاح لأصبحَت الحركة الصهيونيّةُ حركةً استعماريّة بكلّ معنى الكلمة . صحيحٌ بأنهُ سيكونُ استعماراً بشعاً كأيّ استعمارٍ آخر ، إلا أن الحاجةَ المُلحّةَ هي التي تَقفُ خلفَ تلكَ النيّة بالاستعمار ، لا الطمعَ وتحقيقَ الأمجاد. وبجميعِ الأحوال ، لن يكونَ هناكَ مناصٌ لتجاوزِالنظرةِ السلبيّة التي سينظرُ بها الجميعُ للصهيونيّةِ لو استعمَرنا أوغندا.

إنّ إصرارَ الحركةِ الصهيونيّة على العودةِ إلى أرضِ صهيون رغم جميع التحدّياتُ والعواقِبُ قد منحَ الحركة الصهيونيّة شرعيّتها كحركةٍ تسعى إلى استردادِ أرض صهيونَ وإعادةِ السكّانِ الأصليينَ إلى وطنِهم الأم. ولنكونَ دقيقين أكثر ، لقد جسّدَت الحركةُ الصهيونيّة ظاهرةً فريدةً من نوعِها، الأمرُ الذي يفتحُ البابَ على مصراعيهِ لادراجِها تحت مسميّاتٍ أخرى، مثلَ فكرةِ القوميّة الأوروبيّة التي ظهَرت في القرنِ التاسع عشر ، ومِن هُنا بدأ تصنيفُ الحركةُ الصهيونيّة على أنّها جزءٌ من تلكَ الحركاتِ الاستعماريّة الأوروبيّة.

ومما لا شكّ فيهِ أن الحركة الصهيونيّة قد تأثرت بقوّة بفكرةِ القوميّة الأوروبيّةِ ، لكن تحويلَ الحلمُ اليهوديّ إلى فكرة القوميّة كانَت الوسيلةَ الوحيدة لتحقيق ذلكَ الحلمُ الذي مضى عليه قرابةَ 2000 سنة. وعلى الرغمَ من انطلاقِ الحركةِ الصهيونيّة في الغرب إلا أنّها وصلَت إلى مُبتغاها في الشرق، فمَع قيامِ دولةِ إسرائيلَ انتقلَت مُجتمعاتٌ يهوديّةٌ بأكملِها - حتى من منطقةِ الشرقِ الأوسط نفسها - للعيشِ في أرضِ صهيون ، فكانَ يهودُ اليمنُ أوّل مُجتمعٍ يهوديّ يُلبّي نداءَ العودة إلى أرضِ الوطن عام 1949 حينَ تمّ إجلاءُ 40,000 يهوديّ يَمني جوّاً من اليمنِ إلى أرضِ الوطنِ في أوّل رحلة نقلٍ إسرائيليّة عبرَ الجوّ بعد قيامِ دولة إسرائيل.

استذكَر يهودُ اليمنِ حينَها - والذين لم يسبق لغالبيّتهِم رؤيةُ طائرةٍ طوالَ حياتهِم - الوَعدَ التوراتيّ الذي يقضي بعودةِ اليهودِ من الشتّات على " أجنحةِ النّسور "، فَرأوا عودتهُم على متنِ تلكَ الطائراتِ تحقيقاً لذلكَ الوعدِ التوراتيّ حينَ هبطَت الطائِراتُ على مدارجها فوقَ أرضِ إسرائيل.

وعام 1951 ، جاءَ دورُ المُجتمع اليهوديّ العراقيّ لتلبيّة نداءِ العودة إلى أرض الوطَن، حيثُ تمّ إجلاءُ قرابةُ المئة ألفِ يهوديّ عراقيّ، أي المُجتمع اليهوديّ العراقي بأكملِهِ ، في رحلةِ نقلٍ جويّ هي الأضخمُ في تاريخ إسرائيل. شمِلَت رحلةُ الإجلاءِ تلكَ مُجتمعاتٍ يهوديّة عديدة ، فكانَ منهُم يهودُ بغدادَ وَقُرى كُردستان ، كانَ منهُم الصوفيّون والشيوعيون ونشطاءُ الحركة الصهيونيّة في العراق.

وبانتقالِ مجتمعٌ يتلوهُ الآخر فقد عاد اليهودُ من كلّ حدٍ وصوبٍ إلى أرض إسرائيل ، إذ عادَ يهودُ جنوب افريقيا ، ويهودُ مصر ويهودُ سوريا ولبنان أيضاً. وبالمناسبةِ ، إن غالبيّةَ الإسرائيليينَ اليومَ ينحدرونَ من نسلِ اليهودِ الذينَ تركوا مكانَ سكناهِم في جانبٍ من الشرق الأوسطِ ليعيشوا في جانبٍ آخر . فلتجرّب يا جاريَ العزيزُ مرةً أن تفتحَ نقاشاً معهُم وتخبِرهُم بأنّ الحركة الصهيونيّة هيَ حركةٌ استعماريّة أوروربيّة وستكتشفُ ببساطةٍ أنهُم لا يعلمونَ شيئاً عمّا تتحدّث عنه.

لقد كانَ اليهودُ الشرقيّونَ حاضرينَ منذ البداياتِ الأولى لفكرةِ الحلّ السياسيّ للرجوع إلى أرضِ صهيون ، ففي عام 1882 توقّع بعضَ أحبارِ اليهودِ الكبالة اليمنيينَ – الكبالةُ هي فلسفةٌ يهوديّة تفسّر العلاقةَ بين الله اللامُتغيّر والأبدية والسرمدية - بأنّ هذا العامَ سيكونُ عام الخلاصِ تبعاً للتقويم العبريّ. وبناءاً على ذلكَ ، أبحَرَ مئاتُ اليهودِ اليمنيينَ إلى مرفأ يافا آملينَ أن يلاقوا المَسيحَ المُخلّصَ هُناك. إلا أنّهُم ، وبدلاً من أن يقابلوا المسيح المُخلّص ، قابلوا أوّل مجموعةٍ من الروّادِ الأوائل للصهاينةِ القادمينَ من روسيا إلى أرضِ إسرائيل. لم يكُن لقاءُ الإخوة اليهود ببعضِهِم البعض لقاءاً مُبهجاً ، بَل كان الحذرُ سيّد الموقفِ حين التقت تلكَ المجموعتان اليهوديّتانِ القادمتان من طرفيّ الشتات اليهودي ، من شرق العالمِ وغربِه. لقد نشبتُ الخلافاتُ وسوء الفهمِ بين المجموعتين ، لكنّ سوءَ الفهمِ ذاكَ كان محصوراً فقط بينَ يهودِ الشرقِ التقليديينَ المُتشدّدين ، وبين الجيل الشابِ الطائش من يهودِ الغرب الأشكِناز.

وبطريقةٍ أو بأخرى فقَد صَدقَت نبوءاتُ اليهودِ الكبالة اليمنيينَ إلى حدٍ ما ، فقد كان عام 1882 أحدَ أعوامِ الخلاصِ لليهود، كونهُ العامُ الذي شهدِ ميلادَ وبداياتِ الحراكِ اليهوديّ المُعاصرِ للعودةِ إلى أرضِ صهيون. لقد شَهِدَ هذا العامُ أيضاً لقاءاً هامّاً - رغمَ صعوبته - بين يهودَ الشرق ويهودِ الغربِ. في الواقع ، لم يكُن هناكَ أي شكلٍ من أشكالِ التواصِل بينَ الطرفين سابقاً ، حيثُ لم يكُن يهود اليمنِ على درايةٍ بالمجموعاتِ الصهيونيّة التي بدأت تتشكّلُ في أوروبا آنذاك . لم يكُن هؤلاءُ اليمنيّون صهاينةً بالمَعنى السياسيّ للكلِمة ، بل تجلّتْ صُهيونتهُم في أشدّ معاني الصهيونيّة عمَقاً ; لقد كانوا صهاينةً يسعونَ إلى العودةِ إلى وطنهِم الأمّ مُترقّبينَ استعادةَ شعبِهم للسّيادة اليهودية على أرضِه.

وعلى أرضِ الواقع ، تحقّقت أهدافُ الحركةِ الصهيونيّة كاملةً في أواخر القرنِ العشرينَ مع بدء الهجراتِ الجماعيّة اليهوديّة إلى أرض إسرائيل ، حيثَ توجّه اليهودُ من كلِ بقاع الأرض إلى وطنِهِم ، خاصةً اليهودُ الروسُ الذي تعرّضوا خلال سبعينَ سنةٍ من الحكمِ الشيوعيّ لأبشعِ الضغوطِ المُمنهجةِ لصهرِهِم وإقحامِهم في المجتمعِ الروسي بإقصائِهِم عن هويّتِهِم اليهوديّة ، من خلال منعِهِم من أداء شعائرِهِم الدينيّة والتفقهِ في دراسةِ الديانةِ اليهوديّة في تلكَ البلاد . ونتيجة لذلك ، أضحى غالبيّة يهودِ روسيا وكأنهم لا يمتّونَ لليهوديّة بِصِلة ، الأمر الذي اختلفَ كليّاً فورَ عودتهِم إلى أرضِ وطنهِم ، حيثُ انضّموا إلى باقي المُجتمعاتِ اليهوديّة الأخرى ، فشرعوا بدراسةِ لغتهُم الأم - اللغة العبريّة – وتنظيم أمور حياتهُم تبعاً للتقويمِ العبريّ ، وبناءِ روابطَ أسريّة معَ اليهودِ من شتّى مُجتمعاتِ الشتاتِ ، فأرضُ إسرائيلَ هي المكانُ الوحيدُ الذي يصبّ فيهُ دمجُ اليهودِ وصهرُهُم في المجتمع في مصلحةِ البقاءِ اليهوديّ.

لقد سمعتُ بعضَ القادةِ الفلسطينيينَ وهُم يشيرونَ إلى موجاتِ الهجرة اليهوديّة من روسيا - كونها تشكّلُ أكبرِ نسبة من المجتمعات اليهودية التي ينتشرُ فيها الزواج بين اليهودِ وغيرِ اليهود – على أنّها دليلٌ واضحٌ على زيفِ بُنية الأمّة اليهوديّة وعدمِ تجانُسها. في الواقع ، ومن وُجهةِ نظرٍ صهيونيّة ، لم تكُن أي موجةٍ من موجاتِ الهجرةِ اليهوديّة أقل أو أكثرَ تجانُساً، فاليهودُ التقليديّون الذينَ قدموا من العراقِ واليمن ، واليهودُ الروسُ الذينَ تمّ صهرُهُم في المُجتمع السوفييتي سابقاً ، جميعُهم سكانٌ أصليّونَ لأرضِ إسرائيل ، هُم وأبناءٌ وبناتٌ لهذه الأرضِ وقد عادوا إلى أرضِهِم التي هُجّروا مِنها.

جاريَ العزيز، هَل مِن المُمكنِ أن نفصلَ اليهوديّةَ عن الصهيونيّة؟ - بحسبِ الإدعاءاتِ التي يُصرّ عليها مناهضو الصهيونيّة - وهَل تُعدّ الصهيونيّة مُجرّد حركةٍ سياسيةٍ تتعارضُ معَ "الديانةِ اليهوديّة " التي لا يوجدُ أدنى شكٌ في كونهاّ ديانةً حقيقيّةً أصيلة؟

إنّ إجابةَ هذه الأسئلةِ تعتمُدُ على ما نقصدُهُ بالصهيونيّة، فإن كُنتَ تقصدُ الحركةَ السياسيّة التي ظهَرَت أواخرَ القرن التاسعِ عشر ، فبكُلّ تأكيد ستجدُ بعضاً من الجماعاتِ اليهوديّة التي لَم تعترِف بالحركة الصهيونيّة تبعاً لهذا التعريف. لقد شَهِدت الفترةُ التي سبقَت قيامَ دولةِ إسرائيلَ وجوَد نقاشاتٍ معمّقةٍ حولَ الحِكمةِ مِن وراءِ المُخطّطِ الصهيونيّ ; فقد رفضَ اليهودُ الماركسيّونَ الحركةَ الصهيونيّة كونَهاَ تتعارضُ مع أهدافِ الثورة العالميّة ، فيما رفضَ اليهودُ الأرثوذوكس الحركة الصهيونيّة كونها حركةٌ علمانيّة ، بينما أصرّ البعضُ على رفضِها بناءاً على اعتقادِهِم بأنّ المَسيحَ المُخلّصَ هوَ الوحيدُ القادرُعلى إرجاعِ اليهودِ إلى وطنهِم.

من جهةٍ أخرى، إذا كنتَ تقصدُ " بالصهيونيّة " تَعلّقَ اليهودِ بأرضِ إسرائيلَ وطموحَهُم باستعادةِ السيّادةِ اليهوديّة على وطنهِم الأم ، دعني أقولُ لكَ بأن الديانةَ اليهوديّة والحركة الصهيونيّة مفهومانِ لاينفصلانِ عن بعضهِما البعض من هذا المنظور ; فالديانةُ اليهوديّة ليسَت مُجرّدَ طقوسٍ وشعائرَ دينيّة بل هيَ رؤيةٌ مرتبطةٌ ارتباطاً عميقاً بأرضٍ مُعينة، أرضُ إسرائيل. إنّ جميعَ الحركاتِ اليهوديّة المُعاصرةِ التي ظهرَت حديثاً مُحاولةً خلقَ توجّهاتٍ أخرى للديانة اليهودية بمعزلَ عن ارتباطِ اليهود بأرضِ إسرائيلَ وعودتهِم إلى تلك الأرضِ كانَ مصيرُها الفشلُ.

وتزامُناً مع قيامِ دولةِ إسرائيل ،أحاطت بعضُ الحركاتُ المُناهِضةُ للصهيونيّة بالحياة اليهودية. وبعيداً عن أصواتِ الأقليّاتِ اليهوديّة المثيرةِ للضجّة والتي لم تَعترف بالحركةِ الصهيونيةِ ، فقد تصالَحَ اليهودُ الأرثوذوكس مع الدولةِ اليهوديّةِ والحركةِ الصهيونيّة ، كذلكَ فقد وقّع ممثلونَ عن كافّة أطيافِ الأمّةِ اليهوديّةِ على ميثاقِ إعلان استقلالِ دولةِ إسرائيل ، بدءاً من اليهودِ الأرثوذوكس وصولاً إلى اليهودِ الاشتراكيّين، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على منحِ الشرعيّةِ من قبل الشعبِ اليهوديّ بأكملِهِ لدولةِ إسرائيلَ التي أسّسَها الفكرُ الصهيونيّ.

لقد شهِدنا في السنواتِ القليلةِ الماضية محاولاتٍ قديمةٍ جديدةٍ من قبلِ جهاتٍ عديدةٍ ،خاصةً اليسارالإسرائيليّ في الشتاتِ، تَهدفُ إلى استحداثِ هويّة يهوديّة لا تتضمّنُ بين طيّاتِها أيّ ارتباطٍ بأرضِ إسرائيلَ ، لكنَ النقاشَ حولَ هذا الموضوع باتَ محسوماً في ظلّ دولةٍ مُزدهرةٍ ذاتِ غالبيّة يهوديّة يعيشُ فيها قرابةُ نصف يهودِ العالم . إنّ مَن كانوا يتحدّثونَ في السابقِ عن فصل أرضِ إسرائيلَ عن الحياةِ اليهوديّة هُم أنفسَهُم يقرّونَ اليومَ بواقعِ وحقيقةِ دولةِ إسرائيل ويعترفونَ بها.

في صيفِ عام 1982 ، وبالتحديدِ خلال فترةٍ قصيرةٍ من ذكرى التاسع من آب ، تَركتُ منزلي في مدينة نيويورك وحلّقتُ إلى إسرائيلَ عبر طائرةٍ تابعةٍ لخطوط شركةِ " العال " الإسرائيليّة ، مُلتحقاً بشعبيَ اليهوديّ في فترةٍ من أشدّ الفتراتِ صعوبةً في تاريخَ إسرائيل. كنتُ في التاسعةِ والعشرينَ من عمري حينها ، صحفياً أعزباً تاركاً خلفيَ حياتي القديمة ، لم أنظر إلى الخلفِ إطلاقاً ومضيتُ قدماً إلى أرضِ الوطن.

كانَت الحربُ اللبنانيَة قد اندلعَت لتوّها في تلك الفترة ، فيما شهِدَت الساحةُ الإسرائيليّة حالةً من الانقسامِ الشديد. كان اليمينُ واليسارُ الإسرائيليّ يصرخونَ بوجهِ بعضهِم البعضِ في الطرقات ، فيما شهدَ الوضع الاقتصاديّ تضخمّا مهولاً وصل إلى 300% ، إلا أنّني كنتُ - رغمَ هذه السلبيّات - في أحضانِ وطني.

بطريقةٍ أو بأخرى ، كانت عودتي إلى أرضِ الوطنِ خلال ذلكَ الوقت العصيبِ أمرا جيّداً جداً ، فقَد قلّلَت عودتي في تلكَ الفترةِ من احتمالات شعوري بخيبةِ الأمل. لقد جئتُ إلى هُنا دونَ أي شروطٍ مُسبقة أو حتى توقّعات ، وبغضّ النظر عن المسار التي جَرَت به أحداثُ القصّة ، فإن أحداثَها الآن هيَ أحداثُ قصّةِ حياتيَ الشخصية.

عندما تساءَلَ الناسُ من حولي في " وطنيَ السابق " عن سَببِ مُغادرتي للولاياتِ المتّحدةِ وتوجّهي إلى الشرقِ الأوسط ، كنتُ أردّ عليهِم بهذا الردّ المجازي الذي نستخدمهُ نحنُ الصحفيونَ بكثرة، كنتُ أقول لهُم بأني أرغبُ في التعرّف على واقعِ الحياة الإسرائيليةِ من الصفحاتِ الأخيرةِ للجريدة ، لا مِن العناوين . أريدُ التعرُفَ على تركيبةِ الحياة بعد عودةِ اليهودِ إلى أرضهِم بكلّ ما فيها من تفاصيل.

لوهلةٍ ، بدا كلّ شيءٍ مألوفاً وغريباً في الوقتِ نفسه، سِرتُ في شوارِع إسرائيلَ بتأنٍ شديد فشعرتُ وكأنني زائرٍ مرّ عبر الزمن ليجدَ نفسهُ فجأةً في المُستقبلِ اليهوديّ ، فقلتُ لنفسي : يبدو وكأنه الشعورُ نفسهُ الذي اختلجَ مشاعرَ اليهودِ فورَعودتهِم إلى هذهِ الأرض. تملّكتني البساطة وشعَرتُ بالتواضعِ والبساطةِ عندما رأيتُ الأمورَ التي باستطاعةِ الاسرائيليّ العاديّ أن يضمَنَها في حياتهِ اليومِ، وتعّجّبتُ من قدرةِ الإسرائيليين على التصدّي للحروبِ والإرهابِ في الوقتِ الذي يُهاجرُ فيهِ اليهودُ موجةً تتلوها موجةٌ إلى دولةِ إسرائيلَ وهُم في حالةٍ من البؤسِ والفقر. لقد حظيتُ بشرفِ قضاءِ الأعيادِ اليهوديّة على الأرضِ التي أُريدَ لنا أن نقضيَ أعيادَنا فيها. ضَحِكتُ على الأمور السخيفةِ التي شاهدتُها في الحياة الإسرائيلية في الثمانينيات ، كضريبةِ التلفاز التي يتوجّبُ عليّ دفعُها مقابل " مُتعةِ " مشاهدةِ الحكوماتِ التي غلبَت عليها نزعةُ " إمّا الأبيض أو الأسود "، وهي تسيطرُ على مَحطّات التفاز. حاولتُ جاهِداً أن أتفهّم تأثيرَالضغط العاطفيّ والنفسيّ على الحياةِ هُنا ، تلكَ الحياةُ التي تشبهُ العيشَ داخلَ طُنجرةِ الضغط نفسِها.

أذكرُ مرّةً حينَ سألني بعضُ المراهقين باستغراب : لماذا تَركتَ الولايات المتّحدة ؟ ألَم تكُن حياتُك جيّدة هناك ؟ ثم بدأوا بالاستفسار عن كيفيّة الحصول على تأشيرةٍ للسفر إلى الولاياتِ المُتحدة ..

لذا ، وبعدَ هذه التجربة المريرةِ وضياعِ الأرضِ مِن أيدينا مرّتين ، يظلّ هذا سؤالٌ مصدرَ قلقٍ دائمٍ لي :
هَل سينجحُ اليهودُ في الحفاظِ على الأرضِ هذه المرّة؟

إنّ أحدَ أهمّ المُفارقاتِ في التاريخِ اليهودي هوَ أنّ اليهودَ ، رغَم مَركزيّةِ أرضِ إسرائيلَ في الديانةِ اليهوديّة ، إلّا أنهُم عاشوا في المنفى فترةً أطولَ من الفترةِ التي عاشوا فيها على أرضِ إسرائيل ، لذلكَ ، نحنُ شعبُ الأرضِ والمَنفى معاً.

لقد أخبرتنا التوراةُ وَحذّرتنا بصريحِ العبارةِ بأنّ " الأرضَ سَتقذِفُنا " إذا لَم نلتزِم بمسار الحياةِ التي رسَمَها اللهُ لنا، كما أنّ أحدَ الصلواتِ اليهوديّة تقولُ : " لقّد نُفينا من هذهِ الأرضِ نتيجةً لِما ارتكبناهُ من ذنوبٍ " ، لذلكَ فإننا نَعي تماماً أن بقاءنا على هذهِ الأرضِ مرهونٌ بقضايا أخرى تهدّدُ ذلكَ الوجود . لهذا ، فإنني أسألُ نفسي دوماً : لقد وُضِعَتْ سيادةُ اليهودِ على هذه الأرض أمانةً في أعناقِنا ، فهلْ سنكونُ ذلكَ الجيلَ الذي سَيصونُ تلكَ الأمانة؟

جاريَ العزيز ، إنّ التحدّياتِ التي تواجِهُنا على هذه الأرض هيَ تحدّياتٌ جسيمةٌ وشاقّة للغاية ، لذلكَ أريدُكَ أن تُفكّر معي للحظة : كيفَ بإمكانِنا تجديدِ وتوحيدِ شعبٍ مُتناثرٍفي شتّى البقاع في الوقتِ الذي كانَ تواصلُ أبناءِ ذلكَ الشعبِ مع بعضَهِم البعض شبهُ معدومٍ لقرون مَضَت؟ كيف بامكانِنا أن نَخلِقَ توازُناً بينَ الهويّة الدينيّة والهويّة العلمانيّة؟
كيف بإمكانِنا أن نَخلقَ مساحةً مُشتركةً للحياةِ المدنيّةِ بين الإسرائيليينَ اليهود والإسرائيليينَ العرب ؟ كيف سنقيمُ سلاماً مع أعدائِنا الذين لا زالوا يُنكرونَ حقّنا في الوجودِ على هذهِ الأرض ؟ كيف بإمكاننا حمايةُ أنفسِنا من المخاطرِ المُحيطة بنا والقادمةِ من كلّ حدّ من حدودِ دولّتنا ؟ وأخيراً ، كيفَ بإمكانِنا تمكينُ وتقويةُ شَعبكَ بطريقةٍ نَضمنُ فيها عدمَ تعرّض شعبي للخطر؟

إنّ العزاءَ الذي نعزّي بهِ أنفسَنا كإسرائيليينَ هو أدراكُنا بأنهُ سيكونُ من شبه المُستحيلِ تجاوزُ التحدّيات التي واجهناها منذ بداياتِ رجوعنا إلى هذه الأرض ، إلّا أن إسرائيلَ ظلّت باستمرارٍ تفاجئُ نفسَها بُطرقٍ جيّدة وأخرى سيئة. أحياناً تبدو لنا الأمور وكأننا عازمونَ على تعويضِ أنفُسنا عمّا فاتَ من فقدانِ السيادةِ على هذهِ الأرضِ لألفي سنة من خلالِ تحقيقِ جميعَ أحلامِنا التي كُنّا نحلمُ بتحقيقها لِعقود. لكن من جهةٍ أخرى ، فأننا نُكرّرُ نفس الأخطاء التي ارتكبَتها الأممُ الأخرى لِقرون.

وعلى أيّ حال ، لم تَجعلني أيٌّ من المُعضلاتِ أو الإخفاقاتِ الإسرائيليّة أشعرُ بالنّدم على قراريَ الذي اتّخذتُهُ بالعودة إلى هذه الأرض ، بَل على العكسِ تمامًاً ، إنّ عيوبَ دولةِ إسرائيلَ لا تُثبّطُ من عزيمةِ المرءِ بل تزيدُهُ إصراراً وتحدّياً.
إنّني أنظرُ إلى هذه العيوبِ على أنّها عيوبي ، على أنها انحرافاتٌ في وجوديَ اليهوديّ ، بالتالي يتوجّبُ عليّ أن أواجهَ تلكَ العيوبِ والانحرافاتِ وأصحّحِها. وسواءاً كان قَدَرُ إسرائيلَ هوَ النجاحُ أو الفشلْ ، الشرفُ أو العار ، فإنّ قَدرَ إسرائيل هوَ قّدري أنا أيضاً، إنّها الجانبُ الذي أتحمّلهُ أنا من المسؤولية، وهذا بالنسبةِ لي هوَ معنى الصهيونيّة.

لقد فُرِضَ على الديانةِ اليهوديّة أن تُعاشَ بطريقةٍ جماعيّةٍ تشاركيّةٍ تُحدّدُ أخلاقيّاتَ وسلوكياتَ المُجتمعِ الموجودةِ فيه ، بالتالي فإن فرصَتنا الحقيقة تتجلّى في ختبارِنا لِمدى التزامنِا بمبادئنا وقيَمنا النبيلة - التي استخلصناها من المَنفى - في مواجهةِ هذا الواقع المرير، وهُنا تكمنُ القيمةُ الحقيقةُ للقصّة اليهوديّة.

وعلى الرغم من أن قراريَ بالانتقالِ إلى إسرائيلَ كانَ قراراً فرديّاً ، إلا أن دولةَ إسرائيلَ احتضَنتني كجزءٍ من شَعبها العائدِ إلى وطنِه، بغضّ النظر إن كنتُ قادماً من نيويورك أو مومباي ،أو كنتُ ثروةً اقتصاديّة أم عِبءاً على الدولة، لقد كنتُ يهوديّاً عائداً إلى وطنهِ ، لذلك فإنّ ليَ كاملَ الحقّ في الحصولِ على الجنسيّة الإسرائيليّة.

لقَد مُنِحْتُ الجنسيّةَ الإسرائيليّةَ في إسرائيلَ تبعاً " لقانونِ العودة "، وهوَ قانونٌ يمنحُ الجنسيّة لأي يهوديّ يطلبُ الجنسيّة. أنني أتخيلُ حدوثَ الأمرِ نفسِهِ في الدولة الفلسطينيّة المستقبلية ;إذ سيكونُ أوّلَ قانونٌ يتمُ تشريعُهُ هوَ قانونُ العودةِ ، قانونٌ يمنحُ الجنسيّة تلقائيّاً لأي فلسطينيّ من فلسطينيّي الشتاتِ يَرغبُ في العودةِ إلى أرضِ وطنهِ ، وهذا هوَ واجبُ أيّ دولةٍ معنى وجودِها هوَ إنهاءَ شتاتِ أبنائِها.

في كلّ مرةٍ تحطّ بيَ الطائرةُ في مطار بن غوريون بعد قضائي رحلةً خارجَ البلاد ، وفي كلّ مرةٍ أقفُ فيها في الصفّ المُخصّصِ لحاملي جوازاتِ السفرِ الإسرائيليّة ، أشعرُ بشيء من الحماسِ الذي شعرتُ به عندما قدِمتُ إلى هذه البلاد كمهاجرٍ جديد ، فأقولُ لنفسي : توقّف عن كونِك انساناً عاطفياً ، إلا أنني أفشلُ في كل مرة ، فرغمَ كل هذه السنوات لا زلتُ أشعرُ بعظيمِ الامتنانِ لكوني مواطِناً إسرائيليّاً تمكّنَ منَ العودة إلى وطنِه.

ختاماً ، و على الرغمَ مِن كلّ المثاليّاتِ والدوافعِ والطموحاتِ التي دفعَتني للعودة إلى إسرائيل ، فإنني لم آتِ إلى هذهِ الأرضِ إلا لسببٍ واحد : وهوَ أنَ عودَتي إلى أرضِ إسرائيلَ كانَت أمراً مُمكنَ الحدوثِ.

إنها لنِعمةٌ عظيمةٌ بأن أعيشَ في زمنٍ لَم تعُد فيه ذكرى التاسعُ من آب المؤلمةَ هيَ الميّزةَ التي تُعَرّفُ التاريخَ اليهوديّ من الآنِ فصاعِداً.

الرسالةُ الثالثة : القَدَرُ والمَصير

جاريَ العزيز ،

مَن همُ اليهودُ إذاً؟ هُلِ اليهودُيّة ديانةٌ فقط؟ هل يُعدّ اليهودُ أمّةً بحدّ ذاتها؟ هَل هُم عِرقٌ بشريّ بحدّ ذاتِه؟

تؤثّرُ الإجابةُ على هذهِ الأسئلةِ تأثيراً مباشراً في مُجرياتِ الصراع القائمِ بيننا، كونَها تمثّلُ أساسَ رفضِ العالمِ العربيّ لشرعيّةِ اسرائيلَ كدولةٍ قوميّة للشعبِ اليهوديّ، لهذا دعني أحكي لكَ يا جاريَ العزيز حكايةَ اليَهود.

لقَد بَدأتْ حكايةُ اليهودِ منذُ ذلكَ اليومِ الذي قرّرَ فيه ابراهيمُ الزواجَ من سارة قبلَ أربعةِ آلافِ عام، مؤسّسينَ بذلكَ عائِلةً خرجَ من نسلِها أبناءٌ لأمّةً وعَقيدة واحِدة . لقَد كانَت تلكَ العائلةُ موحّدةً منذُ الأزَل، موحّدةً بمعنى ارتباطِ جميعِ أبنائِها بنفسِ المَصيرِ رغمَ اختلافِ توّجهاتُهُم الدينيّة والسياسية. ومنذ ذلكَ اليومِ حتى يومِنا هذا حافَظت تلكَ العائلةُ على هويّتها اليهوديّة كما هيَ.

إنّ التعبيرَعن الروابطِ الأسريّة داخلَ العائلةِ اليهوديّة عادةً ما يتّخذُ طابعاً دراميّاً مؤثّراً، وهُنا أستذكرُ تَجربَتي الشخصيّة التي تَشَكّلتْ من خلالِها بدايةُ تعبيري عنِ انتمائِي وارتباطي بالعائلةِ اليهوديّة المُمتدّةِ في شَتّى بقاع العالم ، تلكَ التجربةُ التي بدأتْ عبرَ مجموعةِ الاحتجاجاتِ والتظاهراتِ التي نظّمناها للمطالبةِ بإنقاذِ يهودِ الاتّحادِ السوفييتيّ سابِقاً .

لقد التحقتُ بتلكَ التظاهراتِ في ستينيّاتِ القرنِ المُنصَرم ، كنت طفلاً صغيراً حينها ، طفلٌ من برولكين يتظاهرُمن أجلِ إنقاذِ أناسٍ لا يعرفُهُم، أناسٍ يعيشونَ على بعدِ آلافِ الأميالِ عنه ، وهوَ أمرٌ لا غرابة فيه كوننا عائلة واحدة لا تُفرّقُها الحدود، كما أنّ قيامي بواجبي تجاهَ إخوَتي وأخواتي وبذليَ كلّ ما بوسعي لإنقاذِهِم منَ الكوارثِ التي تعرّضوا لها في ذلكَ الوقتِ هوَ أمرٌ بديهيّ جداً.

وعندما كنّا نُطالبُ بِـ " إنقاذِ " اليهودِ السوفييت، فإننا لم نقصِد حمايتَهُم من الاعتداءاتِ الجسديّة، فما تعرَضوا لهُ لم يكُن اعتداءاً ماديّا بالضربِ أو ما شابَه ، بل كانَ تهديداً بالاعتداءِ على هويّتِهم ووجودِهِم كيهود في مناطق الإتحادِ السوفييتيّ. لقَد كانَت سياساتُ الحكومةِ السوفييتيّة مُجحِفةً جداً بحقّ اليهود ، حيثُ مُنعَ اليهودُ من أداءِ عباداتِهِم ودراسةِ الديانة اليهودية وتعلّمها والتفقّهِ فيها ، في محاولةٍ لِطمسِ وجودِهِم كَيَهود على أرضِ تلكَ البلاد ، لهذا اتّخذنا قراراً بِبدءِ التظاهَراتِ وقُمنا بالاحتجاجاتِ كي نبذلَ ما بوسعِنا لمنَعَ فقدانِ بعضٍ من أبناءِ عائِلتِنا اليهوديّة.

نظّمَ اليهودُ حملةً واسعةً من الاحتجاجاتِ والتظاهراتِ التي تواصلَت على مدارِ خمسةً وعشرين سنةً ، الأمرُ الذي ساعدَ على إعادة تعريفِ الهويّة اليهوديّة والغايةِ منها. لقَد سافرَ آلافُ اليهودِ من مُختلفِ مُجتمعاتِ الشتات اليهوديّ إلى الاتحادِ السوفييتيّ ليَلتقوا بإخوتِهِم اليهود ويَشدّوا من أزرهِم ويَدعَموا صُمودَهُم من أجلِ البقاء ، حيثُ امتدّت رقعةُ تلكَ الاحتجاجاتِ حتى وصلَت لمرحلةٍ انخرَطَتْ فيها جميعُ المُجتمعات اليهوديّة في كلّ أنحاءِ العالم ، الصغيرةِ منها والكبيرة ، القريبة منها والبعيدة. وبنهايةِ المَطاف ، فُتِحَتْ أبوابُ الاتحادِ السوفييتيّ أمامَ اليهودِ السوفييت للخروجِ من تلكَ البلاد في أواخر الثمانيناتِ من القرنِ الماضي ، فاتّحدوا مع باقي أفرادِ عائلتِهِم اليهوديّة مرةً أخرى.

ومِن ناحيةٍ أخرى ، لاتقتصرُ طبيعةُ العلاقاتِ بينَ أبناءِ العائلةِ اليهوديّةِ على مظاهرِ الحُزنِ والدراما فقط ، بَل يوجدُ طابعٌ عاطفيّ يُظهرُ التعاضُدَ والتكاتُفَ بين أبناءِ تلك العائلة ، الأمرُ الذي أدرَكتُهُ خلالَ ترحالِيَ من بلدٍ لآخر ، حيثُ أدرَكتُ المَعنى الحقيقيّ لنعمةِ الإنتماءِ إلى عائلةٍ كريمةٍ مُمتدّة تَشعُرُ في أحضانِها وكأنّك لم تفارق بيتَك مَهما ابتعدتَ عنهُ . فخلالَ زيارتي إلى مومباي استضافَتني أسرةٌ يهوديّة مكوّنةٌ مِن زَوجينَ فقط ، إذ لم يُرزق هذان الزوجانِ بأي أبناءٍ ، فعاملاني وكأنني ابنٌ لهما ،لأنّي إلى حدٍ ما أعتبرُ نفسي ابناً من أبناءِ هذه الأسرة.

وخلالَ رحلةٍ أخرى استَغرقَتْ قرابةَ العامِ في إحدى قُرى جنوبيّ فَرنسا ، تملّكتني الدهشةُ حينَ تلقّيتُ في أحدِ الأيامِ صُندوقاً مليئاً بالخضارِ والفواكهِ الفرنسيّة الطازجة كهديّة بمناسبةِ السنة اليهوديّة الجديدةِ من شخصٍ لا أعرفُهُ. لقد كان فلّاحاً يهوديّاً فرنسياً علِمَ بزيارةِ أخٍ يهوديّ لهُ لهذه القريةِ قادماً من الخارج ، فقرّرَ أن يُرسِلَ لهُ تلكَ الهديّة.

جاريَ العزيز ،كثيراً ما أتعرّضُ لِهذا السؤالِ أثناءَ تنقّلي بينَ المطاراتِ : " هَل أنتَ يهوديّ؟ " ،وهو سؤالٌ يُطرحُ بنَبرتَينِ مُختلفتين : إمّا بنبرةِ الحدسِ والفضولِ، أو بنبرةِ الحِقدِ والكراهيةِ ، حيثُ التفريقُ بينَ النبرتين أمرٌ ليسَ بتلكَ الدرجةِ من الصعوبة.

صحيحٌ أنّ الشدائدَ والمحنَ التي تعرّضَ لها اليهودُ قَد أضعفَتهُم، إلّا أنّها قوّتهُم في الوقتِ نفسه. تاريخيّاً ، فإنّ أحدَ أهمّ الأسبابِ التي تجعلُ اليهودَ متعلّقينَ ببعضِهِم البعضَ هو الحاجةُ المُلحّة لذلك ، ولِتعلمَ يا جاريَ العزيزُ فقد أثّرَ شعورُ العائلةِ اليهوديّةِ الواحدةِ بشكلٍ كبيرٍ على الصراعِ القائمِ بينَنا ; فجميعُ المحاولاتِ التي كانت تَهدفُ إلى تدميرِ دولةِ إسرائيلَ إو إضعافِها أدّت إلى حَشدِ مزيدٍ من الدعمِ للدولةِ اليهوديّة مِن قِبلِ اليهودِ من كافّة أرجاءِ العالم. لكنّ المفارقةَ هُنا تكمنُ في أنّ ذلكَ الشعورَ الزائدَ بالإنتماءِ للعائلةِ اليهوديّة من شأنهِ أن يُضعِفَ منَ قوّة التماسُكِ والتَعاضُدِ اليهوديّ ; فالتوقّعاتُ المُتبادلةُ بينَ أبناءِ العائلةِ نفسِها قد تقودُ إلى شعورِ الفردِ بخيانةٍ من قِبلَ أخيهِ الذي ينتمي إلى نفس العائلةِ إذا ما خيّبَ أحدُهُم ظنّ الآخر، وفي تلكَ اللحظةِ التي يَثبتُ فيها وجودُ خيانةٍ للمَصالحِ والقيمِ اليهوديّةِ من قبلِ اليهودِ أنفسِهِم ، فإنّهُم سُرعانَ ما ينقلبُونَ على بعضِهِم البعضَ بطريقةٍ شرسةٍ تخلو من أيّ احترامٍ أواعتبار لأواصرِ الأخوّة بينهُم، وهذا هوَ الجانبُ المُظلمُ للعائلةِ اليهوديّة.

في الواقع ، تظهرُ العائلةُ اليهوديّة بِصورةِ شعبٍ واحدٍ ، حيثُ أنّ مركزيةّ تلكَ الصورةِ في الهويّة اليهوديّة تساعدُ في تفسيرِ قضيّة وجودِ " المُلحدينَ اليهود "، وهوَ أمرٍ يبدو وكأنّهُ شذوذٌ عن الديانةِ اليهوديّة إلى حدٍ ما. فعلى سبيل المثال ، تنظرُ الديانةُ الإسلاميّة والمسيحيّة إلى أتباعِهما الذين لا يلتزمونَ بالمباديء والتعاليمِ الأساسيّة لأيّ من الديانتين على أنهُم خارجونَ عَن الدينِ ، أي أن عدمَ التزامهم بتلك التعاليمِ يعني أنّهُم ليسوا بمسلمينَ أو مسيحيينَ بعد الآن ، إلّا أنّ الأمرَ مختلفٌ تماماً في الديانةِ اليهوديّة ; فأيّ يهوديّ يُؤمنُ بشعبهِ اليهوديّ ويُساهمُ في منفعةِ أبناءِ مُجتمعهِ ويربّي أبناءَهُ ليكونوا يهوداً يُعتبرُ انساناً يهوديّاً من أبناءِ العائلةِ اليهوديّة بلا أدنى شكّ.

جاريَ العزيز ، لطالما سمعتُ هذه العباراتِ مِراراً وتِكراراً ولسنواتٍ طويلةٍ تتردّدُ على ألسنةِ الفلسطينيينَ خصوصاً، والمُسلمينَ عُموماً : " ليسَ لدينا أيّ مُشكلةٍ مع اليهوديّة كَديانةٍ ، لقَد عاملناكُم أفضلَ مّما عامَلكُم المسيحيّون ، لكنّ هذا لا يعني موافقَتنا أوتفهّمنا لقضيّة إصراركُم على كونكِم أمّةً يحقّ لها أن تَمتلكَ سيادةً وطنيّة ، كوننا نَعرفُ حقّ المعرفة بأن اليهودَ ليسو أمّةً ، بل هُم أبناءُ ديانةٍ فقط ".

إنّ تجاهُلَ قضيّة " الأمّة اليهوديّة " يُساهمُ لدرجةٍ كبيرةٍ في استمرار هذا الشرخِ القائمِ بيننا ، فحتّى بعضُ الفلسطينيينَ المُعتدلينَ الذين أعرفهُم والذينَ يطمَحونَ إلى انهاءِ شلّالِ الدمّ بينَنا يُنكرونَ حقيقة كونِ الشعبِ اليهوديّ شعباً مُتأصلاً على هذه الأرض. بالتالي ، كلّما واصلَ القادةُ الفلسطينيينُ التمسّكَ بتلكَ القناعاتِ القائمةِ على تعريفِ اليهودِ على أنّهُم أبناءَ ديانةٍ فقط ، رافضينَ حقّنا في التعريف عن أنفسِنا كأبناءِ أمّةٍ يهوديّةٍ عريقٍ ذاتِ عقيدةٍ إلهيّة خاصّةٍ بها ، فإنّ البابَ سيظلّ مفتوحاً على مصراعيه تجاهَ اعتبارِ إسرائيلَ كياناً غيرَ شرعيّ بنظر العربِ والمسلمين ، مما يجعلُ من وجودِ إسرائيلَ على هذه الأرضِ قضيّة تثير العديدَ من علاماتِ الاستفهام بنظرِ الفلسطينيين.

حقيقةً ، يحتلّ مبدأ " الأمّةَ اليهوديّة " ، أي تعريفُ اليهودِ على أنّهُم أمّةٌ بحدّ ذاتِها ، مكانةً هامّةً ذاتَ بُعدٍ روحيّ عميقٍ في الديانةِ اليهوديّة ، إذ لو تمّ اعتبارُ اليهودِ مُجرّد عائلةٍ أقصى هَمّها هوَ الحفاظُ على وجودِها ، فيما تَجمعُ وحدةُ المصير فقط بينَ أبنائِها ، لكانَ وجودُنا اليوم رغمَ صِراعُنا من أجلِ البقاءِ لآلافِ السنينَ أمراً مِن سابعِ المُستحيلاتِ في ظلّ ترحالِنا وتشتّتُنا في شتّى بقاعِ المَعمورة ، إلّا أنّ صراعَ اليهودِ من أجلِ البقاءِ قد نجحَ نظراً لِتحقّقِهِ على هذينِ المُستويين : البقاءُ كعائلةٍ واحدة ، والبقاءُ كأبناءِ عقيدةٍ واحدة.

لقد ساهمَ شعورُ العائلةِ اليهوديّةِ في فهمِ مَعنى "قَدَرِ الشعبِ اليهوديّ" ، أي وجودَ دورٍ روحيّ يجبُ أن يلعبهُ الشعبُ اليهوديّ في تطوّر البشريّة ، حيثُ ساهَم هذا في تقويّة اليهودِ والشدّ من أزرهِم نظراً لأنّ حقيقة قَدَر اليهودِ قَد أعطت معنىً لمصيرهِم.

تُمثّلُ الديانةَ اليهوديّة قصّةُ حبٍّ بينَ اللهِ من جهة ، وأمةٍ بشريّةٍ من جهة أخرى ، إلّا أنّ قصة الحبّ تلكَ مُضطربّةٌ ولطالَما شابَها المدّ والجَزر. ففي بعضِ الأحيانِ ، وكما تُخبرنا التوراة ، يتّهمُ اللهُ اليهودَ بأنّهُم فاقدو الإيمان ، في المقابلِ يتهّمُ اليهودُ الله بأنّهُ قد تخلّى عنهُم وأخلّ بعهدِهِ مَعَهُم ، خاصةً في تلكَ الأوقاتِ العصيبةِ التي تعرّضَ خلالَها اليهودُ للاضطّهادِ ، إلّا أن قصّةَ الحبّ تلكَ ستستمرّ طالَما استمرَ وجودُ اليهودِ على هذه الأرض.

إنّ غايةَ الديانةِ اليهوديّة هيَ تطهيرُ أمّةٍ واحدةٍ ضمنَ غايةٍ أكبرَ وأشمَل، وهيَ تطهيرُ البشريّة جمعاء. واستناداً إلى هذا المُعتقَد فقَد اختارَ الله مجموعةً عشوائيّة من البشرِ - اختارَ بشراً بالتحديد ولَم يختَر قدّيسينَ - وأظهرَ نفسهُ لهُم على جبلِ سيناء ، حيثُ لم يُظهرِ الله نفسَهُ لموسى وحدهِ كروحٍ ذاتِ شأنٍ عظيمة ، بَل أظهرَ نفسهُ لجميعِ أبناءِ إسرائيل. هذهِ البساطةُ التي اتّصفَ بها شعبُ إسرائيلَ كأمةٍ من العبيدِ الذين تمَ اعتاقُهُم كانَ إلى درجةٍ ما أحدَ الأسبابِ التي جعلَتهُم شعباً مُختاراً. بمعنى آخر، لم يتمّ اختيارُ اليهود لكونهِم مُميّزينَ بالفطرة ، بَل لعدمِ كونهِم مميّزينَ بالفطرة ، وهوَ ما يثبتهُ قولُنا " أيّ شخصٍ ، كلّ شعبٍ ، أيّ شعبٍ ". لقد جسّدَ اليهودُ اختباراً حقيقياً لما سَيحدثُ عندما ترى شريحةٌ مُعيّنةٌ من البشر الذّاتَ الإلهيّة مباشرةً دون أي حجابٍ بينهما ، لذلكَ شهِدَ جبلُ سيناءَ تلكَ القصة التي أظهرَ فيها الله نفسَهُ للبشرِ، لتكونَ تلكَ بدايةَ مشوار الخلاص الذي سيصلُ فيه التاريخُ البشريّ لذروته.

وبالرغمِ من كلّ القواسمِ المُشتركةِ التي تتشاركُها الديانة اليهوديّة مع الديانتينِ المسيحيّة والإسلامية كدياناتٍ توحيديّة ، يظلّ هناكَ أمرٌ مهمّ تتميّزُ بهِ اليهوديّة عن كلتا الديانتين. إنّ الديانتين الإسلاميّة والمسيحيّة هما ديانتانِ عالميّتان ، إذ ترتكزانِ في جوهرهِما على نشرِ رسالتيهِما إلى البشريّة جمعاء ، كما تَرسمُ كلتا الديانتين ،الإسلاميةّ والمسيحيّة ، رؤيةً مستقبليّة قائمةً على وجوبِ الوصولِ إلى تلكَ المرحلة التي سَينظرُ فيها العالمُ لنفسهِ من منظور إحدى هاتين الديانتين ، كما ويؤمنُ أتباعُ تلكَ الديانتين بأنّ نهايةَ العالمِ ستتحقّقُ حينَ يدينُ كلّ البشرِ إمّا بالإسلامِ أو المسيحيّة ، وهُنا يتجسّدُ الفارقُ الذي يميّزُ اليهودية عَن هاتين الديانتين ; فاليهوديّة عقيدةٌ أرسِلَت لفئةٍ معيّنة ومُحدّدةٍ من البشر ، لا للبشريّة جمعاء.

وفي المقابِل، تتشاركُ الديانةُ اليهوديّةُ مع الديانةِ الإسلاميّةِ والمسيحيّةِ في نظرتهِما العالميّة التي تنصّ على أنّ حقيقةَ اللهِ سَتَتَكَشّفُ يوماً بطريقةٍ حتميّةٍ لا تحتملُ النقاش، تماماً كحقيقةِ عالِمِنا الماديّ الذي نعيشهِ اليوم ، حيثُ تسعى الدياناتُ التوحيديّةُ الثلاثةُ إلى تجهيزِ البشرية لذلكَ اليوم الذي تتكشّفُ فيه حقيقةُ الله حينَ يُظهرُ نفسهُ للجميع. وكذلكَ الحالُ هوَ الحلمُ اليهوديّ للمُستقبل ، فهوَ حلمٌ تعترفُ فيهِ البشريّةُ جمعاء بوجودِ اللهِ ووحدانيّته ، فيصعدونَ روحيّاً حاجّينَ إلى " بيتِ الله " في مدينةِ القُدس.

وخِلافاً للمسيحيّة والإسلام فإنّ اليهوديّة لا تنتظرُ من البشريّة أن تدينَ بالديانةِ اليهوديّة، بل على العكسِ تماماً ; إذ أن دورَ اليهودِ على هذه الأرضِ هوَ أن يكونوا طليعةً روحيّة تُثبتُ وجودَ اللهِ ، من خلالِ دليلٍ واضحٍ وهوَ بقاءُ اليهودِ كأمةٍ واحدةٍ رغم تعرّضِهِم للاضطهادِ على مرّ العصور. من جانبٍ آخر ، فإنّ أحدَ غاياتِ اليهودِ هو المساعدةُ في تجهيزِ البشريّة لذلكَ اليوم الذي سيتقدّمونَ فيه أفواجاً تجاهَ رفعتهُم وسموّهُم . إن دورَ اليهودِ يتمثّلُ باختصار في اتّباعهِم لاستراتيجيّة محدّدة جداً تَهدفُ إلى تحقيقِ رؤيةٍ عالمية لجميع البشريّة.

إنّ تركيبةَ وبُنيةَ التّناخ توضّحُ الغايةَ مِن وجودِ اليهود، تلكَ الغايةُ التي تبدأ منذُ بدايةِ خلقِ أوّل البشر - آدمَ وحواء - ، ثمّ نزولهِم المُبهمِ إلى هذا العالمِ الماديّ من " جنّة عدَن " ، والتي مثّلت النزول من منزلةٍ عُليا إلى منزلةٍ دُنيا، وصولاً إلى قصّةِ قتلِ الإخوة لبعضهِم بعضاً - قايين وهابيل - ، تلكَ القصّةُ التي عبّرَت عَن عدمِ وجودِ الانسانِ في منزلةٍ أفضلَ من منزلة الحيوانات ، من خلال الصورة المروّعةِ التي جسّدتها التوراةُ في القصة التي أطلق عليها " الطوفان " .

لهذا ، فإن الفَشلَ البشريّ في تطبيقِ الخطّةِ الإلهيّة استدعى استراتيجيّة إلهيّة جديدة ، بالتالي فقد أمرَ اللهُ ابراهيمَ بأن يُوجِدَ أمّةً تباركُ جميعَ الأممِ البشريّة على هذهِ الأرض ، كما ذُكرَ في التَناخ، إلّا أن التّناخ حصرَ تلكَ القصّة لتدورَ أحداثُها حولَ أمةٍ معينِة بحدّ ذاتها ، لتصوّر صِراعَ تلكَ الأمّةِ أثناء محاولاتها للرقيّ والسموّ فوقَ الطبيعةِ البشريّة لدرجةٍ ترتقي فيها تلكَ الأمّةُ لِتُصبِحَ " مملكةَ الكَهنةِ ، وأمّةً مُباركة ". إنّ خطّة الخلاصِ التي رسَمَها اللهُ ورؤيتهُ للبشريّة تتطلبُ شعباً قادراً على تنفيذِ تلكَ الرؤيةِ على مرّالتاريخ ، وبالنسبةِ للديانة اليهوديّة ، فإنّ مُصطلَحَيْ "الأمّة " و"العقيدةُ " هُما مُصطلَحانِ لا يُمكنُ فصلهُما عن بعضِهما إطلاقاً ، إذ لا ديانةَ يهوديّة بدونِ أمّةٍ يهوديّة.

يوضّح الكتاب المقدّس اليهودي (التّناخ) رؤيتهُ التي تتحدّث عن نهايةِ هذا العالمِ ، وذلكَ من خلالِ رسمِ رؤيةٍ عالميةٍ تَتَحققُ بحلولِ الوقتِ الذي يكونُ فيهِ وجودُ اللهِ " مرئيّاً كالماءِ في البحر "، بحسب الكلماتِ التي وضحّها نبيّ الله أشعيا ، إذ ستُعلنُ البشرية توحيدها للهَ بحلولِ ذلك الوقت ، فيما ستعودُ الحكايةِ التوراتيّة إلى أصولِها العالميّة ، كما ستعودُ البشريّة إلى أصلِها من جنة عدن ، ولكن في صورةٍ تجسّدُ منزلة تطوّريةً تَنضجُ من خلالَ تجربتِها عبرَالتاريخِ البشريّ.

وبطبيعة الحال ، يوجدُ ايجابيّاتٌ وسلبيّاتٌ روحيّة لكلّ استراتيجيّة دينية ، أقصدُ التوجّهَ العالميّ للديانتين الإسلامِية والمسيحيّة من جهة ، وتوجّهَ " الأمةِ الواحِدة المُوحدةِ " التي يجبُ عليها أن تكونَ مثلاً يُحتذى به من قبلِ جميع أمم الأرض تبعاً للديانة اليهودية، من جهةٍ أخرى . إنّ أحدَ ايجابيّاتِ النظرة العالميّةِ لأي مُعتقدٍ تكمنُ في تحمّلهِ لمسؤولياتهِ المباشرة تجاه البشريّة جمعاء ; الأمرُ الذي يجعلُني أستذكُرُ ذلكَ المشهدَ المؤثّرَ حينَ أرى ملايينَ الحُجّاجِ يؤدّونَ شعائرَ الحجّ في مكّة ، حجّاجٌ من مُختلفِ الأممِ والشعوب . لكن ، يظلّ هناك تحدٍ قائمٌ أمامَ الدياناتِ ذاتِ النظرةِ العالميّة للبشريّة، إذ يتوجّبُ على تلكَ الدياناتِ أن تُدركَ بأن مسارَها ليسَ المسارَ الوحيدَ والمشروعَ الذي يجبُ على المرءِ اتّباعهُ من أجلِ الوصولِ إلى الله.

ونظراً لأنّ الديانةَ اليهوديّة أنزلَتْ لأمةٍ مُحدّدة فإنها تمتلكُ القدرةَ على استيعابِ حقيقةِ وطبيعةِ الأديانِ الأخرى.
إنني كيهوديّ لا أطمحُ لإعادة بناءَ البشريّةُ انطلاقاً من الصورةِ التي ترسُمُها رؤيتي الدينيّة للبشريّة ، إنني لا أطمحُ لرؤيةِ جميعَ البشرية تعتنقُ اليهوديّة، لذلكَ فإنّني أشعرُ بعظيم الإمتنانِ للدياناتِ الأخرى التي ترسمُ مساراتٍ مُختلفةٍ تقودُ بنهايةِ المطاف إلى الله. حقيقةً ، لقد ساهَمَت الديانتان الإسلاميّة والمسيحيّةُ في نسجِ علاقةٍ بينَ اللهِ وأعدادٍ مهولةٍ من الأرواحِ البشريّة ، تماماً كما حدثَ مع الشعبِ اليهودي في قصصِهِ المُقدّسةِ مع الله. حالياً ، تحاولُ الديانةُ اليهوديّة أن تتقرّبَ من الديانتينِ الهندوسيّة والبوذيّةِ ، إذ يحاولُ أحبارُ اليهودِ وعلماؤُهِم الوصولَ إلى فهمٍ عميقٍ لهاتين الديانتين الهامّتين.

من جانبٍ آخر ، يكمنُ الخطرُ في العقيدةِ القائمة على مبدأ " الأمّةِ الواحدِة " في استغراقِها وهوَسِها بذاتِها ، إذ يوجدُ توجّهٌ لدى بعضِ اليهودِ التقليديينَ المُتشدّدينَ دينياً بتجاهلِ بقيّةِ البشرِية ومشاكلِها ، حيثُ بدأ هذا التوجّهُ بالظهور نتيجةً لما تعرّض لهُ اليهودُ من اضطهادٍ عبر آلافِ السنين ، الأمرُ الذي حذا بالكثير من اليهودِ لاتّباعِ نوعٍ من أساليبَ الحياةِ الانطوائيّةِ بهدفِ حمايةِ أنفسِهم من هذا العالَم . ولكن ، يظلّ هذا التوجّهُ في الديانةَ اليهوديّة والقائمُ على تصوير اليهوديّة على أنّها ديانةٌ ذات عقيدة أرسِلتْ لأمّة مُحدّدة، لا للبشريّة جمعاء ، توجّهاً خاطئاً يُحاولَ تصويرَ اللهِ في صورةِ المُكترثِ لأمر شعبٍ واحد فقط ، لا لأمرِ البشريةِ بأكملِها.

إنه لمنَ المهمّ جداً أن تُدركَ أيها الجارُ العزيزُ بأنّ اليهوديّة ديانةٌ مُنفتحةٌ تتأثرُ بما يحيطُ بها من ظروف خارجيّة ، وهوَ أمرٌ تُثبتهُ زيارةٌ عاديّةٌ لأي شارعٍ من شوارعِ إسرائيلَ التي تتعدّدُ فيها الأعراقُ والأجناسُ البشريّة. كذلك فالديانةُ اليهوديّة تُرحّبُ بمن يريدُ اعتناقَها ، إلا أن بعضَ الطوائف اليهوديّة كاليهود الأرثوذوكس يجعلونَ من إجراءاتِ اعتناقِ الديانة اليهوديّة أمراً في غايةِ الصعوبة ، في حين أنّ إجراءاتِ اعتناقِ اليهوديّة تكونُ أقلّ تعقيداً بالنسبة لطوائفَ يهوديّة أخرى. وعلى أيّ حال ، فبمجرّد قيامِ المرءِ بما يتوجّبُ عليه القيامُ به لاعتناقِ اليهوديّة فإنّ هذا الانسانَ سيُعاملُ كأي يهوديّ آخر ، إذْ يُحظرُ على اليهودِ تذكيرُ غيرهِم من اخوتهِم اليهودِ بأصولهِم قبل اعتناقِ اليهوديّة منعاً لأي محاولةٍ - حتى وإن كانَت مُجرّد محاولةٍ هامشيّة - لتفشّي ظواهر الإقصاءِ والاستثناءِ والتمييز في المجتمعِ الإسرائيلي.

تُجسّدُ شخصيّة راعوث المُؤابية أحدَ أهمّ الرّموزِ والشخصياتِ اليهوديّة التاريخيّة ، والتي لم تكُن يهوديّة الأصلِ ، بل اعتنقَت اليهوديةَ لاحِقاً. وراعوث المؤابيّة هي الجدّة الأولى للملكِ داوود ومؤسِسةَ النهجِ المسياني القائمِ على فكرةِ أنّ المسيحَ المُخلّص سيكونُ من نسل الملكِ داوود ، وفي هذا تذكيرٌ لليهودِ بأنّ العلاقةَ التي تجمعُ بينَ مَن يعتنقُ الديانةَ اليهوديّة والمشيحِ المخلّص قائمةٌ على هذا المبدأ : نحنُ أمّةٌ مُميّزةٌ ، إلا أنّ رؤيَتنا وغايَتنا أمَميّة عالميّة.

وبالرجوعِ إلى سفرِ راعوث ، فقد تضمّنَ إعلانُ الجدّة الأولى للملكِ داوود بكلّ بساطةٍ رغبَتها الصريحةَ باعتناقِ الديانةِ اليهوديّة ، وكانَت تِلكَ الرغبةُ كفيلة بدخولِها للديانةِ اليهوديّة. لقد كان مُجمل ما قالتهُ راعوث حين تحدّثَت مع نعومي - والدة زوجِها - أثناء اعتناقِها لِلديانةِ اليهوديّة : " إنّ أمّتكِ هيَ أمّتي ، وإلهكِ هوَ إلَهي " ، حيثُ يعكُسُ الترتيبُ لهذين الأمرين التي التزمَت بهما راعوث حقيقةً في غاية الأهميّة ; فهذا الترتيبُ لا يوضّحُ نظرة اليهوديّة القديمة لمسألةِ اعتناقِ الديانةِ اليهودية فقط ، بل يوضّح جانباً مُهماً من جوانب الهويّة اليهوديّة أيضاً، فقد أعلنَت راعوث عن ولائِها للأمّةِ اليهوديّة أوّلاً ، ثم امتثالها لعقيدةِ الله ثانياً ، واضِعةً بذلَكَ الأسسَ التي يقومُ عليها مفهومُ " الأمّة اليهودية ".

جاريَ العزيز ، لقد سمِعتُ بعضَ وُجهاتِ النظرِ الفلسطينيّة التي تدّعي بأنّ دولةَ إسرائيلَ تفتقدُ الشرعيّة التاريخيّة نظراً لأن اليهودَ الأشكناز - اليهود من الأصولِ الأوروبيّة - لا ينحدرونَ من أي أصولٍ إسرائيليّة على الإطلاق ، بل ينحدرونَ من قبيلةِ الخزار التركيّة التي عاشَت في العصورِ الوُسطى ، وهيَ قبيلةٌ اعتنقَ شيخُها الديانةَ اليهوديّة برفقةِ العديدِ من أبناءِ قبيلتِه في القرنِ الثامنِ بعدَ الميلاد. لقد دحضَ أغلبُ علماءِ التاريخِ هذه النظرية القائلةَ بأنّ اليهود الاشكنازَ ينحدرون من تلكَ القبيلةِ التركيّ. من جهةٍ أخرى ، فإنني أتساءَلُ كيفَ ينظرُ هؤلاءُ الفلسطينيونَ إلى اليهودِ المزراحيين ، أي اليهودُ الذي يعودون لأصول شرقِ أوسَطيّة ؟

ولكن ، لِنفترضْ جَدَلاً بأن جميعَ اليهودِ الأحياء حاليّاً ينحدرونَ من قبيلةِ الخزار التركيّة ، فإنّ هذا لن يُقدّمَ أو يُؤخّرَ في حقيقةِ كونهم يهوداً بكلّ معنى الكلمة ; فاليهودُ الذين اعتنقوا اليهودية واليهودُ الذين ولدوا يهوداً جميعهُم سواسية من منظور الديانة اليهوديّة ، فمنذ لحظةِ اعتناقِك للديانةِ اليهوديّة والتزامِكَ بما عليكَ الإلتزامُ به تجاهَ أمّتكَ اليهوديّة ، فإن هذا يعني ضمنيّاً أنّك يهوديّ بأثرٍ رجعيّ منذُ نزولِ الديانةِ اليهوديّة ، منذُ اللحظةِ التي ظهرَ فيها أوّل مُعتنِقانِ للديانة اليهوديّة: ابراهيمَ وسارة. وعدا عن هذا كلّه، هُناكَ اعتقادٌ يهوديّ سائدٌ مفادهُ بأنّ روحَ كلّ يهوديّ اعتنقَ الديانةَ اليهوديّة - في أيّ زمنٍ من الأزمان- قَد وقَفَتْ على جبلِ سيناء لاستقبالِ التوراةِ برفقةِ كلّ أبناءِ الشعبِ اليهوديّ.

لقّد عاشَت سارة - زوجَتي - التي نشأت وترعرَت كمسيحيّةٍ تجربةً مُماثلةً لتلكَ التي عاشَتها راعوث عندما اعتَنَقَتْ الديانةَ اليهوديّة ، ففي بدايةِ الأمر أحبّت الشعبَ اليهوديّ - تماماً كما حصلَ مع راعوث عندما أحبّت اليهودَ عبرَ حبّها لرجلٍ يهوديّ واحِد - ، ثمّ أحبّت اللهَ ربّ الشّعبِ اليهوديّ ، ومن ثمّ سلكَت المَسارَ الذي يُسلكهُ اليهودُ للوصولِ إلى الله. وعِندما اعتَنَقَتْ زوجَتي سارة الديانةَ اليهوديّة ، اختارَت على الفور اسم " سارة " ، كونهُ الاسمُ التوراتيّ المُرادِف لاسِمِها ; فما فَعلتهُ سارة زوجَتي كان مُشابهاً لما فَعَلتهُ سارة زوجةُ ابراهيمَ حين قَرّرَت أن تَتّبعَ مساراً جديداً للوصولِ إلى الله في حياتِها.

ونظراً لوجودِ الشعبِ اليهودي على هذه الأرضِ لغاياتٍ إلهيّةٍ ، فقد مَنَحَ هذا الأمرُ صفةً دينيّة للشعبِ اليهوديّ ، إذ يُعدّ الولاءُ للشعبِ اليهوديّ واجباً دينياً تبعاً للديانةِ اليهوديّة. لهذا ، لم يَتردّد اليهودُ الصهاينةُ المتديّنونَ في بناءِ شراكةٍ مع اليهودِ الصهاينةِ العلمانيّينَ ونسج علاقاتٍ معهُم ، كونَهُم يهودٌ يدينونَ بالولاءِ والحبّ لأبناءِ أمّتهِم اليهوديّة ويبذلونَ ما بوسعهِم لحمايتهِ اليهودِ والدفاع عنهُم . وبالنسبةِ لوجهة نظرِ اليهودِ المُتديّنينَ فيما يَخصّ قضيّة التعامُلَ مع اليهود العلمانيّين، فإنّهُم يرونَ فيها شراكةً تؤدي إلى تقويةَ الشّعب اليهوديّ ; الأمرُ الذي يُساهمُ مساهمةً كبيرةً في تحقيقِ الديانةِ اليهوديّة لِغايتِها بنشرِ الرسالةِ الإلهيّة لهذا العالم.

إنّ العلاقةَ المُتداخلةَ بين فكرة " الأمّةِ اليهوديّة " و" الدينِ اليهوديّ " لم تكُن مقبولة إلى حدٍ ما مِن قِبلِ بعضِ المَجموعاتِ اليهوديّة. فعلى سبيل المثال ، قرّرَت إحدى الحركاتُ الدينيّةُ اليهوديّة التي أطلقَت على نفسها" حركةَ الإصلاحِ اليهوديّ " في القرنِ التاسعِ عشرَ اعتبارَ اليهوديّة عقيدةً دينيّةً فقط ، إلا أن تلكَ الحركة غيّرَت من أفكارِها بمرور الوقتِ وصارَت تتبنّى الهويّة اليهوديّة كما هيَ ، تلكَ الهويّة القائمةُ على فكرة الأمّة اليهوديّة والانتماء إلى أرضِ إسرائيلَ معاً.

وفي الجانبِ المُتشدّد من ألوانِ الطيفِ اليهوديّ نجدُ اليهودَ الأرثوذوكس (الحريديم) ، إذ ظهرَت هذهِ الجماعةُ خلالَ القرن التاسعِ عشر في أوروبا كحركةٍ تُعارضُ بشدة أية محاولاتٍ لتحديثِ الديانةِ اليهوديّة ، في حينِ أنّ علاقتهُم بمبدأ " الأمّة اليهودية " كانت علاقةُ مُتأرجحة غيرَ واضحةٍ إلى حدٍ ما. ورغم قبولهِم واعترافِهم لاحِقاً بمبدأ " الأمّة اليهودية " كجزءٍ من هويّتهِم الدينيّة ، إلّا أن هذه الحركة - التي تعدّ منشقّةً عن الديانة اليهوديّة فعليّاً - تضعُ الالتزامَ بممارسةِ الشعائر والعباداتِ الدينيّة اليهوديّة في المقامِ الأوّل ، وتعتبرهُ مُقدّماً على وِحدةِ الأمّةِ اليهوديّة ، مُنسلِخةً بذلكَ عن باقي المُجتمعاتِ اليهوديّة التي تمثّلُ التوجّهَ العام للديانةِ اليهودية.

جاريَ العزيز ، إنّ فكرةَ " شعبِ اللهِ المُختار" لَم تنشأ نتيجةً لرغبةِ اليهودِ في الحصولِ على امتيازاتٍ إلهيّة ، بل رغبةً منهُم في تحمّلِ مزيدٍ من المسؤوليّات ، إذ يُثبتُ التاريخُ اليهوديّ بأنّ هذهِ الفكرة لم تزِد من حجمِ أمجادِ اليهودِ بقدر ما زادَت من حجمِ الأعباءِ المُلقاةِ على عاتقِهم. إنّ الطريقةُ التقليديّة التي نظرَ بها اليهود إلى تاريخِهم اليهوديّ كانت من خلالِ رؤيتهِم لذلكَ التاريخ كقصّة لأمةٍ فشِلَت في الإلتزامِ بما طلبَ الله منهُم الإلتزامَ بهِ على الرغمِ من إثباتِ وجودهِ لهُم ، وهيَ القصّة التي لخصها الكتاب المقدّس اليهوديّ (التّناخ) "كقصةٍ ملحميّة أمَميّةٍ غريبةٍ في تفاصيلِ تَزمّتِها وانتقادِها الدائمِ لأبناءِ الشعبِ الذين كانَ يتوجّبُ عليها أن تحتفيَ بهِم".

ومَعَ ظهور الديانتينِ الإسلاميّة والمسيحيّة، أصبحَ نقدُ الديانةِ اليهوديّة لذاتِها نتيجةً لِفشلِها الروحيّ بمثابة تهديدٍ لمدى مشروعيّة وجودِنا كيهود; الأمرُ الذي يفتحُ الباب على مصراعيهِ ليكونَ مصدراً للتهديداتِ الخارجيّة للديانة اليهوديّة. لقد أصبحَت الديانةُ اليهوديّة مُعتقداً عفا عليه الزمنُ، فيما بدت اليهوديّة كفشلٍ قديمٍ أكلَ الدهرُ عليهِ وشَرب، إلا أنّ اليهودَ نجحوا في تغيير ذلك الواقع وإبعادِ تلك الصفاتِ عن الديانةِ اليهودية من خلال تواجدِهِم في بلدانَ غلبَ عليها طابعُ الحقدِ وكراهيةُ اليهودِ ، وهوَ ما أثبتَ لهُم بأنّ الله لا زالَ مُصِرّاً على المَهمّةِ الروحيّة التي يجبُ على اليهودِ القيامَ بها عبر التاريخ ، إلا أنّ هذه المهمة الروحيّة لن تأخذ مسارَها قبلَ العودةِ إلى أرض إسرائيلَ ، حيثُ سينهضُ اليهودُ مُجدّداً كأمةٍ لها سيادتها الكاملةُ على أرضِها التوراتيّة.

وبالعودةِ إلى فكرةِ شعبِ اللهِ المُختار، فقد حَرّفَ بعضُ اليهودِ هذا المبدأ من خلالِ تحويلهِ مِن أساسٍ لخدمةِ البشرية إلى سببٍ للانفصالِ عنها ، مع الأسفِ الشديد. في الوقتِ نفسهِ ، فقد فتحَ مَبدأ اختيار اللهِ للشعبِ اليهوديّ البابَ على مِصراعيهِ لشعور البعضِ بالغرور والتكبّر انطلاقاً من اعتقادهِم بأنّ مبدأ اختيارِ اللهِ للأمّة اليهوديّة يشكّل مَصدراً قويّاً للّاهوتِ اليهوديّ لتمجيدِ ذاته.

إنّه لأمرٌ سهلٌ على أي شخصٍ يرغبُ في التعمّقِ في الأدبِ الدينيّ اليهودي أن يجدَ أمثلةً على التعصبّ الدينيّ والقوميّ في الديانةِ اليهوديّة ، كما يسهلُ أيضاً ايجادُ العديدِ منَ الأمثلةِ التي تثبتُ وجودَ تسامحٍ دينيّ أيضاً ، فغالبيّةُ محتوى الأدبِ اليهوديّ تزخرُ بمثل هذه الأمثلةِ . بالنسبة لبعضِ اليهود ، فإن الفكرة القائمةَ على أنّ اللهَ خصّ اليهودَ دونَ غيرهِم من الشعوبِ تُعدّ أهمّ من الغايةُ العالميّة الأمميّة للديانةِ اليهوديّة ، غايةُ الشعبِ اليهوديّ في مباركةِ الشعوب والأممِ الأخرى ، بالتالي فقد رافقَ تلكَ الغاية بعضَ المبالغةِ فيما يخصّ مركزيّة الديانة اليهوديّة في تحقّيقِ هذه الغاية.

وفي السياق نفسِهِ فإننا نواجهُ مشكلةً تتمثّلُ في الجانبِ المُعاكسِ لتلكَ النَظرة ، إذ أننا نجدُ عبرَ تتبّعِ التاريخ اليهودي بعضَ اليهودِ الذين كانوا يتطلّعونَ بلهفةٍ زائدة للوصولِ لتلكَ اللحظةِ التي تتحقّقُ فيها الغايةُ العالميّة الأمميّةُ للديانةِ اليهوديّة، مُنفصلينَ بذلكَ عن أبناءِ الأمّة اليهوديّة على اعتبارِ أنّهُم يرغبون في إزالةِ الحدود بينَ البشرِ في هذا الكون الواسع . الأمر الذي يطرحُ سؤالاً مهماً: إذا كانت غايةُ الديانةِ اليهوديّة توحيدَ جميع شعوبِ البشريّة ، فلمَاذا نواصلُ التمسّكَ بهذه الأفكار المتحجّرة الانشقاقيّة الانفصاليّة ؟ لقد مثّل هذا السؤال وجهةَ النّظرِ التي أثارَها وتبنّاها شاؤول ترسوس ، والذي أصبحَ القديس بول فيما بعد.

حقيقةً ، لقد ضاق ذرعُ الكثير من اليهودِ وسئِموا من تلك العصبيّة القبليّة المقيتةِ في الديانةِ اليهوديّة ، ممّا دفعهُم إلى تغييرهويّتهِم الدينية من اليهوديّة إلى الهويّة الماركسيّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، الأمرُ الذي كانت عواقبهُ كارثيّة على اليهودِ أنفُسِهِم .

إنّ التعاملَ معَ الآثار المُترتبةِ على الصراعِ بين فكرة " تميّز الشعبِ اليهوديِ" بما خصّه الله من مميّزات ، وفكرة " الأمميّة والعالميّة في الديانة اليهودية " تعدّ واحدة من أبرز التحديّات التي تواجهُ الشعبَ اليهوديّ حالياً.
فمن جهة ، تتحصّن إحدى هذه الأفكار بداخلِ بعض الجوانبِ المتغطرسةِ من ديانتنا اليهوديّة ، ومن جهةٍ أخرى ، فإن الفكرة الثانية تفتحُ البابَ على مصراعيهِ أمامَ باقي الأمم والشعوبِ لاقتحامِ الديانة اليهوديّة بطريقةٍ تهدّدُ بتلاشي القصّة اليهوديّة بجميعِ مكوّناتِها.

بالنسبة لي ، وعلى الرغمِ من المدّ والجزر في العقيدة اليهوديّة ، تلكَ العقيدةُ التي ازدهرَت رغمَ كلّ ما تعرّضَت له من كرهٍ وعِداءٍ عبرَ مرّ التاريخ ، إلا أنّ استمراريَ بالالتزامِ بهذه العقيدة التي مضى من عمرِها أربعة آلافِ عامٍ هو شرفٌ عظيمٌ ومسؤوليّة كبيرة. إنّ قصة اليهود كانت ولا تزالُ جزءاً مُهماً من قصة البشريّة ، كما أنني أؤمنُ يا جاريَ العزيزُ بأنّ على الانسانيّة أن تُصغيَ لصوت التاريخِ اليهوديّ كجزءٍ مهمٍ من تاريخ البشرية.

جاريَ العزيز، إذا ما تعمّقتَ في هويتي اليهوديّةِ فإنك ستجدُ تعايشاً رائِعاً بينَ فكرة " تميّز الأمّةِ اليهوديّة " وَفكرةِ " الأمميّة والعالميّة في الديانة اليهوديّة " ، إذ تتعايشُ هاتان الفكرتان بداخلي كالتزامَيْنِ وواجبَيْنِ يقّوي أحدهُما مِن وجودِ الآخر.

الرسالةُ الرابعة : الرّوايةُ التاريخيّةُ والوجودُ

جاريَ العزيز ،

تُصادِفُ اليومَ ذكرى استقلالِ دولةِ إسرائيلَ ، وبهذهِ المناسبةِ العظيمةِ تكتسي تلّتي بردائِها المرصّعِ بأكثرِالألوانِ تعبيراً عن الانتماءِ الوطني الإسرائيليّ: الأبيض والأزرق. في هذا اليوم ترى الكثير من الأعلامِ الصغيرة ترفرفُ من نوافذِ السيارات ، حيثُ يتباهى البعضُ بتعليقَ علمينِ لا علمٍ واحدٍ ، فيما ترى العديدَ من الأعلامِ الضخمة ترفرفُ من على شُرفاتِ المنازِل.

لقد لخّصَتْ سبعةُ عقود ماضيّة من عُمرِ استقلالِ دولةِ إسرائيلَ العديدَ من الأحداثِ والتحوّلاتِ التاريخيّة الهامّة ، فخلالَ هذه الحُقبةِ الزمنيّةِ انتقلنا من كونِنا مُجرّدَ شبّانٍ يهود يعملونَ في الزراعةِ مُكرّسينَ - إلى حدٍ ما - جُلّ وقتهُم وجهدهُم للعبادات ، إلى إسرائيليينَ يعيشونَ عصرَ ما بعد الحداثة الذي يتجلّى في أبهى صورهِ في المجمّعاتُ التجاريّة الضخمةُ والتكنولوجيا وعُروضِ " تلفزيون الواقع " . لقَد انتَقلنا من كونِنا مُجتمعاً زراعيّاً فقيراً ذا اقتصادٍ راكدٍ إلى واحدٍ من أهمّ القوى الاقتصاديّة في العالم ، اقتصادٌ يضمّ عدداً هائلاً من شركاتِ التكنولوجيا الإسرائيليّة الحديثة ، فيما انتَقَلنا من نمطِ حياةِ المعبَرات – مناطق الإقامةِ المؤقتةِ شديدة الاكتِظاظ - إلى نمطِ حياة تل أبيبَ وناطحاتِ السّحاب الزجاجيّة الضخمة، ومن كونِنا أكثر المُجتمعاتِ تطبيقاً للمساواة مقارنةً بالمجتمعاتِ الغربية ، من خلالِ الفارقِ البسيطِ بين راتبِ رئيسِ الوزراء الإسرائيلي وراتب عاملِ النظافة الذي ينظّفُ مكتبهُ سابقاً ، إلى واحدٍ من أكثرِ المُجتمعاتِ الغربيّة التي تتباينُ فيها الرواتبُ والأجورُ حاليّاً . انتقلنا من كونِنا دولةَ إسرائيلَ الصّغيرةَ المُوقّرة التي كانَت تتبنّى نمطَ حياةِ " الكيبوتز " الإشتراكيّ ، إلى دولةِ " إسرائيلَ العُظمى " ذات السمعة السيئة بعد تبنّيها سياسة بناءِالمستوطناتٍ في الضفّة الغربيّة.

إن أعظمَ الانجازاتِ الإسرائيليّة تمثّل في تعدادِها السكانيّ الذي تجاوز ثمانيةَ مليون مواطن إسرائيليّ ، فيما يُشكّل تعداد السكان العرب قرابةَ المليوني عربيّ من مجموعِ سكّان إسرائيل ، كما ويعيشُ في إسرائيلَ أكبرُ مجتمعٍ يهوديّ في العالم والذي يضمّ قرابةَ نصفَ سكّانِ اليهودِ في العالم ، وإذا ما استمرّت المؤشّراتُ السكّانية كما هيَ عليهِ حاليّاً ، فإنّ الغالبيةَ العُظمى من يهودِ العالمِ ستكونُ في دولةِ إسرائيل قريباً ، وهوَ أمرٌ يُبرزُ الفارقَ المهولَ بين تعدادِ إسرائيلَ اليوم ، وتعدادِها عند تأسيسها عام 1948 ، إذ كان عددُ مواطني إسرائيلَ آنذاك نصف مليون نسمة فقط.

عندما تعبرُ المروحيّاتُ إسرائيليّة من فوقِ تلّتك ينتابُني شعورٍ بالراحةِ الشديدة ، شعور بوجودِ مَن يُوفّر ليَ الحماية في هذا اليوم بالتحديد ، كونهُ أحدَ أكثرِ الأوقاتِ " إغراءاً " لمَن يَرغبُ بتنفيذِ اعتداءاتٍ ضدّ دولةِ إسرائيل. إلا أنني في اللحظةِ نفسِها أفكّر بك : كَم هوَ مريعٌ ومخيفٌ صوتُ هديرِ تلكَ المروحيّاتِ وهيَ تحلّق فوق بيتك ، بلا شكّ ستشعُرُ أنتَ وأطفالُك بالذعر عند سماعكُم هديرَ تلكَ الطائراتِ ، وهنا تتمثّلُ اللعنةُ في طبيعةِ العلاقةِ القائمةِ بيني وبينِك :
ما يُشعِرُني بالحمايةِ يُشعِرُكَ بالوَهَن ، أمّا يومُ احتفالي بالانتصار فهو يومُ ذكرى هزيمتِك.

إلّا أنّ العكسَ صحيحٌ أيضاً يا جاريَ العزيز، فأحياناً تكونُ الكوارثُ التي تحلّ بي سَبباً لسعادةِ بعضِ جيرانيَ الفلسطينيين; إذ كنتُ أرى الألعابَ الناريّةَ تُضيءُ سماءَ تَـلّـتِكَ ابتهاجاً بما قامَ بهِ حزب اللهِ عندما أطلقَ عشراتِ الصواريخَ باتّجاهِ القرى الإسرائيليّة في الشّمال ، كما رأيتُ الشيءَ نفسهُ عندما أطلقَت حركةُ حماس عشراتَ الصواريخ تجاهَ الأراضي الإسرائيليّة في الجنوبِ .

وفي هذا اليوم المُميّز قمنا أنا وزوجتي سارة بدعوةِ عائلتينا ومجموعةٍ من أصدقائِنا للاحتفالِ بعيد استقلالِ دولةِ إسرائيلَ في منزلِنا ، كنزهةٍ صغيرةٍ في حديقة منزلنا المغطاة بالعشب ، فيما كنا نشاهدُ نفس المُسلسلات الإسرائيليّة الكوميديّة القديمة على شاشةِ التفاز والتي نشاهِدُها في ذكرى يوم الاستقلالِ من كلّ عام . إننا نشعرُ في هذا اليوم بالتحديد بعدمِ وجودِ أي سببٍ يدفعُنا للخروجِ من منزلِنا على الإطلاق ، فهذا هو اليومُ المناسبُ للتعبيرعن حجمِ ابتهاجِ المرءِ وسرورهِ عندما يكونُ في بيتِه.

بالأمسِ حلّت ذكرىً حزينةٌ نستذكرها كل سنة ، وهي " يومُ الذكرى " ، إذ نستذكرُ في اليوم الذي يسبقُ يومَ الاستقلال جنودَنا الذينَ سقطوا في سبيل إقامةِ دولةِ إسرائيل. إنّ هذا التسلسلَ في حلولِ هاتين المناسبتين يعبّر عن مدى الاستقطاب العاطفيّ لدى الأمّة اليهوديّة، كما أنّ هناكَ معنىً آخرَ لاستذكارِ مناسبةٍ حزينةٍ من ثمّ الاحتفال بمناسبةٍ سعيدة ، وهوَ الإصرارُ على عدمِ نسيانِ الثمنِ الباهظِ الذي دفعناهُ في سبيلِ تحقيقِ استقلالِنا.

يظنّ الكثيرونَ بأنّ أشدّ الأوقاتِ حُزناً في هذهِ البلادِ هو ذكرى الهولوكوست - التي استذكرناها الأسبوع الماضي - ، وهذا ليسَ صحيحاً على الإطلاق. إنّ أشدّ اللحظاتِ حُزناً في هذه الدولة هوَ يومُ الذكرى ، كونهُ يعيدُ إلى ذاكرتنا حقيقةً مهمة : أنّ هذه أرضٌ يجبُ على الآباءِ أن يَدفنوا فيها أبناءَهُم أحياناً حتى تظلّ تلكَ الأرضُ على قيدِ الحياة. إننا نستذكرُ في ذكرى الهولوكوست حجمَ الأسى الناجمَ عن عدمِ امتلاكِنا لِلقوّة ، أما في يوم الذكرى فإننا نستذكرُ حجمَ الأسى الناجمَ عن امتلاكِنا للقوّة.

جاريَ العزيز ، إنّ اختفاءَ الكلماتِ اللطيفة المُنمّقة من الخطاباتِ الوطنيّة في يومِ الذكرى هو أمرٌ استثنائيّ يحدثُ فقط في دولةٍ تعيشُ تحتَ تهديدٍ متواصلٍ من جميعِ الجهات . ففي هذا اليوم نبثّ أغاني الحزنَ والرثاءَ ، فيما نبثّ الأفلامَ القصيرةَ على التلفازِ والتي يُركّزُ كلّ منها على قصّة من قصصِ اولئكَ الشّبانِ الذينَ رحلوا قبلَ أوانهِم ، أفلامٌ تتحدّثُ عن قصصِ انسانيّة لا قصصَ وطنية ، كما تعبّر تلكَ الأفلامُ الوثائقيّة عن حبٍ عميقٍ لهذه الأرضِ ، كتعبير انسانيّ يخلو من أيّ تمجيدٍ لتلكَ التضحيّة. صحيحٌ بأننا نستذكرُ هؤلاء الشبّان كونهُم أبطالاً ، إلا أننا نستذكرهُم أيضاً لأنّهُم أبناءٌ وإخوةٌ وأصدقاءُ قبلَ كلّ شيء. عندما يسقطُ جنديّ منّا، فإننا نحيي ذكراهُ وكأنما نحيي ذكرى طفلٍ صغير.

هناكَ بلا شكّ ذكرى أليمةٌ أخرى تتلو احتفالَنا بعيد استقلالِ دولةِ إسرائيل : إنّهُا ذكرى يومِ النكبة الفلسطينيّة ، نكبةِ سنة 1948. إنّها الذكرى الأليمةُ التي لا تعني ذكرى احتلالَ الضفّة الغربيّة وبناءَ المستوطناتِ سنة 1967 ، بل الذكرى التي خلّفَها قيامُ دولةِ إسرائيل ، الذكرى التي شكّلَت المصدرَ الرئيسيّ لشعور الفلسطينيين بالضيمِ والظلمِ نتيجة لقيامِ كيانيَ الوطنيّ ، دولةِ إسرائيل.

ولهذا يا جاريَ العزيز ، قبلَ أن نناقِشَ كيفيّة الوصولِ إلى حلّ الدولتين استناداً إلى حدود 1967، علينا العودةُ أوّلا إلى سنة 1948 ، ولنكونَ واقعيينَ أكثر ،علينا أن نعودَ إلى فترةٍ أبعد قليلاً ، للفترة التي مثّلَت فعلياً أساسَ هذا الصراع ، وأقصد هُنا سنة 1882 ، عندما وصلَت أولى الجماعاتِ الصهيونيّة إلى أرضِ إسرائيلَ عبرَ مرفأ يافا، فالرجوعِ بالزمنِ إلى تلكَ الفترة سيمكُننا من فهمِ الروايتين التاريخيّتين اللّتينِ تنافسانِ بعضَهُما بعضاً ، هاتانِ الروايتانِ اللتين حاولَ الدبلوماسيّون تجاهُلهُما في خضمّ مساعيهِم للبحث عن حلّ لهذا الصراع ; الأمرُ الذي جعلَ تلك المساعي والمحاولاتِ تبوء بالفشل دونَ أدنى شكّ.

جاريَ العزيز ، إنني أنظرُ الآن إلى ألبوم صورٍ يضمّ صوراً للأراضِي المقدّسة ، حيثُ يعودُ زمنُ الصور الموجودةِ في هذا الألبومِ إلى آواخرِ القرنِ التاسع عشر ، حينَ خضعَت هذهِ الأرضُ لحكم العُثمانيين ، بالتحديد فترةَ حُكمِ السلطان التركيّ الراحل عبد الحميد الثاني الذي حكمَ الامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر والذي أمرَ شخصياً بالتقاطِ هذه الصور ، إذ تُجسّدُ تلكُ الصورُ حالة الأراضي المُقدّسةِ قبلَ أن يظهرَ أي وجودٍ صهيونيّ عليها.

وفي هذا الألبومِ صورٌ لبعضِ الأماكنِ المُقدّسةِ التي التُقطَت في أوقاتٍ يبدو وكأنها خارجَ حدود الزمن ، إذ خَلَت تلكَ الصور من المتعبّدينَ والسوّاحِ الذين نراهُم فيها هذه الأيام ، فيما يبدو سُكّانُ القُرى والمدنُ متناثرينَ وكأنّ الفراغَ المُحيطَ بهِم يستحوذُ على حياتِهِم.

إنني أقّلبُ هذه الصورَ من حينٍ لآخر ، في الصور التي تُبيّنُ حالَ العربِ آنذاك ، ففي هذهِ الصورةِ مثلاً مجموعةٌ من النّساءِ اللواتي تَجمّعنَ بالقربِ منَ البئر فيما يَضَعنَ الأباريقَ الفخّارية على رؤوسهِنّ ، وصورةٌ أخرى لرجلٍ عربيّ وامرأةٍ عربيّةٍ يواجهانِ بعضهُما البعض أمامَ حفنةٍ من الصخور ويتحدّثانِ إلى بعضِهما دونَ أن يُدركا وجودَ شخصٍ يتلقطُ صورةً لهُم ، وصورةٌ أخرى لشيخٍ ذو لحيةٍ بيضاءَ يرتدي عمامةً ورداءاً طويلاً فيما تبدوعلى وجهِهِ الابتسامةٌ من بعيد.

وفي جانبٍ آخر مُختلفٍ كُلياً ، أشاهدُ اليهودَ ولسانُ حالهِم يقول بأنّهُم مغلوبٌ على أمرهِم في ظلّ تلكَ الظروف. هؤلاءِ اليهودُ الموجودون في هذا الألبومِ هُم يهودُ "اليشوف القديم" ، إذ عاشَ هؤلاءُ كمجتمعٍ يهوديّ سبقَ وجودُهُم وجودَ المُهاجرينَ الصهاينة على هذه الأرض بوقتٍ طويلٍ ، كونَهُم عاشوا على هذه الأرض لقرونَ طويلةٍ كأقليّة دينيّة. إنني لا أرى في صور اليهودِ أي مظهرٍ من مظاهرِ الفرحِ أو الابتسامة ، ولا تبدو عليهُم أي ملامحَ أو ايماءات تُشعرُكَ بوجودِ حياةٍ سعيدة ، إنني أرى في هذه الصور يهوداً طاعنين في السنّ بلحىً شعثاء وملابسَ رثّة ، فيما يوحي هذا إلى حجم المعاناةِ التي يعانونها وهُم في أرذلِ العمر.

وبكلّ الأحوال ، فكلّ من يَظهرُ في هذهِ الصور تبدو عليهِ ملامحُ الفقر والبُؤسِ، سواءاً كانَ عربيّاً أم يهوديّاً ، إلا أنّ ملامحَ الفقرِ المُدقع تبدو واضحة وضوحَ الشمسِ على ملامح اليهود ، الأمرُ الذي زادَ من سوءِ ظروفِ معيشتهِم . حقيقةً ، فإنني لا أرى أي ملامحَ لحياةٍ طبيعيّةٍ عاشَها اليهودُ في تلكَ الحُقبة ، إنني لا أرى أي يهوديّ يرعى الأغنام أو يفلحُ الأرضَ، بينما يظهرُ اليهودُ في هذه الصور وهُم يصلّونَ أو يقرأونَ في كتبهِم الدينيّة فقط ، كما تخلو تلكَ الصورُ من وجودِ أيّ امرأةٍ يهوديّة. لقد اعتاشَ هؤلاءُ اليهودُ على التبرّعات التي كانَ يُرسلها لهُم يهودُ الشتّات ، فيما أتى بعضُ اليهودِ إلى الأرضِ المقدّسةِ ليموتوا ويُدفنوا فيها.

إنني مُمتنّ كثيراً ليهودِ اليشوفِ كونَهُم واصلوا التواجدَ والعيشَ على هذه الأرض محافظينَ على تلكَ العلاقةِ البديهيّة لليهودِ بأرضِ صهيون، فتشبّثهُم بهذهِ الأرضِ كان بمثابةِ تذكيرٍ بالوعدِ الإلهيّ الذي ينصّ على وجوبِ عودةِ اليهودِ إلى أرضِهِم في نهاية المطاف. في الوقت نفسه ، إنني أتفهّمُ سببَ المعاملةَ المُزرية الذي عاملَ بها الصهاينةُ الأوائلُ يهودَ اليشوف ، فقد هربَ هؤلاءُ الشبانُ تاركينَ خلفَهُم زقاقَ أوروبا الضيّقة التي عاشَ بها اليهود لكي يبنوا حياةً يهوديّة جديدةً قائمةً على زراعةِ الأرضِ التي يملكها اليهودُ في القدس والخليل وصفد ، ليجدوا أنفسهُم عالقينَ في ظروفٍ معيشيّة مشابهةٍ لحياة الغيتوهات الأوروبيّة المُزرية ، حياةٌ يسيطرُ عليها الخوفُ والحذرُ الشديد من كل ما أحاطَ بهم ، فيما عاشَ أولئكَ اليشوف حالةً من الفقر نتيجةً لعدم قيامهم بأي شيء يغيّر من ذلك الحال المُزري. لقد جسّد يهود اليشوف انعكاساً لما سبّبهُ الشتاتُ من تآكلٍ في الحياة اليهوديّة آنذاك ، فحتى اليهودُ الذينَ عاشوا على أرض إسرائيلَ شعروا وكأنّهُم مُقتلَعونَ من جذورهِم.

أمّا الصورةُ الأخيرة في ألبومِ صوري فهي لمجموعةٍ من البحّارة الذينَ يَنقلونَ البضائعَ ويُساعدونَ المسافرينَ من على متنِ السفنِ القادمةِ إلى مرفأ يافا ، حيثُ لا تستطيعُ تلكَ السفن الاقترابَ من المرفأ نتيجةً لتواجدُ الصخورهُناك.
تضمّ هذه المجموعة تسعة رجالٍ ، بعضهُم يرتدونَ القبّعاتِ وهُم واقفونَ على متنِ أحد القواربِ الطويلة بينَما المجاديفُ مرفوعةٌ للأعلى وجاهزةٌ للتجديفِ ، في الوقتِ الذي تقتربُ فيه سفينتان من أولئكَ البحارة . إنني أتخيلُ مجموعةً من أوائلِ المهاجرينَ اليهود على متنِ تلكَ السفينتين ، أتخيلّهُم مُنهَكينَ جداً مما بذلوه من جُهدٍ ليلمَحوا بطرفِ أعينهِم أي جزءٍ من أرضِ وطنهِم الجديد . أتخيّلهُم بعد لحظاتٍ وقَد رسَت سُفنهُم في المرفأ ، فيما سيُقبلُ أولئك البَحارةُ على استقبالِ المُهاجرين ومساعدتهِم في النزول إلى المرفأ بأمان.

جاريَ العزيز ، إنني أتأملّ بعمقٍ هذه الصورة ، لا لِكونها ذات قيمةٍ فنّية عاليةٍ ، إذ بالكاد تبدو الوجوهُ واضحةً في هذه الصورة المُملّةِ ، بَل لأنها أكثرُ صورةٍ مؤثرةٍ في هذا الألبوم. ولأكونَ دقيقاً أكثر، ما يجعلُ هذه الصورةُ مؤثرةً هوَ أنّ أولئكَ الأشخاصُ الموجودينَ فيها لا يَعلمونَ بأنّهُم في لحظةِ تحوّلٍ عظيمةٍ ستقلبُ حياتَهم رأساً على عقِب إلى الأبد.

لقد وصَلَ أولئكَ الشبّانُ الصهاينةُ إلى هذه الأرض حاملينَ معهُم روايةً تاريخيّة قويّة ، روايةٌ تستندُ إلى أربعةِ آلافِ سنةٍ من تعلّقِ شعبِهِم اليهوديّ بهذه الأرض. لقَد جاؤوا إلى هذهِ الأرض ليكونوا مُعمّريها وفلّاحيها وَرُعاتَها ، خلافاً لما كانَ عليه اليهود الذين ظهروا في صورةِ السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، فيما تمثّلَ نجاحهُم الحقيقيّ في توطين الشعب اليهوديّ ليربّوا جيلاً بعد جيلٍ من اليهود كسكّانٍ أصليينَ لهذه البلاد.

ولطالما سمعتُ من العديدِ من الفلسطينيينَ بأنّه " مثلما جاءَ العثمانيّونَ ورحلوا عن هذهِ الأرض ، ثم جاءَ الانجليزُ ورحلوا عن هذه الأرض ، فإنّهُ سيأتي اليومُ الذي يَرحلُ فيه الصهاينةُ عن هذه الأرض أيضاً ". حقيقةً ، فإنّ تشبيهَ الصهاينةِ بالعثمانيينَ والأتراكِ فيه تجاهلٌ لهذا الانجاز الصهيونيّ المهم ; إذ لَم يؤسّس هؤلاءُ الغُزاةُ مُجتمعاً مُزدَهِراً مثلما فعلَ الصهاينة ، وعدا عن ذلك كلّه ، فإن الأتراكَ والانجليزَ لم يؤسّسوا دولة ذاتِ سيادةٍ على هذه الأرض ، فهُم بنهايةِ المطافِ عادوا إلى أوطانِهِم التي جاؤوا منها ، لذلكَ أتمنى منكَ أن تتَفهمَ هذهِ القضيّة جيّداً يا جاريَ العزيز: لقَد نجحَ الصهاينة في تحقيق ما فَشلَ الصليبيّونَ والعثمانيّونَ والانجليزُ في تحقيقِه لسببٍ واحد ، وهوَ أنّ الصهاينةَ لم يأتوا إلى هذه البلاد ، بَل عادوا إليها !

بطبيعةِ الحال ، وبشكلٍ مأساوي مؤسفٍ ، فقد حاولَ الجانبان على طرفي هذا الصراع في مُختلفِ مراحلِهِ تجاهلَ شرعيّة الهويّة الوطنيّة لبعضِهما البعض ، فيما حاول كلاهُما ايجاد مسوّغات تُثبتُ عدم وجودَ الطرف الآخر على أرضِ الواقعِ نهائيّاً. لقد واصلَ بعض اليهودِ سعيَهُم لإثباتِ أنّ الهويّة الوطنيّة الفلسطينيّة هيَ ضربٌ من ضروبِ الخيال ، وبأنّ الشعبَ الفلسطينيّ هوَ شعبٌ مُصطَنَع، وهو أمرٌ صحيحٌ إلى حدٍ ما ; فنحنُ شعبٌ مُصطَنَع أيضاً ، ولنكونَ واقعيّين أكثر، فإنّ كل الهوياتَ الوطنيّة - بحسبِ تعريفها - مُصطنَعَة ، فالهويّة الوطنية تعني وجودَ مجموعةٍ من الأشخاصِ الذينَ قرّروا في لحظةٍ معينة بأنّ الأمورَ التي تجمعُ بينَهُم أكثر من الأمور التي تفرّقهُم ، لذلك قرّروا أن يطلقوا على نفسِهِم لقبَ أمّة تتشاركُ نفسَ اللغةِ والذكرياتِ والتاريخَ المُتطوّر باستمرار.

إنّ ظهورَ أمّة مُعيّنةٍ بينَ الأمَمِ هيَ عمليّة ذاتيّة مُتأصلة وراسِخة ، الأمرُ الذي تُدلّلُ عليه إحدى الأغاني العبريّة القديمة التي تتحدثُ عن بداياتِ ظهورِ الحركة الصهيونيّة الحديثة : " فجأةً يستيقظُ شخصٌ ما صباحاً ، فيشعرُ وكأنّهُ أمّة بأسرها ، ثمّ يَمضي قُدُماً ..". صراحةً ، فأنا لا أعرفُ أي وصفٍ أدقّ ولا أفضلَ من هذا الوصفِ لميلادِ أيّ أمّة.

جاريَ العزيز ، يتوجّبُ علينا أن نحترمَ حقوقَ بعضِنا البعضِ في سردِ روايتنا التاريخيّة الخاصّة بنا ، وهذا أحدُ الأسبابِ التي تجعلُني أكتبُ إليك : أريدُ أن أحكي لكَ حكايتي ، لا حِكاياتَك ، لكن إن رغبتَ بالردّ علي ما أكتبهُ هُنا - وهذا ما آملُه مُنك - فإنّ هذا سيساعدُني كثيراً على قراءةِ فهمِكَ لتاريخِك . إنني أحترمُ حقّكَ في التعريفِ عن ذاتك ، وأنا أصرّ على حقّي بالتعريف عن ذاتي أيضاً ، إذ أنّ احترامنا المُتبادل لحقوق بعضنا في سرد روايتِنا التاريخيّة هوَ ما سيَعبّدُ الطريق نحو تحقيقِ السّلام بيننا.

لقد حاولتُ أن أفهَم مصدراً من مصادرِ قوّة الهويّة الوطنيّة الفلسطينيّة خلالَ خدمتي كجنديّ إسرائيليّ أثناء الانتفاضة الأولى في الضفّة وقطاع غزّة ، حينَ واجهتُ بالسلاحِ الشبّانَ الفلسطينيينَ الذي كانوا يرشقونَ الجنودَ بالحجارة مدافعينَ عنَ شعبِهِم ، وهوَ أمرٌ احترمتهُ جدّاً في خصمٍ يتحلّى بروحِ المنافسة والتحدّي ، وبرأيي ، لو كنتُ أنا مكانهُم فإنّني سأقومُ بالشيء نفسِه أيضاً.

لقد مثّلَت الانتفاضةُ الأولى فترةً زمنيّة أدركَ فيها الإسرائيليونَ خطأهُم الفادِحَ في إنكار حقّ الفلسطينيين بالتعريفِ عن أنفسِهِم كشعبٍ فلسطيني ; الأمرُ الذي دفعَ بغالبية الإسرائيليينَ للإلتفافِ حولَ حلّ الدولتين ، وهوَ - بالمناسبةِ - الحلّ الذي عارضتهُ الأقليّة التي كانت تنتمي لليسارِ الإسرائيليّ المُتشدّد حينَها ، لدرجةٍ أصبحَ فيها " حقّ الفلسطينيينَ في تقرير مصيرِهِم " جزءاً من التوجّه العام للخطاب الإسرائيلي بشكلٍ عام ، بالرغم من تجاهلِ الأحزاب السياسيّة الفلسطينية - بدءاً من فتح وصولاً إلى حماس - إضافةً إلى الأمتين العربيّة والإسلاميّة لحقّ الشعب اليهوديّ في تقرير مصيرِهِ منذ بدايةِ هذا الصراع.

لقد كنا نتفهّم هذا الرفضَ في بدايةِ الأمر ، كونَ اليهود قد عاشوا لقرونٍ عديدةٍ تحت الحكمِ الإسلاميّ كأقلّيةٍ دينية ، فلماذا يجبُ على المسلمينَ القبولَ بهذا المفهومِ الجديد الذي جاءَ به اليهود في القرن التاسع عشر كأمةٍ مستقلةٍ بحدّ ذاتِها؟ فعلياً ، لقَد بُنيت هذه القناعةُ لدى المسلمين اعتماداً على خطأ جسيمٍ في قراءةِ مفهومِ وطريقةِ تعريفِ اليهودِ عَن أنفسهِم منذُ الأزلِ ، مُتجاهلينَ تعريفَ اليهود لأنفسهِم على أنّهُم أمةٌ واحدة ذات عقيدةٍ محدّدة. لقد عاشَ اليهودُ كأقليّة دينيّة نتيجةً للظروفِ التي أرغمتهُم على العيش كأقليّة ، كما أنّهُم لم يتوقفوا للحظةٍ عن ترقّبِ ذلكَ اليومِ الذي سيستعيدونَ فيه سيادتهُم كأمةٍ لها سيادتُها الخاصّة بها، حيثُ جسّد هذا الطموحُ جوهرَ العقيدةِ الدينيّة لليهود.

وبالعودة إلى بداياتِ هذا الصراع ، فقد كانت هذهِ الأرضُ خاليةً إلى حدٍ ما من السكان ، وهوَ الانطباعُ الذي تبادرَ إلى مخيّلتي فورَ مشاهدتُي لصورَ هذه الأرضِ خلالَ فترةِ حكمِ السلطان التركي عبد الحميد الثاني ; الأمرُ الذي أكدتهُ إحصائيات تلكَ الحقبة الزمنيّة أيضاً. لقد عاشَ على هذه الأرض قرابةُ النصف مليون نسمة في أواخر القرن التاسع عشر ، فيما كانت الغالبيّة العُظمى منهُم من السكان العرب ، فيما يعيشُ الآنَ على بقعةِ الأرض المُمتدّة من النهر إلى البحر قرابة 13 مليون نسمة ما بينَ عربٍ ويهود. وحتى معَ النمو المضطردِ والزيادة السكانيّة في كلا المجتمعين العربي واليهودي ، لا زالَ بإمكانِ هذه الأرضِ أن تستوعبَ أبناءَ الأمتينِ معاً.

لقَد كانَت نيّة الصهاينة وغايتهُم إعادة توطينِ اليهود، لا الإستحواذَ على أراضي الفلسطينيين أو سلبِ ملكيّتها، فحتى أكثرُ القادة الصهاينةِ تطرّفاً فيما يخصّ قضيّة الأغلبية اليهودية والسيادة على الأرض زئيف جوبوتنسكي - والذي عاش في الفترة التي سبقَت قيامَ إسرائيل - كانَ قد عبّر عن موافقتهِ على وجودِ أقليّة ذات عددٍ كبيرٍ من السكّان العرب في الدولةِ المستقبليّة القادمة ،إذ وضّح زئيف خلالَ كتاباتِهِ بأنّ هذهِ الأقليّة العربيّة ستتمتّع بحقوقٍ متساويّة مع السكّان اليهود.

جاريَ العزيز ، لطالَما تبادرَ إلى ذهني هذا السؤالُ المحيّر :هَل كانَت المواجهةُ بيننا أمرا حتميّاً لا مفرّ منه ؟

على ضوءِ الرواية التاريخيّة لكلا الجانبين واحتياجاتهِما آنذاك ، فقد كانَ التعايشُ - بأثرٍ رجعيّ - شبه مستحيل بين العربِ واليهود ، فخلالَ ثلاثينياتِ القرن المُنصرم ، حاولَ القادةُ الفلسطينيون وزعماءُ الحركة الصهيونيّة ـــخلفَ الكواليس - الوصولَ إلى حلٍ يُرضي جميعَ الأطراف ، إلّا أنهُ في الوقتِ الذي كان التوجّهُ العامّ للحركةِ الصهيونيّة يدعمُ حلّ " دولتين لِشعبين "، كان التوجّه العامُ للفلسطينيين رافضاً لفكرةٍ أي سيادةٍ يهوديّةٍ على أي جزءٍ من هذه الأرض، مهما بلغَت مساحةُ تلكَ الأرضِ من صِغر.

لقد كانَت الهجراتُ اليهوديّة إحدى أهمّ القضايا المركزيّة في هذا الصراع، إذ احتاجَ اليهودُ إلى إعادةِ بناءِ أنفسهِم كغالبيّة سكانيّة ذاتِ سيادةٍ على جزءٍ من هذه الأرض على الأقل ، الأمرُ الذي استَدعى جلبَ أعدادٍ كبيرةٍ من المهاجرينَ اليهود. في الوقت ذاته ، بذلَ الفلسطينيونَ قصارى جهدهِم لمنعِ تحويلِ الواقع السكاني الفلسطينيّ من أغلبيّة سكانيّة إلى أقليّةٍ سكانيّة على أي جزءٍ من هذه الأرض ; الأمر الذي يُفسّرُ محاولاتِهُم الحثيثة لوقفَ تدفّقِ الهجراتِ اليهوديّة .

وفي الفترة ذاتها، اندلعَ صراعٌ آخر نتيجةَ لتعارضٍ في المصالحِ الأساسيّة فيما يخصّ قضيّة " العمالةِ العبريّة " ، أحدُ مباديء الاشتراكيّة الصهيونيّة التي تهدفُ إلى تشجيعِ الشُبّانِ اليهود على تبنّي نظامِ حياةٍ قائمٍ على امتهانِ الحِرفِ والأشغالِ اليدويّة. حقيقة فقد غلبَ الطابع الاشتراكي على التوجّهُ العام للحركةِ لصهيونيّة آنذاك، مع وجودِ توجّه يساريّ متطرفٍ إلى حدٍ ما. وبالعودة إلى الأيديولوجيّة الصهيونيّة الاشتراكيّة القديمة ، فقد كانت الحياةُ اليهوديّة في المنفى فاسدةً في عدة نواحٍ ، خاصة من الناحية الاقتصادية. لقَد مُنعَ اليهودُ في الشتّاتِ من تملّكِ الأراضي والعملِ فيها كمزارعين ، لذلكَ تم أقصاؤهُم إلى الطبقاتِ المُهمّشة اقتصاديّا . لهذا، ومن وجهةِ نظر الاشتراكيينَ الصهاينة ، فإن تعافي الأمّة اليهوديّة يتطلّبُ تحويلَ اليهودِ من طبقة تُجّارَ ومثقّفين يحصلونَ على قوتِ يومهِم من الأعمال الأدبية والمعنويّة إلى فلّاحينَ يشكّلونَ طبقة كادِحة في المُجتمع الإسرائيليّ.

وبحسبِ اعتقادِ الصهيونيّة الاشتراكيّة ، فإن الطريقة الوحيدةَ لبناءِ مُجتمعٍ إسرائيليّ مُكتفٍ ذاتيّاً على أرضِ إسرائيلَ هيَ خلقُ طبقةٌ بروليتاريا كادِحة تهدفُ إلى إلغاءِ الطبقيّة في المجتمعِ الإسرائيلي مَهما كلّفَ الثمن ، تلكَ الطبقيّة التي يعيشُ فيها اليهودُ كَمُدراء ، فيما يعيشُ فيهُ العربُ عمّالاً كادحين ، مما يعني وجوبَ تغييرِ هذا الواقع بشكلٍ كلّي.

ومَع هذا ، فقَد واجهَ الصهاينةُ الاشتراكيّون الأوائلُ فور وصولهِم إلى أرضِ إسرائيلَ في بداياتِ القرنِ العشرين واقِعاً مريراً نتيجةٍ لشعورهِم بشعورَينِ مُختلِفَين في الوقتِ نفسِه : الخوفُ والعار. لقد وجدوا واقعاً خلقهُ الصهاينةُ غير الاشتراكيينَ الذين وصلوا إلى أرض إسرائيلَ قبلَ وصول الإشتراكيّينَ إليها خلال موجة الهجرة الصهيونيّة الأولى عامَ 1882 ، حيثَ أسسّ هؤلاءُ قرىً زراعيةً تشغّلُ المُزارعينَ العربَ كعمالةٍ رخيصةٍ قليلةِ التكلفة، وهوَ واقعٌ طرحَ سؤالاً جوهرياً مثّل هاجِساً للصهاينة الإشتراكيين : كيفَ منَ المُمكن أن تقومُ دولة يهوديّة بينما تعتمدُ هذه الدولة اعتماداً كلّياً على العربِ الموجودينَ على هذه الأرض؟ بمعنى آخر، كيفَ ستقوم تلكَ الدولةُ اليهوديّة وهي تعتمدُ بالأساس على أناسٍ لا يرغبون بوجودِ اليهودِ في هذهِ المنطقة؟

ومن وجهةِ نظرِ الصهاينةِ الاشتراكيين ، فإن المستقبلَ القريبَ للدولةِ اليهوديّة يعتمدُ اعتماداً كليّاً على خلقِ طبقةٍ يهوديّة عاملة ، مِمّا دفعَ هؤلاءِ الشبّانِ الاشتراكيّينَ إلى تنظيم صفوفِهم من خلال تأسيس اتّحادٍ للعمّال اليهود ، فيما بدأوا يُنافسونَ العربَ في أعمال الزراعة والفلاحة. حقيقةً ، لم تكُن غايتهُم حينها تجاهُلَ عملِ العربِ في الحقولِ الزراعيّة، بل كانَ هدفهُم إجبارُ اليهودِ على العملِ ، مما أدى بالنهايةِ إلي ظهورُ طبقةٍ يهوديّة عاملة على حسابِ العُمّال العرب.

لقَد شكّلَت " العمالةُ العبريّة " طبقةً من العمالِ المثقفين المُتنوّرينَ ، كونها كشفَت عن طبيعة الخيارات المُستحيلة التي ستواجهُ إسرائيل مُستقبلاً، والتي تتطلّبُ من إسرائيلَ التخلّي عن المنهجِ الإشتراكي إذا ما أرادَت السيطرة على العمالة العربية ، إذ ستخلقُ إسرائيلُ جوّا من المنافسةِ الشديدة بين العربِ واليهودِ في سوقِ العمَلِ إذا ما أصرّت على تبنّي النهجَ الاشتراكيّ.

في الوقت نفسهِ ، مثّلَت الأرضُ أكبرَ مصدرٍ للخلافات بين الشعبين العربيّ واليهوديّ ، إلّا أنه وبالرجوعِ إلى فترةِ حكم العثمانيين والإنجليز لهذه الأرض ، سنجدُ أنّ اليهودَ يمتلكونَ أوراقاً ومُستنداتٍ تُثبتُ ملكيّتهُم لكل دونمٍ من الأراضي التي سكنَها اليهودُ خلال تلك الفترة الزمنيّة ; إذ تثبتُ تلكَ الأوراقُ والمستنداتُ بما لا يدعُ مجالاً للشكّ بأنهُم دفعوا ثمن كل شبرٍ تملّكوه في تلك الفترة. حقيقةً ، لم تكُن هناكَ أي مُصادرةٍ للأرض من قبلِ اليهود خلال تلكَ المرحلةِ الحاسمة التي كان يطمحُ اليهود من خلالِها إلى خلقِ وجودٍ يهوديّ فعليّ على هذه الأرض ، إذ قامَت المُنظماتُ الصهيونيّة بشراءِ الأراضي من أي شخصٍ كان مخوّلاً ببيع الأرضِ آنذاك، وهوَ الأمر الذي يوضّحُ الإشكالَ الذي حدثَ في قضيّة أملاكِ الغائبين.

وقد وُجدَت في تلكَ الفترة أيضاً بعضُ الأراضي المهجورةُ التي لا تصلحُ للسكن إطلاقاً ، إذ كانَت تلكَ الأراضي مرتعاً للبكتيريا نظراً لوجودِ المُستنقعات فيها ، أو عبارةً عن تجمّعاتٍ صخرية تجعلُ من السكن فيها أمراً في قمّة الصعوبة ، إلا أنّهُ ورغم عدم صلاحية تلك الأراضي للسكَنِ ، فقد دفعَ اليهودُ مبالغَ باهظة في سبيل تملّكِها ، وهو الأمر الذي تثبتهُ إحصائياتُ تلكَ الفترة ; إذ ارتفعت أسعارُ الأراضي بنسبة 5000 بالمئة خلال الفترةِ الممتدّة ما بين 1910 و 1944 ; وهو ما يُعزى بشكلٍ رئيسيّ إلى موجة شراء الأراضي من قبلِ الصهاينة. وعلى أي حال ، فإنّ إصرارَ اليهود وعزيمتهُم قد حوّل تلكَ المناطق المهجورة إلى حقولٍ زراعيّة وحدائقَ خضراء رائعة.

لقَد سُكِنَت بعضُ تلكَ الأراضي المُصنّفة تحت بند " أملاكِ الغائبين " مِن قِبلِ الفلاحينَ العرب الذينَ عملوا فيها طوالَ حياتِهم رغم عدم ملكيّتهم لها ، بالتالي فقد جرى إخلاؤهُم منها بعد أن قام اليهودُ بشرائِها من أصحابِها الأَصليين مع منح أولئكَ الفلاحين بعضَ التعويضاتِ الماليّة ; وهوَ الأمرُ الذي عمّقُ من سخرية الواقع آنذاك ; فالاشتراكيونَ المُتطرّفون الذين يدعون إلى " تحقيقِ المساواةِ بينَ جميع البشرِ" هُم من قاموا بإخلاءِ العربِ من تلكَ الأراضي ! لقَد كانَ هذا مشهداً آخر من المشاهد المُحزنة التي شهدناها آنذاك ، مشهدٌ ينظرُ فيهِ كلّ جانبٍ إلى الآخر على أنهُ عقبةٌ تقفُ في طريقِ احتياجاتِه.

جاريَ العزيز ، بينما أتدبّرُ وأتفكرُ في في تاريخِنا يتملّكني شعورٌ بالفرح من جهة ، وشعورٌ بالحزنِ العميقِ من جهةٍ أخرى ، إذ تُفرحُني قِرائتي عن أولئكَ الأبطال الصغار - الذين بالكاد تجاوزوا فترةَ المراهقة - وهُم يُضحّون بأجملِ سنين حياتِهم في سبيل فلاحةِ تلك الأرضِ وتهيئتِها لعودةِ الأمّة اليهوديّة إليها. في الوقتِ نفسِه ، ينتابُني الشعورُ بالحزنِ العميق والأسى الشديدِ على ما حلّ بشعبك ، ذلكَ الشعبُ الذي ازدادَ شقاؤهُ وبؤسهُ تدريجياً ، بدءاً من فترة حكمِ السلطان عبد الحميد الثاني - كما صوّرتها صورُ ألبومي المُلتقطةُ آنذاك - وصولاً إلى الفترة التي بلغَ فيها الصراع بيننا ذروتهُ سنة 1948 ; الأمر الذي أدّى إلى تدمير شَعبكَ واقتلاعهِ من أرضه.

كذلك يا جاري العزيزُ فإنني أشعرُ بالحزنِ والأسى على حالي وحالِك ، فمثلما ضاعَت فرصةُ تحقيقِ حلّ الدولتينِ سنة 1947 ، فإننا أيضاً نبدو وكأننا عالقونَ في منطقٍ متناقضٍ من الصراع الوجوديّ ; فكلّما مرّ الوقتُ ، كلّما أضافَ كل جيلٍ من الأجيال المُتعاقبةِ مَقداراً من المرارةِ والضيمِ المتبادلِ الذي يزيدُ من تعقيدِ هذا الصراع.

أحياناً أمرُ بأوقاتٍ لا أطيقُ فيها هذا الخلاف القائمَ بيننا، إذ يبدو لي الأمر وكأنّ أيّ حُجّةٍ أو وجهةِ نظرٍ يتبناها أحدُنا حولَ التاريخ والهويّة والسياسة لها حجةٌ ووجهةُ نظرٍ مُقابلةٌ على الطرفِ الآخر . لطالما سألتُ نفسي كم من وقتٍ ذهبَ سُدىً وكَم استنزفنا من جهودٍ في خِضمّ محاولاتِنا لإثباتَ عدالةِ حُجَجنا ومزاعِمنا من جهة ، وعدم صحّة حججِ ومزاعمِ الطرفِ الآخر من جهةٍ آخرى؟ وإلى متى سيظلُ العالم مُنشغِلاً بِصراعِنا الذي يبدو كجولةِ ملاكمةٍ أزليّة؟ إنّ هذا السؤالَ يُذكرني بمؤرّخٍ أرمنيّ أعرفهُ ، حيثُ بذلَ هذا المؤرخُ جهوداً مُضنية في سبيلِ الكتابةِ عن مذابح الأرمنِ حتى طفحَ به الكيلُ من عبثيّة جهودهِ التي تذهبُ سدىً نتيجةً لعدمِ اعترافِ الأتراك بالمذابحِ التي اقترفوها بحقّ الأرمَن حتى الآن. لقد عبّر لي عن مدى شعورهِ بالذلّ والهوانِ مما يتعرّضُ له مِن قمع ثقافيّ لإخمادِ صوتهِ ، إذ كم عليهَ أن يندُبَ بعدُ على تلكَ الكُتبِ التي لم يتمكّن من كتابتها حتى الآن نتيجةً للخلافاتِ بين الأرمن أنفسهِم من جهة ، ولقمع الأتراك من جهة أخرى؟

لذلك ، فإنني أنا الآخرُ أشعرُ بنفسِ الشعور ، أشعرُ بأنني مُستنزَفٌ في ظلّ هذا الجدلِ العقيم القائم بيننا ، إلا أنني مُصرٌ على الاستمرارِ وعدم الاستسلامِ لأن شرعيّة الروايةِ اليهوديّة على المِحكّ ، ممّا يُشكّلُ خطراً مُحدِقاً بجوهرَ الوجودِ اليهوديّ على هذه الأرض.

جاريَ العزيز ، إنني أعَرّفُ اليهودَ بهذه الطريقة: نحنُ قصّةٌ نحكيها لأنفُسِنا عن ماهيّتنا التي نعتقدُ بأنّها تنطبقُ علينا ، وهذا ما يجعلُ من " سِدر عيد الفصح اليهوديّ " أحدَ أهمّ الطقوسِ اليهوديّة الأساسيّة التي يُحافظُ عليها ويلتزمُ بها الغالبيةُ العظمى من اليهود - بغضَ النظر عن درجةِ تديّنهِم - كونها تحكي حكايةَ أصولِنا كأمةٍ يهوديّة عريقةٍ . إنني يا جاريَ العزيزُ أتطلّعُ بلهفةٍ شديدةٍ لذلكَ الوقتِ الذي سَنُركّزُ فيه على مُستقبلِنا المُشتركِ على هذه الأرض عِوَضاً عن استنزافِ بعضنا البعض في الجدلِ العقيمِ حولَ ماضينا المأساويّ وتجاربِنا المروّعةِ على كلا الجانبين.

وبالعودة إلى التاريخِ مرةً أخرى ، فَقد بدأت الحربُ ضدّ الحركةِ الصهيونيّة جديّاً بعدَ انتهاءِ الحربِ العالمية الأولى ، وكيهوديّ كان يحاولُ تثبيتَ وجودهِ على هذه الأرض ، فقد واجهَ العربُ محاولاتي تلكَ بعنفٍ مُتزايدٍ مراراً وتِكراراً، إذ انتقلت المجازرُ التي كانَت تُرتكَبُ ضدّ اليهودِ من روسيا القيصريّة إلى أرضِ فلسطين ، والتي كان أشدّها دمويةً مذبحة سنة 1929 في مدينة الخليل المقدّسة ; حيثُ قُتل في هذه المجزرة 69 يهوديّا مدنياً من يهودِ اليشاف المُتديّنين، فيما كانوا عُزّلَ من أي سلاح عندما هاجمهُم حَشدٌ من العربِ فقتلوهُم وقطّعوهُم إرَباً. في الوقتِ نفسه ، وأثناء تلكَ المجزرة ، فقَد أنقذت مجموعةٍ من العربِ قرابة الأربعمئةِ يهوديّ كانوا قد احتموا بالعربِ حينها فوّفروا لهُم الحماية والأمان.

لقد مثّلَ هذا الحدثُ نقطة تحوّلَ مهمّةٍ في العقليّة الصهيونيّة ، إذ - قبلَ هذه المجزرة - كانَ يعتقدُ الكثيرُ منَ الصهاينةُ بوجودِ إمكانيّةٍ للتعايش مع العربِ حتى وإن كانَت على المدى البعيد ، إلا أنّهُ وبعدَ وقوعِ هذه المجزرة فقَد قرّرَ ديفيد بنغوريون وعددٌ آخر من قادة الحركة الصهيونيّة الاستعدادَ لحربٍ طويلةِ الأمدِ مع العربِ.

وفي غضون ذلك ، فقد تصاعدَت التهديداتُ التي تُهدّدُ بقاءَ قرابة المليونِ يهوديّ في العالم العربيّ ، وخلالَ تلكَ الفترة أيضاً أمضى أحدُ أبرزِ الزعماءِ الفلسطينيين ، الحاج أمين الحسيني ، وقتهُ في ضيافةِ أدولف هتلِر في برلين مُخاطباً العالم الإسلاميّ بهدف إقناعهِم بضرورة التحالفِ مع النازيين من جهة ، وإقناعِ النازيينَ بضرورةِ توسيع رقعة الإبادة الجماعيّة لليهود من أوروبا لتمتدّ إلى الشرق الأوسط من جهةٍ أخرى.

وفي سنة 1947 ، وخلال إحدى المُقابلاتِ الصحفيّة مع الأمين العام لجامعة الدول العربية آنذاك عزام باشا ، فقد حذّرَ اليهود من اقامةِ دولةٍ يهوديّة قائلاً : " آملُ ألّا يَجُرّنا اليهودُ إلى حربٍ معهُم ، لأنها إذا ما اندلعَت فإنها ستكونُ حربَ إبادةٍ ومجزرةً دمويّةً مماثلة لمجازرِ التتار والصليبيين " . وعلى أي حال ، فقد تحدّث عزام باشا بلغةٍ يبدوعليها الأسف لحدوث تلكَ المجازر – فيما لو حدثَت - ، في حينَ أنّ العديد من القادةِ والزعماءِ العرب قد تحدّثوا بلغة توحي بترقّبهُم ولهفتِهم لتلكَ اللحظةِ التي يتمّ فيها إبادة اليهودِ.

لقَد بَدأتْ المرحلة النهائيّةُ من العداء الموجّه ضد الحركة الصهيونيّة في التاسع والعشرين من تشرين الثاني سنة 1947 ، حينَ صوّتَت الأممُ المتحدةُ من خلال دورةِ جمعيّتها العامّة على قرار اقامةِ دولتين مُستقلّتين على أرض فلسطين، دولة عربيّة وأخرى يهوديّة ، وذلكَ حينُ قوبلَ هذا القرارُ - المعروفُ بقرار التقسيم - بترحيبِ وموافقةِ الغالبيّة العظمى من قادةِ الحركة الصهيونية ، فيما قوبِلَ بالرفضِ الشديد من قبل الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة ، مُعلنةً بذلكَ حرباً على التواجدِ اليهوديّ على تلكَ الأرض. وبعدَ يومٍ واحدٍ من قرار التقسيمِ تعرّضَ اليهودُ للهجومِ من قبلِ الفلسطينيين في مُختلفِ أنحاء البلاد ، فيما تدخّلَت الجيوشُ العربيّة بعد 6 أشهرٍ من الإعلانِ عن قيام دولة إسرائيل ، إذ شنّت حرباً على إسرائيلَ بنيّةِ القضاءِ على تلكَ الدولة اليهوديّة في لحظة ميلادها.

لقَد لخّص محمود عبّاس مُجملَ هذه الأحداث التي وقعَت آنذاك من خلالِ مقالةٍ نشرَها في صحيفةِ النيويورك تايمز سنة 2011 ، إذ كتبَ عبّاس : "بعد أن صوّتَت الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة على قرار التقسيم ، قامَت العصاباتُ الصهيونيّة بتهجيرِ الفلسطينيينَ العربِ بهدفِ ضمانِ وجودِ أغلبيّة يهوديّة في الدولة اليهوديّة المُستقبليّة ، ممّا دفعَ بالدولِ العربيّة إلى التدخّل ، فاندلعَت الحربُ مسببةً بذلكَ المزيد منَ التشريدِ والتهجير ...".

جاريَ العزيز، يستشيطُ الإسرائيليّونَ غضباً عندما يَقرأونَ كلماتِ محمودعبّاس تِلكْ، فيما يتملّكهُم الفضولُ لمعرفة ردّهِ على هذه الأسئلة : ماذا عن قبولِ الحركةِ الصهيونيّةِ لقرار التقسيم يا سيّد عباس؟ وماذا عن رفضِ الفلسطينيين لهذا القرار؟ وماذا عَن الهجماتِ الواسعةِ وغير المبرّرةِ التي شنّها الفلسطينيونَ ضدّ التجمّعات اليهوديّة مباشرةً بعدَ تصويت الأمم المتحدة لصالح هذا القرار؟ وهَل تدخّلَ العربُ فِعلاً لمساعدةِ الفلسطينيينَ أم لتنفيذ تهديداتِ زعمائهِم المُستمرّة بإزالةِ دولةِ إسرائيل من الوجود؟

لقَد وضّح لي صديقٌ أمريكيّ مُسلمٌ لماذا عارضَت الأمتانُ العربيّة والإسلاميّة بالإجماع قرارَ التقسيم ، وبحسبِ تفسيرهِ فقد هيمَنَت سياسةُ الرجلِ الأبيضِ على قراراتِ الأمم المتحدة في ذلك الوقت ; الأمرُ الذي لا يُعطي أي حقٍ للأممِ المتحدّة في تقسيمِ بلاد الشرق الأوسط ، تماماً كما لم يكُن من حقّ بلفور تقسيم فلسطين سنة 1917 عندما قطعَ وعدَهُ الشهيرَ بإقامة وطنٍ قوميّ لليهود على أرضِ فلسطين.

جاريَ العزيز ، لم تكُن إسرائيلُ بحاجةٍ لموافقة المُجتمعِ الدوليّ لإثباتِ عدالةِ مطالبِها ، حيثُ أننا نستندُ إلى جذورنا التاريخيّة وانتمائِنا العريقِ لهذه الأرضِ لإثبات مشروعيّة وعدالة مطالبنا ، وهذا ما نصّ عليه ميثاقُ إعلانِ دولة إسرائيل بشكلٍ صريح ، حيثُ يبدأ الميثاقُ مؤكدّاً على أنّ " أرضَ إسرائيل كانَت الأرضَ التي وُلِدَ عليها الشعبُ اليهودي" ، وهذا ما أكّدهُ لاحِقاً نفسُ الميثاقِ بعد قرار الأمَمِ المتّحدة بالتصويتِ لصالح إقامة الدولة اليهوديّة.

من جانبٍ آخر ، لم تَمنح الأممُ المتّحدةُ اليهودَ دولةً يهوديّة ، كما لَم يَمنَحنا الانجليزُ أيّ شرعيّة لحقوقِنا التاريخيّة ، فمطالبُنا بالعودة إلى هذه الأرضِ مُستمدةٌ من حقيقةِ وجودِنا عليها منذ آلافِ السنين ، مُستمدّةٌ من أولئكَ اليهودِ الذي عبّدوا الطريقَ لظهور الدولة اليهوديّة التي لم تتوقف عن الوجودِ في وجدان جميع اليهود ، حتى جاءَت تلكَ اللحظةُ التي اعترفَت فيها الأمم المتحدة بإسمها ووجودِها من خلال قرار التقسيم. إنّ شرعية مطالبِنا مستمدةٌ أيضاً من أولئكَ اليهودِ الذي خاضوا حروباً سريّة ضد الاحتلالِ البريطاني ، مُسطّرينَ بذلك قِصةَ ثورةٍ من أنجحِ ثوراتِ الشرقِ الأوسط التي قامَت ضدّ الاستعمار، ثورةٌ نجحَت في دَحرِ الاستعمارِ البريطاني عن تراب هذه الأرض.

يُعلّلَ المدافعونَ عن الرفضِ العربيّ لقرار التقسيم بأنّ الأممَ المتحدة منَحت ما نسبتهُ 55 بالمئة من الأرضِ لليهود رَغم كونهم أقليّة سكانيةً في ذلك الوقت ، إلا أنّ أولئكَ المُدافعينَ عن ذلكَ الرفضِ يتجاهلون حقيقةً مُهمة : وهيَ أنّ أكثر من نصفِ مساحةِ الأراضي التي كانَ من المُقرّر مَنحُها للدولةِ اليهودية كانت أراضٍ صحراوية ، في حين أن الأراضي التي كانَ من المُقرّر منحها للدولة العربية كانَت تمثّلَ أغلبية الأراضي الخصبة من مساحةِ الأرض، لكنّ السؤالَ الذي يطرحُ نفسهُ هُنا : بعيداً عن قرار التقسيم ، هَل وافقَ العربُ أصلاً على أيّة خطةٍ أخرى للتقسيم؟ في الواقع ، لو مُنحتَ الدولةُ اليهوديّةُ أيّ مساحةٍ من الأرض - صغيرة كانت أم كبيرة - فإن العربَ كانوا سيرفضونَ ذلكَ بلا أدنى شكّ ، كونهُم يعتبرونَ السيادة اليهودية على أيّ مساحةٍ من هذه الأرض جريمةً لن يقبلوا بوقوعها تحتَ أيّ ظرف.

بالنسبة لي ، فإني أرى في وجهةِ النظرِ الفلسطينيّة أكثرَ وجهاتِ النظر صراحةً وواقعيّة لتفسيرِ ذلكَ الرفض ; إذ يُجملُ الفلسطينيون – كما سمعتُ منهُم – ما حدثَ آنذاك كالتالي : لو جاءَ شخصٌ غريبٌ ووضعَ يدهُ على بيتِكَ فجأةً ، هَل ستقبلُ أن تقتسمَ ذلكَ البيتَ بينكَ وبينه لاحقاً ؟ وعلى فرضِ أنه وافقَ على منحِكَ ثلاث غرفٍ وأبقى هوَ على غرفتين ، هل ترى في ذلك قِسمةً عادِلة ؟!

جاريَ العزيز، إنني أتفهّم وجهة نظرِ الفلسطينيين وكيفيّة تصويرِهِم لما حدث آنذلك ، كوني نشأتُ وترعرعتُ كشابٍ يَنتمي لحركة الشباب الصهيونيّ اليمينيةِ " بيتار "، وهيَ حركةٌ مُتشدّدةٌ أنشأها جوبوتنسكي ومناحيم بيغين ورفضَت قرارَ التقسيم أيضاً لنفس الأسباب التي تدفعُك لرفضِها. كنتُ ابن 13 عاماً عندما انضممتُ إلى حركة بيتار ، وكنتُ مُقتنعاً برفضِ تلك الحركة لقرار التقسيم انطلاقاً من ايمانِها العميق بأن جميعَ الأرضِ من حقنا، وهذا أمرٌ لا تنازلَ فيه أبداً.

عندما كنتُ مراهقاً كنتُ أرتدي قلادةً تحتوي على خارطةٌ فضيّة صغيرة ، خارطة لجميع أرضِ إسرائيلَ لا لجزءٍ منها ، خارطةٌ لا تضمّ الضفة الغربية فقط ، بل تضمّ أيضاً أراضي المملكة الأردنية ، أي الأراضي التي اقتطعَها الانتدابُ البريطانيّ من مساحةِ فلسطين التاريخية ليمنَحها للهاشميّين . لذلك كنا نسألُ أنفُسنا : من يكونُ أولئكَ الانجليزُ ليقرّروا مصيرَ أرض أجدادِنا ؟ لقد كان ِمن ضمن الأغاني التي غنيّناها حينها : " ضِفّتا نهرالأردن لنا ، هذهِ الضفة والضفة الأخرى أيضاً ".

جاريَ العزيز ، لقد كنتُ مُستغرقاً في مطالبِ أمّتي اليهودية ومقتنعاً تماماً بعدالةِ تلكَ المطالب لدرجة أنني لم أكُن قادراً على فهمِ ما كانَ يُطالبُ به شعبُك الفلسطيني ، إلا أن ذلكَ كلّهُ قد تغيّرَكلّياً عندما في بداية العشرينيّات من عمري، إذ بدأتُ أسألُ نفسي " أسئلةً هدّامَة " تنسفُ المباديءَ التي تربيّتُ عليها : كيفَ ينظرُ الفلسطينيونَ إلى هذا الصراع؟ وما هيَ الأسسُ التي تَقومُ عليها حُجَجُهُم؟ وانطلاقاً من فضولي لمعرفةِ أجاباتِ تلكَ الأسئلة بدأت قصّة تعاطفي مع الشعب الفلسطيني وتفهّمي لقضيته ; فالفضولُ والتعاطفُ هما أهمّ الأسبابِ التي قَد تُجبرُ المرءَ على تغيير قناعَتهِ بأن مبادئهُ وقيَمَهُ هي المباديءُ الصحيحة وما دونها هيَ قيمٌ ومباديءُ خاطئة. بنهايةِ المَطاف، تَوصّلتُ إلى قناعةٍ راسِخةٍ مفادُها بأنّ التنازلَ على المستوى الشخصي أو على مستوى الأمة هوَ الوسيلةُ الوحيدة التي سَنحقّق من خلالِها طموحاتِنا التي لا تقلّ في حقيقتها عن طموحاتِ الاتجاهاتِ والحركاتِ المتشدّدة.

وبالعودة إلى سنة 1948 ، فإنّهُ لم يكُن هناكَ أي امكانيّةٍ لوجودِ أي نوعٍ من التفهّمِ من قبلِ أي طرفٍ من الأطراف في ذلكَ الوقتِ الذي كان يخوضُ فيه الشعبانِ حرباً طاحنة بَدَت وكأنها حربُ بقاءٍ أو فناءٍ لا تفرّق بين المدنيين والعسكريين. لقد اندلعَت تلكَ الحربُ المريرةُ وانتَشرَت من بيتٍ لآخر في الطرقاتِ وشوارِع القرى والمدن ; الأمرُ الذي أدى لوقوعِ مجازرَ دمويّة على كلا الجانبين.

عندما أذكّرُ الفلسطينيينَ بما اقترفوهُ من مجازرَ بحقّنا في ذلكَ الوقت، فإنني أسمَعُ منهُم الردّ نفسهُ تقريباً : نعم قُمنا بذلك ، لكنكُم أنتُم مَن بدأتُم هذه الحرب، وما قُمنا به كان مُجرّدَ ردةّ فعلٍ ، ولربّما سَيَردّ الإسرائيليّون بنفس النغمةِ التي تلقي بالمسؤوليّة على الجانب الآخر فيما لو طرحتُ عليهِم السؤالَ نفسَه. حقيقةً ، لم يبقَ أيّ يهوديّ في المناطق التي انتصَر فيها العربُ على اليهود، فعلى سبيل المثال لا الحصر، تمّ طردُ جميع العائلاتِ اليهوديةِ من أحياء القدسِ الشرقيةِ ، تلكَ العائلاتُ التي عاشَت قروناً في القدس قبلَ أن يتمّ طردُهُم منها ، فيما تعرّضَ اليهودُ لمجازرَ دمويّة في المناطق التي سيطر عليها المقاتلونَ العربُ ، وهوَ ما أدّى إلى نزوحِ تلكَ التجمّعات اليهوديّة أيضاً. وعلى أي جال ، لقد كان هُناك خياران فقطٌ أمامَ اليهود الذين وقعت مناطقهُم تحت سيطرة العرب : إمّا التشريدُ أو الذبح.

بطبيعةِ الحال ، فقد تمتّع كل طرفٍ منا بميّزة خلال تلكَ الحرب، فقد حَظي الجانبُ الفلسطينيّ بدعم وتأييدِ جيوشِ خمسِ دولٍ عربيّةٍ مجاورة ، بينما انخرطَ اليهودُ في هذه الحربِ في وقتٍ لم يكُن فيهِ بحوزتهِم سوى ثلاث دباباتٍ وأربع طائراتٍ مُقاتلة. أما من جهتِنا فقد كُنّا نقاتلُ وحدَنا ، وتلكَ هي الميّزة التي تحوّلَت لاحقاً إلى أهمّ ميّزة تمتّعنا بها خلال تلكَ الحرب . لقَد دفعَتنا حالةُ اليأسُ التي سيطرَتْ على الروح المعنويّة لليهود إلى فرضِ أقصى درجاتِ الاستنفار والتأهبّ على المجتمع الإسرائيلي من خلالِ تجهيزهِ لحربِ حياةٍ أو موت ; إذ لو انتصرَ الجانبُ الفلسطينيّ في هذه الحرب لكّنا بالكاد سنرى أي يهوديّ على قيدِ الحياة على هذه الأرض ، لهذا فقَد سَقطَتْ تجمّعاتٌ يهوديّة قليلةٌ في أيدي العرب ; كوننا نقاتلُ بروحِ الثباتِ والإصرار على البقاء هُنا ، وكونَنا ندركُ جيّدا بأننا لا نمتلكُ أي مكانٍ آخرَ لنَفرّ هاربينَ إليه : كيفَ نهربُ بعد وصولِنا إلى الأرض التي تمثّل لَنا أهمّ وآخرَ محطةٍ من محطاتِ التاريخ اليهودي؟

وبنهايةِ المطافِ ، فما تكبّدَهُ الفلسطينيونَ في هذه الحرب كانَ أكثر مما تكبّدهُ اليهودُ ، إذ دفعوا ثمناً باهظاً تمثّل في نزوحِ قرابة سبعمئةِ ألفِ فلسطينيّ من أرضهِم ليُصبحوا بعد ذلكَ لاجئين.

في الواقع ، توجدُ روايتان مُختلِفتانِ تتعلّقان بأسبابِ نزوحِ الفلسطينيين عن أرضهِم وظهور مأساةِ اللجوءِ الفلسطيني بعدَ انتهاء الحَرب. لقد نفى الجانب الإسرائيلي لسنواتٍ طويلةٍ قيامَهُ بإجبار الفلسطينيينَ على تركِ أرضِهِم، فيما ادّعى الجانبُ الإسرائيليّ بأنّ الفلسطينيينَ الذين رحلوا عن أرضهِم قَد رحلوا طوعاً بعد أن أقنعهُم القادةُ العربُ بضرورةِ تركِ منازلِهِم وأراضيهِم من أجل إفساح الطريق أمامِ الجيوش العربيّة التي ستنتصرُ في تلكَ الحربِ قريباً. أمّا روايةُ الجانبِ الفلسطينيّ التي تفسّرُ أسبابَ اللجوءِ الفلسطينيّ فتدّعي بأنّ تشريدَ الفلسطينيين وطردَهُم من أرضِهِم كان سياسةً إسرائيليّة مُمنهَجة وجزءاً من خطةٍ صهيونيّة مُتعمّدة لتهجير السكانِ العرب.

وعلى أيّ حال ، لقد كانت كلتا الروايتان اللتان تبناهما الجانبانِ لتفسير قضيّة اللجوءِ الفلسطينيّ رواياتٍ مغلوطة ; فقَد أثبتَ جيلٌ جديدٌ من المؤرخين الإسرائيليينَ أنّه تم إجبارُ العديدِ من الفلسطينيينَ على ترك ديارهِم ، فيما أثبتوا في الوقتِ نفسهِ قيامَ بعضِ القادة العرب بتحريضِ وتشجيع الفلسطينيينَ على تركِ بيوتهِم وأراضيهم. بطريقةٍ أو بأخرى ، ليسَ من السهل علينا رؤيةُ ذلكَ الخط الفاصلِ بين "إجبار الفلسطينيينَ على النزوح من أرضهِم " وَ" خروجهِم طوعاً منها ". وإلى جانب ذلك كلّه ، فقد نزح العديدُ من الفلسطينيينَ تاركينَ أراضيهم وديارهُم خوفاً من تعرّضهِم للقتلِ أو التهجير.

حقيقةً ، لم تتسبّبْ أي سياسةٍ إسرائيلية مُمنهجةٌ في مأساة اللجوءِ الفلسطينيّ ، بل كانَ إجبارُ الفلسطينيينَ على النزوحِ من أراضيهِم قراراً شخصياً من بعضِ القادة العسكريينَ الإسرائيليين آنذاك ، ولأدلّلَ على هذا فإنني أستذكرُ ما حدثَ عندما أرسلَ رئيسُ الوزراءُ الإسرائيليّ ديفيد بن غوريون أوامرَ واضحة وصريحة بتهجير سكّان منطقتي اللد والرملة - قرب تل أبيب - ، إلا أنهُ ومع الأسفِ الشديدِ ، فقد رافقَ عملية تهجير السكان مجزرةُ دمويّة بحقّ السكانِ العرب.

في الوقتِ نفسِهِ ، فقَد تُركَتْ بعضُ القرى العربيّة التي لم تنخرط في الحربِ كما هيَ ، أي لَم يُجبَر أحدٌ من سكانها على النزوح ، أما في مدينة حيفا التي سكنها اليهودُ والعربُ معاً لفترة طويلة قبل قيام دولةِ إسرائيلَ ، فقَد وقف مُحافظُ حيفا آنذاك في وسط الشارع مُتوسّلاً السكانَ العربَ عدم مغادرة المدينة والبقاءَ فيها ، إلا أنّهُ ومع تصاعُدِ وتيرة القتالِ بين الطرفين فقد فرّ عشراتُ الآلافِ من أبناء الطبقة الوسطى من سكان حيفا باحثين عن الأمان ، على أمل أن يعودوا إلى مدينة حيفا بعد أن يُهزمَ اليهود ، فيما أضعفَت مغادرتهُم للمدينةِ من الروح المعنويّة للمُجتمع الفلسطينيّ وعمّقَت من شعورهِ بالإحباط.

ولنكونَ واضحين أكثر ، فقَد تمّ تهجيرُ جزءٍ من أبناء الشعبِ الفلسطينيّ ، كما نزحَ جزءٌ من أراضيهِم باحثينَ عن الأمان، في الوقت نفسه ، فقد أصرّ جزءٌ آخرُ من الفلسطينيين على البقاءِ في أراضيهِم ولم يتركوها أبداً ; الأمرُ الذي يُفسّرُ وجودَ أكثر مِن مليون ونصفِ المليون مواطنٍ فلسطينيّ يعيشون في دولة إسرائيل في أيامِنا هذه ، حيثُ ينحدرُ هؤلاءُ من نسلِ الفلسطينيين الذين فضّلوا البقاء في أرضهِم وعدم النزوح ، والذين كانَ يُقدّرُ عدَدُهم بمئة وخمسينَ ألف فلسطينيّ آنذاك.

ومع ذلكَ ، لا يُمكننا إنكارُ حقيقةِ ما ألحقتهُ الحربُ من تحطيمٍ للمجتمع الفلسطيني بعد انتهائِها. لقد دمّرَت إسرائيلُ أكثر من أربعمئة قريةٍ فلسطينيّة بعد تهجيرِ أهلِها ، فيما تمّ توطينُ كثيرٍ من اللاجئينَ اليهودِ الذين كان أغلبهُم من اليهودِ القادمين من دولٍ عربية في العديدِ من هذه القرى المدمّرة . في الوقت نفسه ، تشتّتَ الشعبُ الفلسطينيّ وتبدّدَ وجودُه في عدة دول كسوريا ولبنان والأردن ، إضافةً إلى الضفةِ الغربيةِ التي كانت تحت سيطرة الأردن ، وقطاع غزة الذي كان تحت سيطرة المصريين آنذاك.

وفي الوقتِ الذي كنّا نحقّقُ فيه الإنجازَ تلو الآخر ونحتفلُ فيه نحنُ الإسرائيليّونَ باستعادةِ سيادتِنا على أرضنا ، فقد تبدّلَت حياة أبناءِ شعبكَ الفلسطينيين بترحالهِم من بيوتهِم وأراضيهِم وحقولِهم المزروعةِ بأشجار الزيتون ، إلى مخيماتِ اللجوء البائسةِ المُنتشرة في كل مكانٍ ، تلكَ المُخيّماتُ التي ربّى اللاجئون فيها أبناؤهُم بلا أملٍ، بينما تملؤهُم الحرقةُ والحسرةُ على ما حدث. تلكَ المُخيماتُ التي يتواجدُ فيها الفلسطينيّ كانسانٍ منبوذٍ غيرُ مرغوبٍ به رغم وجودهِ في دولٍ عربية شقيقة للفلسطينيين. وفي خضمّ فرحي ويأسِكْ ، ينتابُني الشعورُ بالأسى الشديدِ على تلكَ الأرواحِ التي أُزهِقَت جراء ما تعرّضَ لهُ الفلسطينيونَ من منفىً وشتات.

لكن من جهةٍ أخرى يا جاريَ العزيز ، أتمنّى أن تتفهّم عدمَ قدرَتي على الاعتذارعن كوني موجوداً هُنا ، عن حربيَ التي خضتَها في سبيلِ البقاء. ستسمعُ من الجانب الإسرائيليّ كلاما مُماثلاً في الغالب ، كلاماً مفادهُ بأنهُ لو تنازلَ الفلسطينيّونَ والقادةُ العربُ آنذاك بدلاً من إصرارهِم على شنّ حربِ حياةٍ أو موت على اليهود لَما وَقعَت مأساةُ اللجوءِ الفلسطيني من الأساس.

كذلكَ يوجدُ سببٌ آخرٌ يُفسّرُ رفضَ اليهودِ الإسرائيليينَ تصويرَهُم على أنّهُم مجرمون جرّاء أحداث حرب 1948 ، وهوَ ما حدثَ من نزوحٍ ليهودِ العالم العربيّ والإسلاميّ ، أولئكَ اليهودُ الذين يشكّلون حالياً نصف سكان دولة إسرائيل على الأقل ، والذين عاشوا في تلكَ البلدان الشرق أوسطية وشكّلوا جزءاً من نسيجِها الاجتماعيّ منذ زمنٍ طويل. إذ بعد مضيّ عقدين تقريباً على قيام دولة إسرائيل ، بدأتَ تلكَ المجتمعاتُ اليهوديّة التي كانَت مُزدهرةً بالاندثار شيئاً فَشيئاً ، حيثُ أجبرَ اليهودُ الذينَ عاشوا في بلدان العالم العربي والإسلاميّ على تركِ ديارهِم نتيجةً لما تعرّضوا له من عنفٍ وأعمال معاديّة للساميّة ، الأمرُ الذي يعتبرُ شكلاً من أشكالِ التهجير القسريّ.

من جهةٍ أخرى ، فقد هاجرَ بعضُ يهودِ الدولِ العربيّة بمحضِ إرادتهِم خوفاً من اندلاعِ أعمالِ عنفٍ ضد اليهود مُستقبلاً ، أو شوقاً وحنيناً إلى أرضِ صهيون. لقَد حصدَت أعمالُ العنف المُمنهجِ ضدّ المُجتمعات اليهوديّة خلال أربعينيات القرن الماضي مئاتَ الأرواحِ من أبناءِ يهودِ بغداد وبنغازي وحلب ومدن أخرى ، كما أدّت أعمالُ العنف تلكَ إلى خلقِ موجةٍ من الذعر والخوفِ بين أبناءِ تلك المجتمعات اليهوديّة، حيثُ جُرّدَ اليهودُ من مُمتلكاتهِم ، فيما تعرّضوا للسجنِ والإعدامِ شنقاً خلال موجات العنفِ تلك ;الأمرُ الذي دفعهُم بنهايةِ المطافِ إلى ترك مُدُنهِم والفرار إلى إسرائيل ، فيما أطلقَ اليهودُ المزراحيون - وهُم اليهودُ الذين عاشوا في دولِ العالم العربيّ والإسلامي قبلَ قيام دولة إسرائيل - على أنفسهِم لقب "اللاجئون المخفيّون". لقد تواجدَ قرابة المليون يهوديّ في بلدانِ العالم العربي والإسلامي قبلَ قيامِ دولة إسرائيل ، بينما بالكادِ تجدُ أربعينَ ألف يهوديّ يعيشونَ في بلدانِ العالم العربيّ والإسلامي في أيّامِنا هذه.

إنّ أغنية " قريةِ تضرا " هيَ أحدُ الأغاني العبريّة المُفضّلةِ لديّ ، وهيَ أغنيّةٌ رثائيّةٌ تندبُ ما حلّ بيهودِ المغربِ من فقدانٍ لثقافتهِم وحضارتهِم بعد رحيلهِم من المغرب ، إذ تروي الأغنية قصّةَ أحد الطقوس اليهوديّةِ التي كانت متبّعةً في جبالِ الأطلسِ آنذاك ، بيدَ أنّها اختفت في وقتنا الحاضر. يبدأ هذا الطقسُ الدينيّ حينَ يتمّ إحضارُ ولدٍ صغيرٍ إلى الكنيسِ اليهوديّ، فيما يَلعقُ هذا الولدُ حروفَ اللّغةِ العبريّة التي يتمّ كتابتُها بالعسلِ على قطعةٍ خشبيّة ; وذلك حتى يستشعرَ هذا الطفلُ حلاوةَ التوراة في فمِه. وخلفَ هذه الأغنية الجميلة التي تسردُ تفاصيلَ تقليدٍ فولوكلوريّ رائعٍ نجدُ قصّة مُحزنة تتحدّثُ عن دمارِ ذلك المجتمعِ والثقافةِ التي أنتَجَت ذلكَ التقليد.

جاريَ العزيز ، يقارنُ البعضُ أحيانا بين الصراعِ الفلسطينيّ الإسرائيليّ من جهة ، وبين صراعِ باكستان معَ الهند من جهةٍ أخرى ; نظراً للتشابهِ بين الواقعين ونتيجةً لفرار ملايينِ الهندوس والمسلمينَ إلى جانبي الحدود إثرَ قرار تقسيم الهند سنة 1947. لقد شَهدتْ تلكَ البلدان أيضاً مجازرَ دمويّة مروّعة على كلا الجانبين ، مجازرَ فظيعة بكلّ ما تحملهُ الكلمةُ من معنى فيما لو قارنّاها بما حدثَ بينَ اليهودِ والعربِ.

إنّ المقارنةَ بين كلا الصراعين هو أمرٌ يخلو تماماً من الدقّة ، فخِلافاً لما حدثَ للّاجئين الهنود والباكستانيين على طرفي الحدود، فقد وجدَ أولئكَ اللاجئونَ موطِناً جديداً في بلدٍ آخر، في حين أنّ اللاجئينَ اليهود الذي فرّوا من الدول العربية قد لجأوا إلى موطنهِم الأصلي ، أرضِ إسرائيل.

عندما هاجرَ اليهودُ من بلدانِ الدول العربيّة إلى إسرائيلَ فقَد تمّ توطينهُم في بداية الأمر في ملاجيءَ مؤقتة ، ومن ثُمّ تم نقلهُم إلى مشاريع إسكانيّة وقرىً زراعية متعدّدة. ولنكونَ واقعيّينَ وصريحينَ أكثر، فقَد كانَ هُناكَ تمييزٌ عنصريّ ضدّ اليهودِ المزراحيين خلال تلكَ الفترة ، كما أنّ الجرحَ العميق الذي نتجَ عن ذلكَ التمييز العنصريّ الذي شهدتهُ تلكَ الفترةُ لا زالَ ينزفُ في المجتمع الإسرائيلي حتى يومنا هذا. ولكن ، وبالرغم من كلّ الأخطاءِ التي ارتَكبها المُجتمعُ الإسرائيليّ خلالَ عمليّةِ استيعاب اليهودِ المزراحيين في المُجتمعِ الإسرائيليّ، إلّا أنه تم الاعترافُ بهم - حتى من قبلِ مؤسّسي دولة إسرائيل المُنحازين ليهودِ الغربِ أكثر من يهودِ الشرق - على أنّهُم " عوليم " ، أي أنّهُم ينحدرونَ من نسلِ اليهودِ الذين عاشوا على هذهِ الأرضِ قبل أربعة آلافِ عام ، في الوقتِ الذي لا زالَ الفلسطينيّون الذين لجأوا إلى الدول العربيّة يعتبرونَ أنفُسهُم موجودينَ في المنفى ، رغمَ لجوئِهِم إلى بلدانَ تتشاركُ معهُم اللغة نفسها والدينَ نفسه ، بخلافِ ما حدثَ مع اليهود الذينَ فرّوا من الدولِ العربية والإسلامية إلى إسرائيل.

لقد عوملَ الفلسطينيونَ - في أغلب الأحيان - من قبلِ أخوانهِم العرب على أنّهُم غرباء ; الأمرُ الذي يستدعي وجودَ حلّ جدّي وجذريّ يساعدهُم في الخروجِ مِن مأزقِ الشتات . لذلكَ فإنّ إسرائيل ، جنباً إلى جنبٍ مع دول العالم العربيّ ، تتحملُ مسؤوليّة ايجادِ حلّ يُغيّر ذلكَ الواقع المزري للاجئينَ الفلسطينيين في دولِ الشتات. من جهة ، يتوجّبُ على إسرائيلَ أن تدفع تعويضاتٍ لكلّ لاجيء فلسطينيّ ينحدرُ من نسلِ الجيلِ الأوّلِ للاجئينَ الفلسطينيين الذين هاجروا إلى الدولِ العربيّة ، ومن جهةٍ أخرى ، يتوجّب على الدولِ العربيّة أن تدفعَ تعويضاتٍ لكلّ إسرائيليّ ينحدرُ من نسلِ الجيل الأول من اليهود الذين فرّوا إلى إسرائيل هاربين من الدولِ العربيّة.

جاريَ العزيز، سوفَ يبقى النصفُ مليون يهوديّ الذينَ وضَعوا حجارةَ الأساس لقيامِ دولةِ إسرائيل ودافعوا عنها سنة 1948 كأكثر المُجتمعاتِ اليهوديّة تخليداً في الذاكرة اليهوديّة عبرالتاريخ. لقّد كانَ منهُم البناؤونَ والثوريّونَ والمُجدّدونَ والصوفيونَ والكتّابُ والشعراءُ الذين أحيوا لغةً ميتّة، كانَ منهُم الحالِمونَ المُتفائلونَ اليوطوبيّونَ الذي يسعونَ لخلاصِ هذا العالم. لقد تصارعَ هؤلاءِ فيما بينهَم بشراسةٍ حول كيفيّةِ الوصول إلى استقلالِ الدولة اليهوديّة وطبيعتِها ومُستقبلِها ، فيما تمتّعوا ببصيرةٍ قويّة ووعيٍ عميقٍ لواقع المرحلة التاريخية التي عاشوها وما يترتّبُ على ذلكَ من تبعاتٍ تجعلُ من مستقبلِ الأمة اليهوديّة المُنكسرةِ عِبءاً ثقيلاً مُلقىً على ظهورهِم.

لطالما كنّا نسألُ بعضَنا أنا وأصدقائي عندما كنا صغاراً هذا السؤال : في أيّ فترةٍ من فتراتِ التاريخ اليهوديّ تُحبّ أن تولدَ لو امتلَكتَ الفرصةُ لتعودَ بالماضي إلى الوراء؟ كانَت إجابَتي : أحبّ أن أعودَ إلى ذلكَ الزمن الذي سبقَ قيام دولةِ إسرائيل بقليل، أردتُ أن أكونَ معَ أولئكَ الصهاينة الذين كانوا يعبّدون الطريق لإحياءِ الأمّة اليهوديّة من جديد.

لقَد كانَت التحدّياتُ التي واجهَت أولئكَ الشبّان والشاباتِ شاقّة للغاية، إذ لم تقلّ في مشقّتِها عن أي تحدّياتٍ واجهَت المؤسّسينَ الأوائلَ لأي أمّة ، حيثُ لم يقَع على عاتقِ المؤسسينَ اليهودَ مسؤوليّةُ تحريرَ مُجتمعهِم من نيرالحُكمِ البريطانيّ فحَسب ، بَل كان يتوجّبُ عليهم أيضاً إعادة تنظيم وتأسيسِ ذلك المُجتمع من البداية من خلال إحياءِ اللغة العبريّة وبناء ثقافةٍ مُعاصرةٍ دونَ المساسِ بجوهرالثقافة اليهوديّة القديمة، والأهم من هذا كلّه : إحياءُ أمةٍ واحدة من أفرادٍ انتموا لأكثرِ المُجتمعاتِ البشريّة بأساً ، خاصةً بعدَ الدمارِ الجسيم الذي لحِقَ بالأمّة اليهودية منتصفَ القرن العشرين ; ففي أوروبا كان يتمّ ترحيل اليهودِ ونقلهُم إلى مخيّماتِ ومعسكراتِ الموت ، أما في الشرق الأوسطِ فقد كانَ اليهودُ تحتَ تهديد دائمٍ تمثّلَ في العنفِ الموجّه ضدّهم من قبلِ الشعوبِ العربيّة والإسلاميّة. وإضافةً إلى هذا كلّه فقد تعرَضَت الهويّة اليهوديّة للصهر في الاتحاد السوفييتي ضمن قراراتٍ وسياسات الحكومة السوفييتية التي كانت تقضي بقتلِ الهويّة اليهودية.

هذا ما كان عليه حالُ الأمة اليهوديّة قبل قيام دولةِ إسرائيلَ ، وهوَ السبب الذي خلقَ تحدّياً شاقاً على القادة الصهاينة في بداياتِ الأربعينيات من القرن المُنصرم ، إلا أنّهُم تمكّنوا من تجاوز تلكَ التحديّات من خلال التَظافرِ بين عقيدتهِم القويّة من جهة، وواقعيّتهِم من جهة ثانية ; الأمرُ الذي أدّى في نهاية المَطافِ إلى إنقاذِ أمّتهِم اليهودية وتجديدِ تاريخِها العريق.

ولكن ، ورغم كلّ الحب والاحترام والتقدير الذي أكنّهُ لذلكَ الجيلِ من الصهاينةِ الأوائلِ مؤسسي دولةِ إسرائيل ، إلا أنني أعيشُ في زمنٍ مُختلف ، زمن يفرضُ عليّ واقعاً جديداً وفُرصاً مُختلفةً لمواجهةِ المشاكلِ والبحثِ عن حلول لها، وخلافاً لجيل ديفيد بن غوريون الذي فرضَت عليه التحدّيات تركيزَ جُهدهِ على بناءِ الدولةِ من الداخل في ذلك الوقت ، فإنّ التحدّيات التي تواجه جيلي حالياً تتطلبُ منّي أن أركّز جُهدي على بناء دولة إسرائيل من الخارج ، وذلكَ من خلالِ التوجّه صوبَك يا جاري العزيز ; ذلكَ لأنني أرى مُستقبلي كَجزءً لا يتجزأ من مُستقبَلك.

وبطبيعةِ الحال ، لربّما سَيصعبُ علينا ايجادُ طريقةٍ نجسرُ بها الهوّة التي أحدَثَها التضادّ في روايَتَينا التاريخيتين حولَ قيام دولةِ إسرائيلَ ، تلكَ الهوّة التي يبدو وكأننا لا زلنا عالقينَ فيها حتى في خضمّ محاولاتِنا للوصولِ إلى حلّ الدولتين.
وبأي حالٍ من الأحوال ، فإن ذلكَ الشرخَ التاريخيّ القائمَ بيننا لا يجبُ أن يمنعَنا من تقديم تنازلاتٍ سياسيّة لبعضِنا البعض.

إنني شخصٌ يُمجّدُ التاريخ جداً ، لكنّي أمجّدهُ لمرحلةٍ أراه فيها مصدراً للإلهام والمعرفة، لا مصدراً للعبودية ; فأنا مؤمنٌ تماماً بأنّ الطريقةَ الوحيدة التي نمنعُ بها الماضي من أن يكونَ عقبةً في طريق المُستقبلِ تتمثلُ في استيعابِنا للروايةِ التاريخيّة لكلّ طرفٍ من الأطرافِ وتعلّمنا لكيفيّة العيشِ في خضمّ رواياتٍ تاريخيّة مُختلفةٍ ومُتناقضة.

جاريَ العزيز ، إنني أكتبُ لكّ هذه الرسالة في وقتٍ متأخرٍ من الليل ، أكتبُ لكَ وأنا أرى بعضِ البيوتِ المَضاءةِ فوق تلّتِك ، فيما يُعكرُ صوتُ أحدِ السيّارات القديمةِ المُهترئةِ على الطريق الواصلِ بين تلّتي وتلّتكَ سُكونَ هذا الليل ، بينما يتضاءلُ شعوري بالوحدة شيئاً فشيئاً كلما شطحتُ بخيالي متصوّراً نفسي وإيّاكَ نتجاذبُ أطرافَ الحديثِ على جانبِ الطريق الواصلِ بين تلّتي وتلّتِك.

وبينَما أكتب لك في هذا الوقت بالتحديد ،فإنّني أصغي إلى صوتِ المؤذن وهوَ يُنادي لصلاة الفجر ، أصواتُ عدّةِ مؤذنينَ تنطلقُ في أوقاتٍ مُتفاوتةٍ بعضَ الشيء من مكبّراتِ الصوتِ الموجودة في أعلى مناراتِ المساجدِ الأخرى في التّلالِ المجاورة لنا ، ها أنا أسمعهُم ينادونَ " اللهُ أكبَر" ، وها أنا أسمعُ صدى عظمةِ الله يتردّدُ في الأفق . إنّهُ لشعورٌ رائعٌ بالسكينةِ والطمأنينةِ يتملّكُني حينَ أسمعُ ذلكَ الصوتَ الهاديءَ الذي ينادي بقوّة قائِلاً: " الصلاةُ خيرٌ مِنَ النومْ " ، في دعوةٍ رائعةٍ للاستيقاظ من النومِ والاستعدادِ لهذا اليوم الذي شارَفَت بدايتُهُ على الاقتراب.

وبينما ينادي المؤذّنونَ " الصلاةُ خيرٌ من النوم " ، أريدُكَ أن تتذكّر هذا الكلام جيّداً يا جاريَ العزيز: إن وجودَنا في هذه الحياة هوَ أمرٌ مؤقّت ، مسألةُ وقتٍ ليسَ إلا، لذا فإيّاكَ وأن تتصرّفَ مثلما يتصرّفُ مَن يمشي أثناء نومه ، إيّاك أن تُضيّع وقتَك موهِماً نفسكَ بالبقاء الأبدي ، استيقظ من نومِك وكُن انساناً فعّالاً في هذه الحياة . ها قد انتَهى الأذانُ ، وها هوَ السكونُ المُفاجيءُ يُخيّمُ على المكان مُجدّداً.

جاريَ العزيز ، إننا قريبونَ جداً من بعضِنا البعضِ لدرجةٍ سنسمعُ فِيها أنفاسَ بعضنا بعضاً إذا ما أصغينا جيّدا لها. فكّر معي لبعض الوقت، هَل نمتلكُ أيّ خيارٍ آخر لإنهاءِ هذا الصراع سوى اقتسام هذهِ الأرضِ فيما بيننا ؟ أقصدُ اقتسامها بيننا ماديّاً ومعنوياً. علينا أن نتعلّمَ جيداً كيف نستوعبُ رواية الطرفِ الآخر لهذا الصراع ، الأمرُ الذي - كما ذكرتُ سابقاً - يدفعُني وبقوّةٍ للوصولِ إليكَ من خلال كتابةِ هذه الرسائل ، وها أنا ذا أحاولُ جديّاً الوصولَ إليكَ مُتجاوزاً تلكَ المساحة الضئيلة والهوّة الشاسعة التي تفصلُ بين تلّتي وَ تلّتِك.

الرّسالةُ الخامسة : سِتةُ أيامٍ وخمسونَ سنة

جاريَ العزيز ،

تُصادفُ اليومَ ذكرى يومِ القدس ، وهوَ يومٌ نحتفلُ بهِ بمناسبةِ توحيدِ مدينةِ القدس في السابع من حزيران عام 1967 بعد حربِ الأيام الستة ، فيما الجوّ عاصفٌ مغبرٌّ بَريحٍ حارّةٍ جافّةٍ مصدرُها الصحراء ..

جرَت العادةُ في هذا اليوم أن يجتمعَ المقاتلونَ الإسرائيليّونَ القُدامى الذين شاركوا في تلكَ الحربِ ، مُقاتلونَ من مُختلف ألوان الطيفِ الإسرائيليّ ، من اليمينِ إلى اليسار، متديّنونَ وعلمانيّونَ ، فيما يزورُ هؤلاء المُقاتلونَ القدامى النُصُبَ التذكاريّة الرخاميّة في شوارع القُدس الشرقية - حيثُ وقعَت تلكَ الحربُ - مُستذكرينَ رفاقَهُم الذين سَقطوا خلالَ حربِ الأيام الستة مُردّدينَ خلالَ زياراتهِم تلكَ آياتٍ من مزامير داوود.

وفي اليوم نفسهِ ، تتوجّهُ مجموعاتٌ من الشبّانِ اليهودِ الذينَ ينتمونَ لليمينِ الإسرائيليّ إلى الأحياءِ العربيّة في القدس الشرقيّة للاحتفالِ بهذا اليوم بالرقصِ والغناءِ ابتهاجاً بتحقيقِ وحدةٍ يهوديّة لمدينةِ القدسِ في ظلّ السيادة الإسرائيليّة . حقيقةً ، فقَد تقدّمَتْ العديدُ من المجموعاتِ والحركاتِ التي تدعو إلى التعايشِ بينَ اليهودِ والعربِ بالتماسٍ إلى المحكمةِ الإسرائيليّة العليا طالبينَ منها تغييرَ مَسار الاحتفالاتِ بِتجنّبَ الأحياء العربيّة خلال هذا اليوم، إلّا أنّ المحكمةَ العُليا أصدرَت قراراً رفضَت فيهِ التماسَهُم مُعلّلةً ذلكَ بأن هذه التظاهراتِ تندرجُ تحتَ إطار حريّة التعبير عن الرأي.

إنني أعتذرُ شخصيّاً كمواطنٍ إسرائيليّ يهوديّ عن هذا القرار المؤسفِ ، كوننا نحتاجُ في بعضِ الأحيان إلى تخفيفِ وتعديلِ بعضِ النصوصِ والمباديء بما فيها النصوصُ الدينيّة المُقدّسة في سبيلِ مواءمَتها مع احتياجاتِ الآخرينَ واحتراماً ومراعاةً لمشاعرِهم. بنهايةِ المطاف ، فإن التحدّي المُتمثّلَ في تغيير بعضِ التقاليد والأمور التي نعتبرُها غيرَ قابلةٍ للتغيير سيساعدُ إلى حدٍ كبير في تغيير مُجرياتِ الصراع القائم بيننا إذا ما نجحنا في تجاوزه.

جاريَ العزيز ، لقَد كانَت أوّلُ مرةٍ تتّجهُ فيها أنظاري صوبَ إسرائيل خلالَ الأسابيع القليلةِ التي سبقَت حربَ الأيام الستة ، تحديداً منتصفَ شهر أيّار من سنة 1967م ، كانَت تتعرضُ إسرائيلُ وقتَها لتهديدٍ مباشرٍ بإزالَتها من الوجود ، حيثُ كان القادةُ العربُ يستخدمونَ لغةَ التهديد والوعيدِ عند حديثِهم عن إسرائيل ، مهدّدينَ بالقضاء على اليهودِ والإلقاء بهِم في البحرآنذاك . في الوقتِ نفسِه ، كنتُ أسمعُ حينها عبرَ شاشاتِ التلفاز المتظاهرينَ العربَ في القاهرة ودمشق حينَ كانوا يهتفون " الموتُ لليهودِ "، فيما كانوا يلوّحونَ بلافتاتٍ رُسمَ عليها عظامٌ وجماجمُ ، وهذه كانَت أوّلُ صدمةٍ حقيقيّةٍ تعرّضتُ لها في تلكَ الفترة، إذ أدركتُ أنّ خطَرَ ارتكابَ مذابحَ جماعيّةٍ بِحقّ اليهودِ لا زالَ يلوحُ في الأفُق ، كما أنّ هذا التهديدَ لا زالَ قائِماً ولم ينتهِ بانتهاءِ المحرقةِ التي تعرّض لها اليهودُ في أوروبا .

أمّا الصّدمةُ الثانية التي تعرَضتُ لها حينها فكانَت عندما أغلقَ الرئيسُ المصريّ جمال عبد الناصر مضيقَ تيران ، مُغلقاً بذلكَ الممرَ المائي الذي يصلُ جنوبيّ إسرائيل بقارة أوروبا ، فيما قام بطردِ قواتِ حفظِ السّلامِ التابعةِ للأممِ المتحدةِ منَ الحدودِ الفاصلةِ بين مصرَ وإسرائيل ; الأمرُ الذي جعلَني أتساءلُ بمنتهى الفضول : ما هيَ الغايةُ من وجودِ قواتِ حفظِ السلام الدوليّة إذا غادرَت الحدودَ في وقتٍ عصيبٍ كهذا الوقتِ بالتحديد؟ في الوقتِ نفسه ، استجابَت الأممُ المتّحدةُ لمطلبِ جمال عبد الناصر بإزالةِ قواتِ حفظ السلام من تلكَ المنطقة بعدَ نقاشٍ محدودٍ حولَ هذا القرار في مجلسِ الأمن الدوليّ.

لاحقاً ، أحاطَت جيوشُ الدولُ العربيّة الثلاثة : سوريا ومصر والأردن بحدودِ إسرائيلَ ، مما دفعَ الجيشَ الإسرائيلي إلى إعلانِ حالةِ الاستنفار القُصوى واستدعاءِ مئاتِ الآلافِ من جنودِ الاحتياط للخدمة العسكريّة ممّا تسبّب بأزمةٍ اقتصاديةٍ في المجتمع الإسرائيلي الذي كان تعدادهُ قُرابةَ ثلاثة ملايين مواطنٍ في ذلك الوقت ، فيما أُرسِلَ الآلافَ من طلبةِ المدارس الثانويّةِ إلى الحدائقِ العامةِ لحفرِ وتجهيز القبورِ استعداداً لخسائرَ جسيمةٍ في الأرواح في صفوفِ المدنيين الإسرائيليين.

وفي خضمّ ذلكَ التوتر الذي سادَ المنطقة وتلكَ التهديداتِ المُحيطةِ بدولةِ إسرائيل ، تعرّضَ رئيسُ هيئة أركان الجيش الإسرائيليّ آنذاك اسحاق رابين لانهيارٍ عصبيّ نتيجةً انهماكِه الشديد في كيفيّة التعامل مع تلكَ التهديدات ، فيما تملّكَ الرعبُ قلوبَ اليهودِ حولَ العالمِ نتيجةً لهذا الخطر الوشيكِ والذي يُنذر باحتماليّةِ إزالةِ دولةِ إسرائيلَ منَ الوجود.

في الواقع ، لقَد اكتشفتُ خلالَ تلكَ الفترةِ أمراً مهمّاً عن ذاتي ، وهوَ عدمُ قُدرَتي على الحياةِ في عالمٍ يخلو من دولةِ إسرائيل، وهيَ قناعةٌ لربّما تبدو لكَ غريبةً بعضَ الشيء أيّها الجارُ العزيز. لقد كنتُ طفلاً صغيراً يبلغُ من العمر ثلاثةِ عشر عاماً و كنتُ أسكنُ في بروكلين آنذاك، فما سِرّ ذلكَ التشبّث القويّ بإسرائيل؟ وما طبيعةُ تلكَ العلاقةِ التي تربطني بإسرائيلَ لدرجة استعدادي للتضحيّة بنفسيَ في سبيلِ بقائِها رغم أنّني لم أقُم بزيارتِها حتى؟!

لقد كانَ من البديهيّ أن يَشعرَ اليهودُ بأنّ بقاءَهُم مهدّدٌ في حالِ زوالِ دولةِ إسرائيل ، ولأكونَ دقيقاً أكثر ، لَن يختفيَ اليهودُ من الوجودِ إذا ما حدثَ ذلك ، كما أنّ المُجتمعاتِ اليهوديّة في العالمِ ستواصلُ بقاءَها أيضاً حتى لو زالَت دولةُ إسرائيلُ من الوجود، لكنّ ما سيختفي من الوجودِ هوَ الحافزُ الذي يُعطيهِم أملاً عظيماً للمضيّ قُدماً في هذه الحياة ، ستختفي ثقةُ اليهودِ بأنفسِهِم ، ستختفي قدرةُ اليهودِ على تحقيقِ الحُلمِ التاريخيّ لأمّتهِم ، سيَختفي إيمانُ اليهودِ العميقُ بالقصّة اليهوديّة ، كلّ هذا سيتبدّدُ فيما لو زالَت دولةُ إسرائيلُ من الوجود ! حتى حنينُنا لأرضِ إسرائيلَ الذي لطالَما هوّنَ علينا عناءَنا في الشتاتِ سيتحوّل إلى أضحوكةٍ سخيفة : هَل صَبَرنا وعانينا وانتَظرنا ألفَي سنةٍ في الشتاتِ مترقبّين قيامَ دولةِ إسرائيل لينتهي بنا المطافُ في كابوسٍ جديدٍ من كوابيسِ التاريخِ اليهوديّ؟ وهَل جئنا كيهودٍ من كلّ بقاع العالم إلى أرضِ صهيونَ لنحقّقَ الخلاصَ اليهوديّ أم لنقضيَ على الأمّةِ اليهوديّةِ نهائيّاً؟

صحيحٌ بأن اليهودَ قد واصلوا البقاءَ رغمَ خسارتِهِم للسّيادةِ على أرضِ إسرائيلَ في السابق ، إلّا انّ الظروفَ كانَت مختلفة نوعاً ما، فعندما تمّ تدميرُ مملكةِ جودا سنة 70 قبل الميلاد ، كنّا حينَها لا نزالُ أمّةً مُلتزمةً دينياً ، حيثُ عرَفنا حينها كيفَ نلملِمُ أجزاءنا المُبعثرةِ هُنا وهُناك ، وعرَفنا جيّداً كيفَ نعيدُ بناءَ نمطٍ جديدٍ للحياةِ اليهوديّةِ ، كوننا نعرفُ حقّ المعرفةِ كيف نُفسّرُ قدَرَنا من منظور عقيدتنا اليهوديّة. وفي مُفارقةٍ من مفارقاتِ التاريخ اليهوديّ ، فإنّ العقيدةَ التي كانَت سبباً للعقابِ الإلهي لليهود ، كانَت أيضاً سبباً في ثباتِ أجدادِنا ودافعاً لاستمراريّتِهِم في البقاء ، إيماناً منهُم بأنّ الإلهَ الذي عاقبَهُم في يومٍ من الأيامِ سيُخلّصُهُم من العقابِ يوماً ما حينَ يُنهي اليهودُ فترة محكوميّتِهِم في سجنِ الشتات.

وعلى أيّ حال ، فإننا نعيشُ اليومَ تبعاتِ فتراتِ الانكسار التي مرّت بها الأمّةُ اليهوديّة ، مُستحضِرينَ الجزءَ الذي ساهمَت به العلمانيّة الغربيّة في حالةِ الانكسار تلك ، أقصدُ ما تعرّضَ لهُ اليهودِ في الهولوكوست. وعلى الرغم من نجاحِ اليهودِ في الحفاظِ على جزءٍ من عقيدتِهِم بعد كلّ ما تعرّضوا له من ويلاتٍ خلالَ التاريخ المعاصر ، فإن بقايا العقيدةِ والإيمان التي حافظنا عليها سَتُفقدُ بالكاملِ إذا ما أزيلَت دولةُ إسرائيلَ من الوجودِ، كونَ دمار دولةِ إسرائيلَ سيكونُ بمثابةِ القشة التي قصمت ظهرَ البعير بالنسبة للأمةِ اليهوديّة. وبنظري ، قَد يتقبّلُ بعضُ اليهودِ وجودَ جولةٍ جديدة من العقابِ الإلهيّ ، إلّا أن هذا العِقابَ سيبدو قاسياً جداً لدرجةٍ لا تُحتمَلُ حتى من وجهةِ نظر اليهودِ المُتديّنينَ أنفُسِهِم.

وبالعودةِ إلى مُجرياتِ حربِ الأيّامِ الستة، فقَد استيقظتُ صباحَ الخامسِ من حزيران سنة 1967م لأجدَ أبي يصولُ ويجولُ حولَ المذياع في المطبخ : لقَد دقّت طبولُ الحرب! بدايةً ، شنّت المُقاتلاتُ الإسرائيليّةُ هجوماً استباقياً دمّرَت خلالهُ جميع المُقاتِلاتِ التي امتلكتها القوّاتُ الجويّة المُصرية بينما كانَت في مُدرّجاتِها على الأرض ، وهوَ أمرٌ لَم نسمَع به حينها إلا أننا عَلمنا بهِ في وقتٍ لاحق. في الوقتِ نفسه ، أرسَلَتْ إسرائيلُ رسالةً إلى الملكِ الأردنيّ - الملِك حُسين - مفادُها : لا تشنّ حرباً علينا لكي لا نشنّ حرباً عليك ، إلّا أنّ وحداتٍ تابعةً للجيشِ الأردنيّ في القدس الشرقيّةِ شنّت قصفاً مدفعيّاً على الأحياءِ اليهوديّةِ في القدسِ الغربيّةِ ، مما دفع بكتيبةٍ من وحدةِ المظليينَ الإسرائيليينَ للقيامِ بعمليةِ إنزالٍ فوق مدينة القدس. وخلالَ ساعاتٍ معدودةٍ نجحَت القواتُ الإسرائيليّة في اجتيازِ حقلِ الألغام الذي كانَ يشكّل منطقة عازلة تفصلُ بين أماكنِ تواجدِ القواتِ الإسرائيليّة والقواتِ الأردنيّة آنذاك ، فاجتازوا الجدارَ الشائكَ وهاجموا مواقعَ الجيش الأردنيّ.

في الواقع ، لقد كانَ الهدفُ من تلكَ العمليّة ايقافَ القصفِ الأردنيّ على الأحياءِ اليهوديّةِ في القدس الغربيّةِ من جهة ، وتوفيرَ حمايةٍ للقواتِ الإسرائيليّةِ التي كانَت تطوّقُ جبلَ المشارفِ في القدس الشرقيّةِ من جهةٍ ثانية ، بينَما لم يَمتَلِك جيشُ الدفاع الإسرائيليّ أي نوايا مُسبقة لاحتلالِ البلدة القديمة في القدس حتى في اللحظةِ التي قامت بها قواتُ المظليينَ الإسرائيليّة بعمليّة الإنزالِ والإحاطةِ بأسوار القدس ، إذ كانَت القيادةُ الإسرائيليّة مُتردّدةً جداً في اتخاذ القرارِ باقتحام البلدةِ القديمة على الرغمِ من وجودِ أكثر الأماكنِ قدسيّة بالنسبةِ للديانة اليهوديّةِ بداخلِها ، هذا الموقعُ الدينيّ الذي حُظرَ علينا دخولُهُ كيهود منذ أن سيطرَ عليهِ الجيشُ الأردنيّ سنة 1948م.

وبعدَ مُباحثاتٍ مُطوّلةٌ ، صدرَ قرارٌ عن الكابينيت الإسرائيليّ صباحَ يوم السابع من حزيران باقتحام القدسِ الشرقيةِ، فيما لم تُنفّذ القيادةُ الإسرائيليّة ذلكَ القرارَ انتظاراً لردّ الملك حُسين بعدَ أن أرسلَت له القيادة الإسرائيليّة نداءاً للمرة الأخيرة عرضَت عليه انسحابَ قواتِ المظلّيين من القدسِ الشرقيّةِ مقابلَ فرضٍ للتهدئة بينَ الجانبين، إلا أن الملك حُسين تجاهلَ ذلكَ المُقترَح ، مما دفعَ بقوّاتِ المظليينَ الإسرائيليّة إلى اقتحام البلدةِ القديمةِ من باب الأسباط ، متجّهين إلى اليسار حيثُ يقعُ الحرمُ الشريف ، أو بحسبِ تسميتنا لتلك المنطقة بجبلِ الهيكل ، فيما واصلوا التقدّمَ حتى نجحوا في الوصولِ إلى الحائطِ الغربيّ.

حقيقةً ، فأنا لا أعلمُ إن كان هنالِكَ أي يهوديّ على قيدِ الحياةِ - بغضّ النظر عن مدى تديّنه - لم يتأثّر بمشهدِ قواتِ المظليينَ الإسرائيليينَ المُرهقينَ وهُم يميلونَ برؤوسهِم داخلَ الشقوقِ الموجودةِ في الحائط الغربيّ ، تلكَ الشقوقُ التي كانت قِبلةَ صلواتِنا عندما كنّا في الشتاتِ. لقد تجسّدَت عظمةُ ذلكَ المشهدِ في إحدى الصور التي تمّ التقاطُها لمجموعةٍ من جنودِ وحدة المظلّيينَ فيما كانوا يضعونَ أيديهِم على أكتافِ بعضهِم البعض أثناء وقوفهِم في ساحةِ الحائطِ الغربيّ ، بينما كانَت تتجهُ نظراتهُم لأعلى ذلكَ الحائطِ . وعلى الرغمِ من تحقيقهِم أعظمَ انتصارٍ عسكريّ في التاريخِ اليهوديّ ، إلّا أنّه لم تظهرعلى وجوهِهِم اليافعة ملامحُ الانتصار بقدر ما ظهرَت عليها ملامحُ الورعِ والرهبةِ ، تماماً كتلكَ الملامحِ التي تظهرُ على وجوهِ الحجيج بعد تأديتهِم مناسك الحجّ ، إذ لم يجسّد هؤلاءُ الجنودُ عنفوانَ الانتصار وتحقيق سيادة الدولة اليهوديّة بقدرِ ما جسّدوا في تلكَ اللحظةِ آمالَ أمةٍ عريقةٍ بأكملِها.

وبعد مضيّ أسابيع قليلةٍ على انتهاءِ الحربِ توجّهنا أنا وأبي لزيارةِ إسرائيلَ ، إذ كانَت تلكَ هيَ المرةُ الأولى التي نزورُ فيها إسرائيل ، فنحنُ ببساطةٍ لم نعدُ نطيقُ الابتعادَ عنها لمدّة أطَوَل. وخلالَ تلكَ الزيارةِ وقعتُ في حبّ تلك البلاد ، وقعتُ في حبّ مناظِرها الخلّابةِ وتنوّع تضاريسِها ، ما بينَ صحراءَ وجبلٍ وساحِل ، فيما بدا لي وكأن هذه البقعةَ الصغيرةَ من الأرضِ تختزلُ تضاريسَ كوكبِ الأرضِ بأكمله. ولأكونَ دقيقاً أكثر ، فقَد سحَرني بالدرجةِ الأولى مشهدٌ آخر: إنهُ مشهدُ التعدّديّةِ اليهوديّةِ وتنوّعُ المجتمعاتِ اليهوديّة في إسرائيل. لقد تملّكتني سعادةٌ غامرةٌ حينَ التقيتُ بيهودِ المغربِ والعراقِ والهندِ وغيرِهِم ، الأمرُ الذي عمّقَ من درايتي بتلكَ التعدّديّة العجيبة التي تجتمعُ في هويّة الشعبِ اليهوديّ ، خاصةً وأنني لم أحظَ بفرصةٍ من قبلُ للإلتقاءِ بيهودٍ من مجتمعاتٍ يهوديّة أخرى ، كوني نشأتُ وترعرتُ في أحد أحياء بروكلين التي تعيشُ بها طائفةُ يهوديّة واحدة ، وهيَ طائفةُ اليهودِ الذين تنحدرُ أصولهُم من الامبراطورية النمساويّة المجَريّة.

حقيقةً ، لقد قسّمنا الشتاتُ إلى أشلاءَ مُتناثرة مُتبعثرة في كلّ مكان ، إلّا أننا نشهدُ في تلكَ اللحظة المستحيلَ وهوَ يُصبحُ مُمكناً ، بغضّ النظر عن مدى الغرابةِ والصدماتِ والمصاعبِ التي مرّ بها ذلكَ المُستحيل قبلَ تحقّقه، إلا أننا نجَحنا بنهايةِ المطافِ في لملمةِ تلكَ الأشلاءِ في جسمٍ يهوديّ موحّدٍ مرةً أخرى.

كذلكَ فإنني لا أخفي عليكَ يا جاريَ العزيز كيفَ تملّكني حبّ الإسرائيليينَ بشِدّة، فأحببتُ جُرأتهُم ودماثةُ أخلاقهِم ، لقَد كانوا على استعدادٍ لتحقيق أفضل ما يُمكنُ تحقيقه مهما بلغَت الظروف من سوءٍ ورغمَ كلّ ما فُرِضَ عليهم من مصاعبَ وعقباتٍ على مرّ التاريخ ، وهُنا أستذكرُ قريبي الذي يُدعى يوسي هوَ الآخر، إذ عاشَ يوسي في منطقةٍ محاذيةٍ لشاطيء بحيرةِ طبريا ، فيما ترعرع وتعلّم السباحةَ هُناكَ على الرغمِ من خضوعِ تلكَ المنطقة لتهديد بقصفِ مُحتملٍ في أيّ وقتٍ من القوّاتِ السوريّةِ التي كانَت متمركزةً على مُرتفعاتِ الجولانِ حينَها ، يوسي الذي تقبّلَ حقيقة انضمامهِ إلى صفوفِ الجيشِ الإسرائيليّ لأداءِ الخدمةِ العسكريةِ والقتالِ في صفوفهِ بكلّ صدرٍ رَحبْ.

من جهةٍ أخرى ، فأنا لم أتظاهر بالعمى تجاهَ ما رأيتهُ من عيوبٍ موجودةٍ في الشخصيّة الإسرائيليّة ، حيثُ رأيتُ وقاحةَ الإسرائيليين ورأيتُ الجانبَ العاميّ غير المهذّبِ من حياتهم ، ورأيتُ الماديّة التافهة في أمّةٍ لطالما غلبَ عليها الفقر ، إلا أنّ هذهِ الأمورَ كانت مجرّد تفاصيلَ جانبيّة ، فحبّي لإسرائيلَ والإسرائيليينَ كانَ حبّاً مُطلقاً دونَ قيدٍ أو شرطٍ . لقَد عزمتُ أمري وحسمتُ قراريَ خلالَ زيارتي في فصلِ الصيف ذاك ، قرّرتُ أن أهاجرَ إلى دولةِ إسرائيلَ تحتَ أي ظرف ومهما بلغَت التحديّاتُ التي سأواجهُها أنا أو دولتي إسرائيل.

ومَرة أخرى يا جاريَ العزيز ، فإنني أستذكُركَ وسطَ احتفالي بانتصار اليهودِ منتصفَ شهر حزيران في حربِ الأيامِ الستةِ، فيما أراكَ في مخيّلتي إنساناً حزيناً كئيباً يجلسُ وسط حفلِ زفاف. أستذكِرُك بينَما تتراءى إلى مخيّلتي مشاهدُ قِطعِ القماشِ البيضاءَ وهيَ معلّقةً على البيوتِ الفلسطينيةِ بعدَ انتهاءِ الحربِ ، ومشاهدُ أناسٍ كبارٍ في السنّ تبدو عليهم ملامحُ البؤسِ بينما يمتطونَ الحمير التي تسيرُ ببطءٍ شديدٍ في شوارع القدس. أستذكرُ أيضاً مشاهدَ أطفالٍ صغار بلا أي شعرٍ على رؤوسهم حتى لا يغزوها القملُ ، فيما كانَ أولئكَ الأطفالُ يبيعون مجسّماتٍ لجِمالٍ خشبيّة وزجاجاتِ صودا فارغةٍ موجودٌ بداخلها رملٌ ملونٌ وبطاقاتٌ بريديّة مطبوعٌ عليها صورُ موشي ديّانِ كتذكارٍ لهزيمة العرب. وما يدريكَ يا جاريَ العزيز ، لعلّكَ تكونُ أحدَ هؤلاءِ الأطفال الذينَ حُفرَت وجوهِهم في ذاكرتي . لقَد حاولتُ كثيراً أن أنسى تلكَ الوجوه ، حاولتُ كبتَ شفقتي عليها ، مُذكّراً نفسي بأننا بالكادِ نجَحنا في الإفلاتِ من إبادةٍ مُحقّقة كانَت ستُرتكبُ بحقّنا خلالَ تلكَ الحربَ.

أريدُك أيّها الجارُ أن تتخيلَ حديثاً عاديّاً يدورُ بينَ مواطِنينِ إسرائيليّينِ فيسألُ أحدهُما الآخرَ : ماذا كانَ سيفعلُ بِنا العربُ لو انتصروا في هذه الحرب؟ لقد شاهدتُ في مخيمِ العريش للّاجئينَ الفلسطينيينَ بعضَ الرسوماتِ التي رسمَها الأطفالُ الفلسطينيّون في محاولةٍ منهُم لتخيّل انتصارهِم أثناء حربِ الأيّامِ الستة، حيثُ رسَموا على الجُدرانِ جنديّاً عربيّاً يُطلقُ النارَ باتّجاهِ يهوديّ مُتديّن ، فيما رسموا مجموعةً من الجماجمِ وقَد وضعوا عليها نجمة داوود. وعلى الرغم من فظاعةِ هذه الرسوم ، إلا أنّها لن تمسحَ من ذاكِرَتي وجوهَ الأطفالِ الفلسطينيينَ البائسينَ الذين بدت عليهم ملامحُ الضياعِ في شوارعِ القدس الشرقيّةِ عقبَ انتهاء حرب الأيّامِ الستة، وكلّما أغمضتُ عيني فإنّ وجوهَهُم تتراءى ليَ وكأنهُم أماميَ الآن .

ونتيجةً لتلكَ المستجدّات على أرض الواقع والمتمثّلةِ بانتصار إسرائيلَ في حرب الأيام الستة ، فقد تغيّرَت خريطة إسرائيلَ من خلال توسّعِها على ثلاثِ مراحل : بدايةً من التوسّع في الأرضِ التي تمّ شراؤُها خلالَ الفترة التي سبقَت قيام دولةِ إسرائيل ، مروراً بالأرضِ التي تمّ السيطرةُ عليها عقبَ انتهاء حرب سنة 1948م ، وانتهاءاً بترسيمِ حدودِ دولة إسرائيلَ الجديدة عقبَ انتصار إسرائيلَ في حربِ الأيام الستةِ. لقَد تقبّلَ المُجتمعُ الدوليّ المرحلةَ الأولى والثانية من توسّع دولةِ إسرائيلَ ولم يُجادِل في مدى شرعيّتهما ، إذ كانت المفاوضاتُ بين الجانبين الإسرائيليّ الفلسطينيّ تستندُ إلى حدودِ دولةِ إسرائيل سنة م1949 ، بيدَ أنّ المُجتمعَ الدوليَّ يُبدي تحفّظهُ على المرحلةِ الثالثةِ من مراحلِ التوسّع الإسرائيليّ، وهيَ مرحلةُ ضمّ إسرائيلَ لأراضي الضفّة الغربيةِ وقطاع غزة والتي لا زالَت موضِعَ نزاعٍ حتى الآن.

وبالعودةِ إلى تلكَ الفترة الزمنيّة، فقَد ظهرَت أوّلُ مستوطنةٍ يهوديّة في الضفة الغربية حينَها والتي كانتَ مستوطنة كفار عتصيون، تلكَ المستوطنةُ التي بُنيَت جنوبيّ القدس على الطريقِ الواصل بين القدس والخليل ، والتي أقيمَت في شهر أيلول من سنة 1967م ، أي بعدَ ثلاثةِ أشهر من انتهاءِ حربِ الأيّام الستة. لقَد بُنيَت تلكَ المستوطنة بدون أي نقاش حكوميّ أو قرارٍ من الكابينيت أو أي خطّة توسعيّة للسيطرة على الأرض، بل كانَت الأمورُ أبسطَ من ذلكَ بكثير ; إذ توجّه مجموعةٌ من الشبّانِ اليهودِ إلى تلال كفار عتصيون وشرعوا بِبناءِ المستوطنةِ ثم طالبوا لاحِقاً بالسماح لهُم بإقامةِ تلك المستوطنة، فيما لم يُظهر رئيسُ الوزراءِ الإسرائيليّ آنذاك ليفي أشكول أي موقفٍ صريحٍ مما حدَث.

ويعودُ سببُ انعدام الجدلِ حول الموافقةِ على إقامة تلكَ المستوطنةِ إلى حقيقةِ وجودُها أَصلاً في تلكَ المنطقة قبل سنة 1948، أي قبلَ قيام دولة إسرائيل ، إلا أنّها دُمّرت تماماً بعد الحرب، فيما وُلدَ أولئكَ الشبّانُ الصغارُ في تلك المستوطنة إلا أنَهُم اضطروا لمغادرتها بعدَ حربِ الاستقلال . بمعنى آخر ، لقد عادَ هؤلاءِ الشبّانُ إلى مكانِ سكنهِم الأصليّ الذي تركوه نتيجةً لاندلاعِ حرب 1948.

لقد جسّدَت كفار عتصيون جَرحاً مفتوحاً في الروحِ الإسرائيليّة نتيجةً لحدَثٍ أليمٍ وقعَ في المستوطنة قبل اندلاع الحرب، إذ استسلمَ حُرّاس كفار عتصيون للمقاتلينَ الفلسطينيينَ ، إلا أنّ الفلسطينيينَ قاموا باعدامِ أولئكَ الحُرّاس بدمٍ باردٍ في اليوم الذي سبقَ الإعلانَ عن استقلال دولة إسرائيل . لقَد كانَت كفار عتصيون أوّل مستوطنةٍ يهوديّة في الضفّة الغربيّة تستعيدُ سكّانها اليهودَ الذين سكنوها حديثاً، بالتالي لم تكُن استعادةُ كفار عتصيون نابعةً من أي مزاعمَ توراتيّة قديمة - على الأقل في بداية الأمر - بَل كانَ الرأي العامُ الإسرائيلي يرى في عودةُ أولئكَ اليهودِ إلى كفار عتصيون تعويضاً عمّا أسفرَ عنهُ ذلكَ الحادثِ الأليم .

وبعدها بحوالي ستة شهورٍ، توّجّهَت مجموعةٌ يهوديّة من المستوطنينَ صوبَ مدينةِ الخليل ، ثاني أقدسِ مدينة في الديانة اليهوديّة بعد القدس ، إلا أنّ الأمور لم تجرِ بتلكَ السلاسةِ مثلما جَرَت بالنسبة لإقامةِ مستوطنةِ كفار عتصيون ، بل كانت إقامةُ تجمّعٍ استيطانيّ في الخليل موضِعَ جدلٍ شديدٍ بين الإسرائيليين لدراسةِ عواقب تواجدِ اليهود بينَ التجمّعات السكانيّة الفلسطينية الرئيسية .

حقيقةً ، تشكّلُ مدينة الخليلِ التي دُفنَ فيها ابراهيمُ وزوجتهُ سارة أحدَ أهمّ الركائز التي يستندُ عليها اليهودُ لاثباتِ صحّة ادّعاءاتهِم التوراتيّة المتعلّقة بوجود اليهودِ على هذه الأرض منذ آلافِ السنين ، إلا أنّ استعادةَ مدينة الخليل كانت - كما حدث في كفار عتصيون- استعادة لأرضٍ سكنها اليهود حديثاً ، حيثُ سكنَ اليهودُ مدينةَ الخليل قبل عدةِ عقودٍ ، إلّا أنّهُم تركوها كلّياً عقبَ مجزرةِ سنة 1929م ، تلكَ المجزرةُ التي أدّت إلى اندثارِ مجتمعٍ يهوديّ بأكملهِ من مدينة الخليلِ بعد أن سكنَها لفترةٍ طويلةٍ من الزمن.

بالتالي فقد كانَ بناءُ أوّلُ مُستوطَنَتَينِ يهوديّتين في الضفةِ الغربية عبارةً عن استعادةٍ لأراضٍ وتجمّعاتٍ يهوديّةٍ سكنَها اليهودُ قبلَ قيام دولةِ إسرائيل ، إلا أنه تمّ تدميرهُما وتشريدُ اليهود منهما مطلع القرن العشرين ، الأمرُ الذي يفسّرُ عدم تقبّلِ الإسرائيليينَ لفكرةِ وصفِ بناءِ هاتين المستوطنتين على أنّهُ بدايةُ الحركةِ الاستيطانية العشوائيّة في الضفة الغربية . بطبيعةِ الحال ، فقَد أدركَ المستوطنونَ عواقبَ ما قاموا به على المدى البعيد ، ولربّما أدركتَ أنتَ أيضاً تلكَ العواقبَ يا جاريَ العزيز.

وعقِبَ انتهاء حربِ الأيام الستة مباشرةً ، أكّدت الجامعةُ العربيّة - كممثلٍ للعالم العربي- مرّةً أخرى رفضَها القاطعَ لوجودِ دولةِ إسرائيلَ ، الأمرُ الذي منحَ شرعيّة لإقامةِ المستوطناتِ اليهوديّة من وجهةِ نظر الكثير من الإسرائيليين . لقد كانَ بروفسور الفلسفة اليهوديّة الراحل يوسفِ بن شلومو أحدَ أبرز قادة الحركة الاستيطانية ، حيثَ بدأ نشاطهُ السياسيّ بتوقيع عريضةٍ تُعارضُ بشدّة إقامة تجمّعاتٍ يهوديّة في مدينة الخليل ، إلّا أنّهُ أدركَ لاحِقاً أن فكرةَ الأرض مُقابلَ السّلام كانت طرحاً ساذجاً بعد أن رأى عدم جاهزية الدولِ العربيّة للاعترافِ بوجودِ دولة إسرائيل ككيانٍ شرعيّ أيّاً كانَت حدودُها.

في الوقتِ ذاته ، كان العنفُ الفلسطينيّ المُتواصِلُ تجاهَ الإسرائيليين يهدفُ بالدرجةِ الأولى إلى إرسالِ رسالةٍ واضحةٍ للشعبِ الإسرائيليّ مغزاها استحالةُ تقديمِ أيّ تنازلاتٍ من قبل الفلسطينيين للإسرائيليين ، إذ قامَت الجماعاتُ المُسلّحة التي يقودُها ياسرعرفات بهجماتٍ عديدة ضدّ الجانبِ الإسرائيلي ، تلكَ الهجماتُ التي شمِلَت تفجيرَ باصاتِ المدارس واحتجاز طلبةٍ إسرائيليين كرهائنَ وإعدام حُجاجٍ يهودَ قادمينَ إلى إسرائيلَ في أحد المطارات الدوليّة، إضافةً إلى ارتكابِ مجازرَ بحقّ اليهودِ الآمنين في بيوتهِم ، وإعدامَ أحدِ الأطفال عن طريقِ دكّ رأسهِ بالحجارةِ حتى الموت ، وصولاً إلى عمليةِ اغتيالِ الفريقِ الإسرائيليّ المُشارك في الألعابِ الأولومبية في برلين.

لقَد عاشَ الشعبُ الإسرائيليّ فظاعةَ تلكَ الأعمال المروّعة ، فيما اعتبرَها الإسرائيليونَ مقدّمةً لأعمالِ عُنفٍ مُمنهجةٍ تهدفُ إلى ارتكابِ إبادةٍ جماعيّةٍ بحقّ اليهودِ من قبل الحركةِ الوطنيّة الفلسطينيّة ، بالتالي فقد وصَلتهُم الرسالة التي أرادَ الفلسطينيونَ إرسالها ، وهي استحالة قبولِ الفلسطينيين لتقديمِ أي تنازلاتٍ للجانبِ الإسرائيليّ تحتَ أيّ ظرف.

ومع ذلك ، فقَد ظلّ بناءُ المُستوطناتِ في الضفّة الغربية مُحدوداً جداً بداية السبعينيّات، أي الفترة التي تولّى فيها حزبُ العمل الإسرائيليّ رئاسةَ الحكومةِ الإسرائيلية - والذي تمّ استبدالهُ باليمين الإسرائيليّ لاحقاً -. لقد كانَ حزبُ العَملِ معنياً بالوصولِ إلى اتفاقيّة سلامٍ يعيدُ من خلالها الضفّة الغربيّة إلى الأردن ، كونَ الأردنيين - بحسبِ إدّعاءاتِهم حينها - كانوا يتحدّثون كممثّلينَ عنِ القضيّة الفلسطينية ، وكدليلٍ على التزام حزبِ العُمل بهذه الرؤية، فقد كانَت حكومة حزبِ العملِ تدفع بالجيش لإزالةِ أية بؤرةٍ استيطانيّة تقيمُها الجماعاتُ الاستيطانية في الضفة الغربية.

ظلّ اليسارُ الإسرائيليّ مُسيطراً على الاستيطانِ في الأراضي الفلسطينية حتى تاريخ العاشر من تشرين الثاني سنة 1975م تحديداً، وهوَ اليومُ الذي صَوّتتْ فيه الأممُ المُتحدة لصالحِ قرارٍ يُصفُ الحركةَ الصهيونية بأنها حركةٌ تجسّدُ شكلاً من أشكالِ العُنصريّة ، بموافقة 72 دولة واعتراضِ 35 دولة ، فيما امتَنَعَت 32 دولةً عن التصويت على هذا القرار. وبإصدار الأمم المتحدة لهذا القرار، فقد أصبحَت الحركةُ الصهيونية أوّل حركةٍ وطنيّة في العالم يتمّ وصفُها بهذا الوصفِ المُشين، فيما كانَ هذا القرارُ نتيجةً لمساعي الدولِ الإسلامية والإشتراكيّةِ الأعضاء في الأمم المتحدة إلى ضمانِ تمرير أي قرارٍ لا يصبّ في مصلحةِ إسرائيل .

تظاهرَ الآلافُ من الشبّان اليهودِ شمال الضفّة الغربية - السامرة بحسبِ تسميتها اليهودية - مُتجمّعينَ حولَ سكّة القطار العثمانيّ ردّا على ذلكَ القرار، فيما نصبوا خيماً وسط الطين الذي سبّبتهُ أمطارُ الشتاء ، رافعين لافتة كُتبَ عليها : هذا شارعٌ صهيونيّ ، بينَما صرّح أحدُ نوابِ الكنيست - كانَ نائباً جديداً في الكنيست حينها - يُدعى إيهود أولمرت بأنّ ما نقومُ به الآن هو الردّ الصهيونيّ المُناسبُ على قرار الأمم المتحدة ذاك. وبالمناسبة ، فقد طرحَ إيهود أولمرت عندما شغلَ منصبَ رئيس الوزراء سنة 2008 خطةً للسلامِ تتضمنُ إقامة دولةٍ فلسطينيّةٍ في الغالبية العُظمى من مساحة الضفة الغربية وقطاع غزة ، إلا أنّ القيادة الفلسطينية رفضَت هذا العرضَ جملةً وتفصيلاً.

وعلى أيّ حال ، فقَد أصبحَت حكومة حزبِ العملِ اليساريّ مُتردّدة إلى حدٍ ما في التعاملِ مع قضيّة الاستيطان بعد أن كانَت حازمةً جداً في الردّ على تلكَ التظاهرات بإصدار أوامرَ مباشرة للجيش بإخلاء أي بؤرةٍ استيطانيّة يُقيمُها المستوطنون، فيما انحازَ الرأي العامُ الإسرائيليّ لِلمُستوطنين ردّاً على قرار الأممُ المتحدة ذاك. وخلالَ تلكَ الفترة ، سمحَت الحكومة الإسرائيليّة لمجموعةٍ من المستوطنين بالبقاءِ في أحد مُعسكراتِ الجيش الأردنيّ سابِقاً والتي كانَت بالقرب من أحد مُعسكرات الجيش الإسرائيليّ. بطبيعة الحال ، لم يكُن قرارُ الأمم المتحدة السببَ الوحيدَ الذي أدّى إلى تشجيع النشاطِ الإستيطانيّ ، خاصةً بعد انتخابات 1977م والتي فازَ بها حزبُ الليكود اليمينيّ الإسرائيليّ مُترأساً الحكومة آنذاك.

جاريَ العزيز ، إن ردّة فعل الرأي العام الإسرائيلي تشيرُ إلى أمرٍ مهمٍ يصفُ طبيعة الشخصيّة الإسرائيلية: عندما يوصفُ الإسرائيليونَ ظُلماً وبُهتاناً بمثلِ هذا الوصفِ المُهين فإننا نتّحدُ ونقوّي جبهَتنا من الداخِل ، إذ كانَت تلكَ إحدى ايجابيات ذلكَ القرار الذي يحاولُ عزلَ دولة إسرائيل ونزعَ شرعيّتِها والتي صبّت بنهاية المطاف في مصلحةِ اليمين الإسرائيليّ.

من ناحيةٍ أخرى ، فإنّ العكسَ صحيحٌ أيضاً في هذه الحالة ، بمعنى أنّ الشعبَ الإسرائيليّ مُستعدٌ للمجازفةِ وتقديمِ التنازلاتِ في سبيلِ الوصولِ إلى السّلامِ إذا ما تمّ احترامُ شرعيّةِ دولةِ إسرائيلَ والاعترافُ بها ، وهذا ما حدثَ تماماً سنة 1977 عندما زار الرئيسُ المصريّ أنور السادات مدينةَ القدس وأعلنَ من هُناكَ اعترافهُ بدولةِ إسرائيل. في المقابل، دعمَ الرأي العامُ الإسرائيليّ بقوّةٍ الانسحابَ الإسرائيليّ الكاملَ من صحراء سيناء ، والتي احتلّتها إسرائيلُ عقب حربِ الأيامِ الستة ، فيما تضمّنَ ذلكَ إزالةُ كافّة المُستوطنات الإسرائيليّة من هناك.

لاحِقاً ، وعقبَ انهيار الاتّحادِ السوفييتيّ والمُعسكر الشيوعيّ الاشتراكيّ بأكملهِ بداية تسعينيات القرن المُنصَرِم ، صوّتَت الأمَمُ المُتحدة مرةً أخرى على قرارٍ يُبطلُ قرارَها السابق الذي وصفَ الحركة الصهيونية على أنها شكلٌ من أشكال العنصريّة ، فيما أقامَت عشراتُ الدولِ علاقاتٍ دبلوماسيّة مع دولةِ إسرائيلَ عقبَ هذا القرار. لقَد كانَ هذا القرارُ الذي يزيلُ صفةَ العُنصريّة عن الحركة الصهيونية أحدَ أهمّ الأسبابِ التي جعلَت الحكومة الإسرائيليّة تتقدّم بخطواتٍ واثقة تجاهَ مُباحثات أوسلو للسلام ، وهوَ أحدُ أهمّ الأسبابِ التي حَشَدَت دعمَ غالبيّةَ المجتمعِ الإسرائيلي للحكومة الإسرائيليّة خلالَ مباحثات أوسلو، على الأقلّ في بدايتها.

لقِد شهدَ المُجتمعُ الإسرائيلي توجّهاً كبيراً لدعمِ الحركة الاستيطانيّة في الضفة الغربية وقطاع غزة عقبَ انتهاءِ حربِ الأيام الستة ، خاصةً وأننا نجَحنا بعدَ جُهدٍ جهيدٍ في العودة إلى الأرضِ التي تمثّل جوهرَ التاريخ اليهوديّ بالنسبة لنا ، عُدنا إليها بعد حربٍ خضناها دفاعاً عَن أنفُسِنا في سبيل حماية إسرائيلَ من خطر دمارٍ وشيك. من ناحيةٍ أخرى ، فإن انسحابَنا من الضفةِ الغربيةِ من شأنه أن يضعَ أمنَ إسرائيلَ على المحكّ ، خاصةً وأنها كانَت مطمعاً للدولِ العربيّة بهدفِ إستغلالِها لشنّ هجماتٍ ضد إسرائيل ، فيما يزيدُ الرفضُ العربيّ المُستمرّ للاعتراف بإسرائيل من احتماليّة محاولةِ جيراننا من الشعوب العربية مُهاجمةَ إسرائيل عاجِلاً أم آجِلاً ، بغضَ النظر عن الاتفاقيّاتِ التي قد يوقع عليها زعماؤهُم وقادتُهُم. وعلى أي حالٍ ، فليَضع أي شعبٍ نفسهُ في مكانِنا ، هلَ سيقومُ بالتخلّي عن فكرةِ استيطانِ أراضٍ امتلَكناها منذ آلاف السنين؟

لُم تكُن الأصواتُ التي عارضَت الفكرَ الاستيطاني أقلّ تأثيراً من الأصواتِ التي دعمت الاستيطانَ في المجتمع الإسرائيلي، إذ ظهرَت أصواتٌ عديدة طالبَت بايقاف التوسّع الاستيطاني مُحذرةً من إعادة استيطان " الأراضي " - التسمية التي اختلفَ عليها الإسرائيليون لوصفِ الضفة الغربية وقطاع غزة - حتى في خضمّ صيف 1967 المُلتهِب. خِلالَ تلك الفترة بالتحديد ، كتبَ الروائيّ اليهوديّ عاموس عوز- الذي أصبحَ واحداً من أهمّ الروائيينَ الإسرائيليين لاحِقاً - مقالاً جريئاً حذّر فيه من مغبّة الإقدامِ على احتلالِ الضفة الغربية وقطاع ، موضّحاً بأنهُ لا يوجدُ شيء على الإطلاق يُدعى " الاحتلالَ الحَميد " ، أو " الأراضي المُحرّرة " ، وبحسبِ رأي عوز فإن الحريّة للشعوبِ فقط ، لا للأرضِ.

فعلياً ، فقد كان نجاحُ الحركة الاستيطانية نتيجةً للتقاربِ بينَ المخاطرِ التي تهدّدُ أمنَ إسرائيلَ من جهة ، والنداء التاريخيّ لليهود للتواجد على أرضِ أجدادِهِم من جهة أخرى ، وهيَ الدعوة التي شعرتُ بأنها موجّهةٌ لي عندما هاجرتُ إلى إسرائيل في بداية ثمانينيات القرن المُنصرم ، أي الوقتَ نفسهُ الذي شهدِ تشييدَ وبناءَ العديد من المستوطنات . إنني أتّفهّم ما طالبَ به عاموس عوز من ناحيّة عقلانيّة وأجدهُ مُقنعاً إلى حدٍ ما ، فالاستيطانُ قد يتحوّلُ إلى كارثةٍ مُحدقةٍ بالإسرائيليين والفلسطينيين على حدٍ سواء. في الوقتِ نفسه ، لم أتمكّن من اخفاءِ ذهولي وانبهاري الشديدَ بمشهدِ البيوتِ البيضاءَ وهيَ تظهرُ شيئاً فشيئاً في الجهة المقابلةِ للتلالِ البيضاء الخالية في تلكَ الفترةِ التي كنتُ فيها مُعدّا للتقارير التي تختصّ بشؤون المستوطنات. لقَد ذُهِلتُ أيضاً بمشهدِ الشبّانِ الإسرائيليينَ الذين غمرتهُم روحُ الاستبسالِ في سبيلِ إجبار العالمِ أجمع على الاعترافِ بمطالِبِنا ، تلكَ الروحُ التي لولاها لما استطعنا البقاءَ كأمةٍ يهوديّة.

وفي أحدِ الأيام ، دُعيتُ من قبلِ صديقٍ لي لحضور احتفالٍ بمناسبة إقامةِ مستوطنةٍ على أرض تقوع التوراتية بالقرب من بيت لحم على أطراف المنطقةِ الصحراوية. علّق منظمو الاحتفالِ لافتة كُتبَ عليها كلماتُ النبيّ عاموس ، أو" رجلُ تقوع " كما لقبّته التوراة ، حيثُ كُتبَ عليها : " **وَأَرُدُّ سَبْيَ شَعْبِي إِسْرَائِيلَ فَيَبْنُونَ مُدُنًا خَرِبَةً وَيَسْكُنُونَ، وَيَغْرِسُونَ كُرُومًا وَيَشْرَبُونَ خَمْرَهَا، وَيَصْنَعُونَ جَنَّاتٍ وَيَأْكُلُونَ أَثْمَارَهَا، وَأَغْرِسُهُمْ فِي أَرْضِهِمْ، وَلَنْ يُقْلَعُوا بَعْدُ مِنْ أَرْضِهِمِ الَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ، قَالَ الرَّبُّ إِلهُكَ".** لقَد انتابَني شعورٌ مُذهلٌ في تلك اللحظةِ ، شعورٌ بتحقّق نبوءةٍ مضى عليها قرابة 2500 عام ، شعورٌ يزيلُ كلّ ما كنتُ أحملهُ من شكوكٍ وتردّدٍ تجاهَ قضية الاستيطان.

حقيقة، لَم أشعُر خلالَ ترحالي في هذه الأرضِ بشعور الابن العائدِ إلى أرضهِ مثلما شعرتُ به خلالَ رحلةِ حجّي التي أديتُها في مدينة الخليل. إنني من عُشاق مدينة تل أبيب التي تُذهلني بتنوّع الحياة العاميّة فيها وبقدرتها المستمرة على إعادة تعريفِ نفسها بشكلٍ مُختلفٍ من وقتٍ لآخر، إلّا أنّها مدينةُ يافعةٌ جداً ، بالكادِ تبلغُ من العمر قرناً من الزمن إذا ما قارنّاها بتاريخِ الأرضِ اليهوديّة في الشرق الأوسط. أما في مدينةِ الخليل فالشعورُ مُختلفٌ كليّاً ، شعورٌ غامرُ بالاحتضانِ والحبّ من جميع اليهودِ الذينَ سبقوني لِتأدية الصلاةِ لإلهِ ابراهيم وسارة بكلّ لهجاتِ الشتاتِ اليهوديّ

إنني أكتبُ عن " عودَتِنا " للخليل ، لكن في الحقيقة لم يُغادِر اليهودُ مدينة الخليلِ بمحضِ إرادتهِم في أي وقتٍ من الأوقات. تاريخياً ، لَم تكُن علاقةُ اليهودِ بمدينة الخليل خلالَ الفترة التي سبَقَت نفي اليهودِ من هذه الأرض فقط ، بل استمرّت علاقةُ اليهودِ بالخليلِ حتى في تلكَ الفترة التي أمضاها اليهودُ في الشتات ، حيثَ كانَ الدليلُ على ذلك الارتباطِ العميق لليهود بهذه الأرضِ موجوداً في المقبرة اليهوديّة في الخليل ، والتي أقيمَت خلال فترة العصور الوسطى ، بالتحديد في القرن السادس عشر بالقرب من كنيسِ "ابراهيم أفينو" ، ذلكَ الكنيسُ الذي تم تدميرُهُ بعد مجزرة سنة 1929 ، فيما تمّ تحويلُها إلى زريبةٍ للحيواناتِ لاحقا. أما الثقوبُ التي وُجدَت على مداخل الأبواب فهي علامةٌ على وجودِ المزوزاتِ التي يُعلّقها اليهود على الأبوابِ عادة، والتي تم تمزيقُها وتحطيمُها هيَ الأخرى.

جاريَ العزيز ، كيف بإمكانِنا الابتعادُ عن مدينة الخليل؟ إنني أتفهّم من ناحية عاطفية حجّة المستوطنين حينَ يطالبون بالعيش في مدينة الخليل ; إذ يُصرّون على أن اليهودَ لا يملكونَ أي جذورٍ في مكانٍ آخر من هذا العالمِ إن لم تكُن لهُم جذورٌ في مدينة الخليل.

ولسخريةِ القَدَر، فقَد كانَت مدينةُ الخليلِ سبباً لكُرهيَ لفكرة الاستيطانِ رغمَ أنّها كانَت سبباً من أسبابِ دعمي وتشجيعي لها. ففي ليلةٍ خريفِةٍ من ليالي سنةِ 1984 توّجهتُ إلى أحد شوارعِ الخليلَ لإعدادِ تقريرٍ عن أحدِ الاحتفالاتِ اليهوديّة التي تمّت هُناك ، حيث كانَت تلكَ الليلةُ التي تَلَت احتفالاً يهودياً يُطلق عليه " سِمحات توراه " ، وهوَ احتفالٌ سنويّ يحييهُ اليهودُ بالرقصِ والغناءِ حاملينَ لفائفَ التوراةِ بأيديهِم تعبيراً عن فرحِهِم الشديد بإتمامِ قراءةَ التوراةِ خلال ذلكَ العام .
لقَد كان من المُفترضَ أن تنتهي الاحتفالاتُ في الليلة السابقة ، إلّا أن بعضَ المستوطنين مدّدوا الاحتفال لِليلةٍ إضافيّة، فكانَ المستوطنونَ يرقُصونَ ويغنّون طيلةَ تلكَ الليلة أيضاً.

تعبّرُ هذهِ الاحتفالاتُ عن عادةٍ جميلةٍ تجمعُ ما بينَ الوقار والبهجةِ في الوقتِ نفسه ، إلا أنّ ما حدثَ خلالَ هذا الاحتفال تلكَ الليلة لم يكُن مُبهِجاً على الإطلاق ، إذ قامَت قواتُ الجيش الإسرائيليّ بإغلاق الطرُقِ والمحالّ التجاريّة وفرضِ حظر للتجوّل على المواطنينَ الفلسطينيين المُقيمينَ في تلكَ المنطقةِ حتى يتسنّى للمستوطنينَ إقامةُ هذا الاحتفال.

وفي مشهدٍ مُتناقضٍ من مشاهدِ تلكَ الليلة ، شاهدتُ اليهودَ في الشوارع التي تمّ إخلاؤها من السكانِ الفلسطينيين وهُم يرفعونَ لفائفَ التوراةِ التي تحملُ بينَ طيّاتِها تذكيراً لنا بيومٍ كُنّا فيهِ غُرباءَ في مصر ; الأمرُ الذي يفرضُ علينا أن نُعاملَ الغرباءَ بمنتهى العدلِ والإنصاف ، حيثُ تؤكّدُ التوراةُ على فكرةِ تفهّم واحترامِ حاجاتِ الغرباءِ من خلالِ تِكرارِ هذه الآية أكثر من أي آية آخرى في التوراة ، أكثرَ حتى من الآياتِ التي تَحضّ على الإلتزام بيومِ السبت والإلتزام بالأكل الكوشير - الأكل الحلال حسبَ الديانة اليهودية - .

لقَد رأيتُ في حظر التجوّل ذاكَ مجازاً تعبيرياً عن الأضرار الكارثيّة التي يسبّبها الاستيطانُ ، إنّها خطيئةٌ تتمثّل في امتِناعِك عن رؤية الواقع الذي يحيطُ بك، إذ تُصبحُ مُستغرقاً باحتفالِك وفرحِك بقصتك البطوليّة لدرجةٍ لا تجعُلك واعياً لعواقبِ ما تقومِ به ، لدرجةٍ تمنعُك من رؤيةِ ما يدفعُهُ شعبٌ آخر كثمنَ لاحتفالِكَ وفرحِك.

جاريَ العزيز ، إنني مؤمنٌ وبشدّة بحقيقةِ ارتباطِنا التاريخيّ والدينيّ بمدينة الخليل، بَل وبأرض إسرائيلَ المُمتدّة من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط . بالنسبة لي ، فإنّ الضفة الغربية وقطاع غزة لا تعني ليَ أراضٍ محتلة ، بَل هي أرضُ يهودا والسامرة ، وهذا هوَ الاسمُ الذي أطلقهُ عليها أجدادُنا اليهودُ عندما عاشوا هُنا منذ نزول التوراة ، بالتالي فإن اليهودَ الذي يسكنون يهودا والسامرة ليسوا غرباءَ عن هذه الأرض. في الوقتِ نفسه ، فإنني - كالعديد من الإسرائيليين -على استعدادٍ تامٍ للتنازلِ واقتسامِ الأرضِ بيني وبينَك إذا ما اقتنعتُ بأنّ هذا سيقودُ إلى تحقيق السلام بيننا ، وبأن اقتسامَنا للأرضِ لن يشكّل مصدراً للخطر الذي يهدّد أمني وسلامتي على هذه الأرض. بالنسبة لي وللكثير منَ الإسرائيليين الذينَ يدعمون حلّ الدولتين ، فإن شعورَنا بالأمنِ والأمانِ من قِبلِ الجانب الفلسطيني هو العاملُ الأكثر أهمّية في تحديدِ مصير الضفة الغربية وقطاع غزة ، لا مدى ارتباطنا التاريخيّ والدينيّ بتلكَ الأراضي. بالنسبةِ لي أنا شخصياً ، فإن تهديدَ أمنِ إسرائيلَ هوَ السببُ الوحيدُ والشرعيّ الذي سيبدلّ من قناعتي ويجعلُني أحيدُ عن حلّ الدولتين وأرفضُ اقتسام الأرضِ بيني وبينك.

وبالعودةِ إلى تاريخيّ الشخصيّ ، فقد كانَت سنة 1989 هي السنةُ التي التحقتُ فيها بجيش الدفاع الإسرائيلي ، أي الفترة التي بلَغَت الانتفاضة الأولى ذروَتها ، فيما تمّ إرسالي لأداء الخدمة العسكرية مع وحدةٍ من الجيش في مخيمات اللاجئينَ في قطاع غزة ، تلكَ المخيّماتُ التي كانَت عبارةً عن بيوتٍ مُهترئةٍ مسقوفة بقطع من الحديد المموّج والمُثبّت على أسطحِ البيوتِ بالحجارة والصخور الثقيلة ، فيما كانَت مياهُ الصرفِ الصحيّ تجري في الشوارع من خلالِ بعضِ الشقوق الصغيرة. وهُناك بالتحديد بدأتُ أدركُ معنى كلمة الاحتلالِ بالنسبةِ للشعبِ الفلسطيني ، إذ كنا نقتحمُ المخيماتَ في النهار بهدفِ " إثباتِ وجودِنا " ، إذ حيثُ كان الجيشُ يضعُ تواجدَنا هناك في هذا السياق ، فيما كنا نقتحمُ البيوتَ ليلاً بحثاً عن أشخاصٍ مُشتبهٍ بهم بالقيام بأعمالِ عنفٍ ضد دولةِ إسرائيلَ أو أشخاصٍ لم يدفعوا فواتير الماء . حقيقةً ، لم نكُن نقومُ بمهامِ الجيشِ بقدرِما كُنّا نقوم بمهامّ الشرطة ، حيثُ كُنا نفرضُ على أولئكَ الناس احتلالاً بدا ليَ وكأننا سنعجزُ عن إيجادِ مبرّراتٍ لهُ معَ مرور الزمن.

إنني أذكرُ ما قُمنا بهِ في ليلةٍ منَ الليالي حينَ توّجهنا إلى أحدِ البيوتِ التي رُسِمَ على جدارٍ من جُدرانِها رسوماتٌ غرافيتيّة مُعاديةٌ لدولةِ إسرائيل ، طرَقنا بابَ ذلك البيت ففتحَ البابَ رجلٌ في الأربعينيّات من عمره بدا عليه الشعور بالنعاس، فأمرناهُ بإزالة تلك الرسوم الموجودة على حائطِ منزله حالاً . خرجَ الرجلُ من بيتهِ وبدأ هوَ وأطفالهُ بدهانِ الحائطِ ليُزيلَ تلكَ الرسوم المُسيئةَ لنا فيما سلّطنا أضواءَ المركبة العسكرية باتجاه الحائطِ وراقبناهُمَ بصمت.

وفي موقفٍ آخر، ألقيَتْ في أحدِ الأيام قنبلةٌ يدويّة على الجنودِ الإسرائيليينَ بالقربِ من مداخلِ أحد الأسواق ، ورغمَ أنها لم تَنفجر إلا أن الأوامرَ التي أُعطيَتْ لنا كانت واضحة وصريحة: أغلقوا جميعَ المحلاتِ في ذلك السوق. توّجهنا إلى أصحابِ المحلّات والباعةِ طالبينَ منهُم بكلّ لباقةٍ إغلاقَ محلّاتهِم . لقد كنا نؤدي الخدمة العسكرية رغم أننا لَم نكُن صغاراً في السنّ ، بالتالي كانَ يعترينا الخجلُ والتردّدُ عندما كنا نتحدّث إلى أولئكَ الباعة ، كوننا نتفهّم أن حالَنا يشبهُ حالهُم ، فنحنُ وهُم بنهايةِ المطافِ آباءٌ نركضُ خلفَ لقمةِ العيش لنطعمَ أبناءَنا ، إلا أن الباعةَ كانوا يتجاهلونَ أوامِرنا عندما كانوا يشعرونَ بتردّدُنا أثناء الحديثِ معهُم . فجأة ومن دون مقدّمات، جاءَ أحدُ ضبّاطِ الجيشِ إلى المنطقة ، وبدون أن يتفوّهَ بأي كلمةٍ ، توجهَ صوبَ أحد محلّاتِ الخُضار مُمسِكاً بصندوقِ ليمونٍ ثم حملهُ وألقى به على الأرض ، وخلالَ ثوانٍ معدودةٍ أغلَقَت جميعُ المحلّات أبوابُها!

أمّا القصّةُ التي لطالَما علِقَت بمخيّلتي فكانَت عندما أحضِرَ مُراهقٌ فلسطينيّ مُتهّم بإلقاء الحجارة إلى خيمتنا العسكرية داخلَ معسكرٍ من معسكرات الجيش. كان ذلك الولدُ سميناً بعض الشيء ، تجمّع عددٌ من جنودِ وحدة حرسِ الحدود حولهُ بينما عيونهُ مغمّاةٌ ، فيما أمرهُ أحدهُم بترديد هذه العبارة : " واحَد حمّص واحد فول ، انا بحبّ مشمارغفول " ، أي أنه يطلبُ من فلسطينيّ أن يعبّر عن حبه لوحدةِ حرس الحدودِ في الجيشِ الإسرائيليّ. ردّد الولدُ الفلسطيني تلك العباراتِ التي تنتهي بنفسِ القافية ، فيما عمّ الضحكُ أرجاءَ المكانِ.

تبدو هذه القصةُ تافهّة بعض الشيء ، فذلكَ الولدُ لم يتعرّضْ لأيّ تعذيبٍ جسدي ، فيما كانَ سجّانوهُ - اولئكَ الشبّانُ الذين بدَت على وجوهِهم ملامحُ التوتّر والإرهاقُ - يضحكونَ على تلكَ النكتة ، إلا أنّ المُشكلةَ في هذا الموقفِ تكمنُ في الفسادِ الأخلاقيّ الذي يُرافقُ وجودَ الاحتلال.

عندما جاءَ الوقت الذي سيؤدي فيه ابني خدمتهُ العسكريّة الإلزاميّة في الجيش الإسرائيلي ، جلستُ وتحدّثتُ معهُ وقلتُ له قبلَ أدائهِ للخدمة العسكريّة : سوفَ تمرّ عليكَ أوقاتٌ عصيبةٌ قد تضطرّ فيها كجنديّ لقتلِ أحدٍ ما ، لكن إيّاكَ ثمّ إيّاكَ أن تُهينَ كرامة أيّ إنسانٍ مهما كانَت الظروف ، فهذا مبدأ من أهمّ المباديء الأساسية في ديانتِنا اليهودية.

وعلى أيّ حال ، فقَد خرَجنا كجيلٍ عاصرَ الانتفاضةَ الأولى حاملينَ قناعة راسخة بضرورةِ انهاءِ الاحتلالِ الإسرائيليّ للضفة الغربية وقطاع غزة ، لا من أجلِ تحقيقِ حياةٍ أفضلَ لِلفلسطينيينَ فحسب ، بل من أجلِ حياةٍ أفضلَ للإسرائيليين أيضاً، حياةٌ نُحرّرُ بها أنفُسَنا من الاحتلالِ الذي يَستهزيءُ بكلّ ما نحملهُ من قيمٍ وأخلاقياتٍ كأمةٍ يهوديّة ، قيمُ الرحمةِ والعدالةِ والتعاطُف ، تلكَ المُثل العليا التي شكّلَت جوهرَ الحياةِ اليهوديّةِ لآلافِ السنين ، العدلُ الذي نصّت عليها التوراةُ مرّتين بصريح العبارة : **"الْعَدْلَ الْعَدْلَ تَتَّبِعُ، لِكَيْ تَحْيَا وَتَمْتَلِكَ الأَرْضَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ"** ، والرحمة التي لطالما وُصفنا بها نحنُ اليهود منذ الأزل ، كأبناءٍ رُحماءَ لآباءٍ رحَماءْ.

إنّ الاحتلالَ الإسرائيليَ للضفة وقطاع غزة هوَ أمرٌ يُدنّس الروحَ الإنسانيّة. أذكرُ أثناء تأديةٍ خدمَتي في قطاعِ غزة كيفَ كنتُ أشعرُ بالإهانة عندما كنتُ أسمع سخرية الجنود الإسرائيليّين من الواقع المأساويّ لبعضِ أحياءِ غزة ، مثلَ وصفهِم لأحد مخيمات غزة بـ " أمستردام " نظراً لانتشارِ قنواتِ الصرف الصحيّ بينَ زقاق ذلك المخيم ، فيما كانوا يصفون حيّا آخر في وسطِ المخيم بحيّ " ديزينغوف " في تل أبيب. لم أستَسِغ تلك العباراتِ في بدايةِ خدمتي العسكريّة ، إلا أنني سرعانَ ما وجدتُ نفسي أردّدُ تلك العباراتِ بعد أسبوعين من الخدمة العسكريّة، مُنضمّاً إلى بقيّة الجنود في السخرية من واقعِ قطاع غزة المأساويّ.

جاريَ العزيز ، لربّما تسألُ نفسكَ هذا السؤال المُحيّر: لماذا يُحدّثني هذا الإسرائيليّ " المُحتلّ " عَن معنى الاحتلال؟

إنني يا جاريَ العزيزُ أحدّثِكَ عن تجرُبَتي " كمحتلّ " لسببٍ بسيط ، وهوَ إيماني بأنه إذا ما جاءَ ذلكَ اليومُ الذي سيتعايشُ فيها الشعبان الإسرائيليّ والفلسطينيّ كجيرانٍ يتمتّعونَ بحقوقٍ متساوية ، فإنه من الضروريّ أن نُحدّثَ بعضَنا بعضاً عن تلكَ المحنِ والمصاعبِ التي مررنا بها وعايشناها معاً خلالَ وجودِنا على جانبين مُختلفينِ من تلكَ التجارُب.

حقيقةً ، فقَد علّمَتني تجربتي في غزة شيئاً آخر ، وهوَ أنّ الحلمَ الفلسطينيّ لا يتضمّن بين طيّاتهِ زوالَ الاحتلالِ الإسرائيليّ من الضفةِ وقطاع غزة فقط ، بَل زوالَ إسرائيلَ بأكملِها من الوجود. لقَد رأيتُ هذا الحلمَ جلياً في الجداريّاتِ والرسوماتِ الغرافيتية التي تتوعّد اليهود بالذبح ، رأيتهُ في أكثر الرسوماتِ انتشاراً على جُدران غزة ، رسوماتٌ لسيوفَ وسكاكينَ مغروسةٍ في قلبِ خريطةِ إسرائيلَ بينما يسيلُ الدم ويتقاطرُ منها.

لقد كانَ لي صديقٌ قديمٌ خدمَ معي في نفسِ الوحدة يُدعى شمعون ، وهوَ صديقي الاثيوبيّ الذي حدثتكَ عنهُ في الرسالةِ السابقةِ والذي لا زالَ يعرجُ على قدمهِ حتى اليوم نتيجةً لاعتداءِ جنديّ سودانيّ عليه بينما كانَ في رحلةِ العودة إلى أرض إسرائيل. حقيقةً، فإنّ صديقي شمعون لا يُشاركني طريقةَ التفكير نفسِها التي ترى الواقع من زوايا مُختلفة ; إذ كانَ كلّ همّه في تلك الفترة هوَ أن يُدافعَ عن دولتهِ وعائلتِهِ ويَمنع تحقيقَ الحُلمِ الغزاويّ بإزالة إسرائيل من الوجود ، وهذا ما أدركهُ شمعون خلالَ خدمته هُناك أيضا ، حيث قال لي في أحد الأيام: " إنّهُم يريدونَ إزالَتنا من الوجود ، يريدونَ إعادتنا إلى مخيماتِ اللجوءِ في السودان " . لقد تجلّت غايةُ شمعون من الخدمة في الجيش الإسرائيلي في عدم السماحِ لشعبِ غزة بتدمير الحلمِ الذي حققهُ يهودُ إثيوبيا بالعودة إلى أرضِ صهيون.

جاريَ العزيز ، لقَد تنوّعَت مخاوفي خلالَ تلكَ التجاربِ ، ما بينَ مخاوفَ أخلاقية ومخاوفَ وجودية ، فيما بدَت لي جميعُها مخاوفَ مبرّرة وضروريّة ، كونَها نتجَت كرَدةِ فعلٍ لمُعضِلتِنا في غزة بشكل خاص ، ومُعضِلةِ القضيّةِ الفلسطينيةِ بشكلٍ عام. إنني أؤمنُ في رغبة التاريخَ اليهوديّ بإرسالِ رسالةٍ مهمّة إلى هذا الجيل الإسرائيليّ الذي عاصرَ الانتفاضة الأولى بالتحديد، رسالةٌ تطلبُ من ذلكَ الجيلِ الإلتزامَ بهاتين الوَصيتين مهما كلّف الثمن : فالوصيّة الأولى تحثّنا على عدمِ نسيانِ اليومِ الذي كنا فيه غرباءَ في أرضِ مصر ، بالتالي يجبُ علينا أن نكونَ رحماءَ في التعامل مع غيرنا. أما الوصيّة الثانية فتحثّنا على عدمِ نسيانِ الواقع المُحيطِ بنا ، ذلكَ الواقعُ الذي يشيرُ إلى أن الإبادةَ الجماعية بحقّ اليهودِ هيَ أمرٌ مُحتملٌ في كلّ وقتٍ من الأوقات، بالتالي يجب علينا أن نكونَ متيقّظين جدّا، لهذا يا جاريَ العزيزُ، عندما يقولَ لكَ عدوّكَ اللدودُ بأنه ينوي إزالتكَ من الوجودِ ، يجبُ عليكَ أن تأخذَ كلامَهُ على محملِ الجدّ.

في الواقع ، فإنّ انطباقَ هاتين الوَصيتين المُستخلَصَتين من التاريخ اليهوديّ على الصراع الفلسطيني الإسرائيليّ يجعلُ مُعضِلتي أكثر تعقيداً ، فذلكَ الغريبُ الذي أقومُ باحتلالهِ والذي أوصَتني التوراة بأن أكونَ رحيماً معهُ يُحاولُ إزالَتي من الوجود، وهوَ ما يزيدُ الأمور حيرةً وتعقيداً. كيفَ يجبُ عليّ أن أنظرَ إليكَ يا جاريَ العزيز : هَل أنظرُ إليكَ كَضحيّة أم كَشخصٍ يريدُ أن يَجعلَني ضحيّة؟

وفي سنةِ 1992 انتُخبَ اسحق رابين زعيمُ حزبِ العمل الإسرائيليّ كرئيسٍ للوزراء ، فيما كانَ شعارُ رابين في الحملة الانتخابية : " فلتَخرُجْ تل أبيبَ من غزة وغزة من تل أبيب "، بمعنى آخر ، كانَ برنامَجَهُ الانتخابيّ قائِماً على الانسحابِ الإسرائيليّ من قطاع غزة، الأمرُ الذي هزّ مشاعري بعمقٍ حينها، فها هوَ رئيسُ أركانِ الجيشِ الإسرائيليّ في حرب الأيام الستة يعودُ مُجدّداً إلى الساحةِ السياسيةِ مُتَبوّئاً منصباً مرموقاً في الحكومة الإسرائيليّة ويُحاولُ إخراجَنا من ذلك المأزق الذي وضَعَنا فيه عندما كانَ شابًا صغيراً. إنني أذكرُ جيّداً ليلةَ انتخابِ رابينَ كيفَ انهمرَت من عينيّ دموع الارتياح ، قلتُ لنفسيَ حينها ها هيَ فُرصتُنا الحقيقيّة لإنهاءِ الاحتلال.

وبعدها بسنةٍ تقريباً ، عندما تصافحَ اسحق رابين وياسر عرفات في باحةِ البيتِ الأبيضِ مُعلنين عن انطلاقِ مباحثاتِ أوسلو للسلام ، تبادرَ إلى ذهني سؤالٌ مؤلم : هل ما يحدثُ الآن هوَ خطوةٌ على طريق السلامِ أم أننا نرتكبُ خطأً من أفظع الأخطاء التي سنرتكبُها عبر التاريخ؟

لقَد أفنى ياسر عرفات حياتهُ في سبيلِ تدمير دولةِ إسرائيل ونزعِ شرعِيّتها، إذ لم تتلطّخ يدا أحدٍ بالدم اليهوديّ من أبناء ذلك الجيل أكثر من يَدي ياسر عرفات نفسِه ، لكن إذا أرادَ إسحق رابين المراهنة على ياسر عرفات كشريكٍ للسلام فها أنا أراهنُ على ياسر عرفات أيضاً.

بطبيعةِ الحال ، نجحَ ياسر عرفات والقيادة الفلسطينية - التي أصبحت تُعرفُ لاحِقاً بالسلطة الفلسطينية - في إقناع الشعبِ الإسرائيلي شيئاً فشيئاً بأن دبلوماسيّة الفلسطينيين كانَت في الحقيقةِ سيفاً مُسلّطاً على رقابِ الإسرائيليين . لقد خلقَ عرفات لغةً دبلوماسيّة خاصةً به ، إذ كانَ يتحدّثُ لقناة "السي أن أن" عن سلامِ الشجعانِ ، بينما يُحرّضُ شعبَهُ على خوضِ الحربِ المقدّسة مع الإسرائيليين ، في الوقت الذي صعّدَت فيه حركةُ حماس من وتيرة هجماتِها تجاه المدنيين الإسرائيليين.

ولطالَما حَذّرَت أجهزةُ المخابراتِ الإسرائيليّة اسحق رابين من حقيقةِ عرفات وتشجيعِه في الخفاءِ لِحركةِ حماس على القيام بالمزيدِ من الهجماتِ تجاه إسرائيل ، حيثُ كانت سياسةُ ياسر عرفات المزدوجةُ تتلخّصُ في الآتي: ينجحُ عرفات في السيطرةِ على الضفة وقطاع غزة عن طريق المفاوضات ، بينما تستمرّ حركةُ حماس بتنفيذ هجماتِها تجاهَ إسرائيل.

لقد مثّلَ خطابُ ياسر عرفات في مسجدِ جوهانسبورغ نقطة تحوّل كبيرةٍ بالنسبة للكثيرمن الإسرائيليين ، حيثَ كان ياسر عرفات حينَها يتحدّث بمنتهى الصراحة ودون أي حضورٍ إعلامي في ذلك المسجد ،إلا أن أحدَ الصحفيين نجحَ في تهريبِ جهاز تسجيلٍ صوتيّ إلى داخل المسجد وقام بتسجيل خطاب عرفات ، حيثُ اتضّح أن عرفات كانَ يؤكّدُ لمنتقديه في العالمِ العربي بأنه لا يَملكُ أيّ نيّةٍ حقيقيّةٍ لصنعِ سلامٍ مع إسرائيل ، وأن السببَ الوحيدَ لدخولِهِ في محادثاتِ السلام هو حالة الضعفِ الفلسطينيّ التي جعلَتهُم عاجزينَ عن تهديد أمن إسرائيل في تلك الفترة ، كما اعتبرَ عرفات في تلكَ التصريحات مباحثات أوسلو مجرّد فترة تهدئةٍ مع الإسرائيليين، وأن هذهِ التهدئة سيتمّ خرقُها في الوقتِ المناسِب .

تسرّبَت تصريحاتُ عرفات تلكَ للإعلام واحتلّت عناوينَ الصفحات الأولى في الصحافة الإسرائيلية، فيما حاولَ المدافعونَ عن عرفات إقناع المُجتمع الإسرائيليّ بأن عرفات كان يحاولُ تضليلَ الجماهيرالعربية والفلسطينية من أجلِ إقناعهم بقبولِ مباحثات أوسلو، لكنّ التبعات المُتراكمة لتصريحاتِ عرفات عمّقَت من المخاوفِ الإسرائيلية من امكانيّة تلاعبِ عرفات بهم من جهة، واستحالةِ الشعور بالأمانِ من جانبِ ياسر عرفات من جهةٍ أخرى.

وكأي إسرائيليّ آخر، بدأتُ قناعَتي تترسّخ تدريجياً بأنهُ تم استغفالُنا وتضلُيلُنا من قبل الفلسطينيينَ، وبأنّ عرفات لم ينوي بأي شكلٍ من الأشكال الوصولَ إلى حلّ الدولتين ، وحتى لو كان عرفات يفكّر بحلّ الدولتين ، فهو يفكّر به ليكونَ مقدّمةً لحلّ الدولة الواحدة التي تقضي على طموح الإسرائيليين بتحقيق أي سيادة على الأرض . ومن وجهةِ نظر الكثير من الإسرائيليين ، فإن الانسحابَ من الضفة الغربية وقطاع غزة يعني المزيدَ من العنفِ الموجّهِ ضدّ إسرائيل ، الأمرُ الذي عزّزَ من قناعةِ اليمينُ الإسرائيلي القائمة على أنّ التنازلاتَ التي قدّمها الإسرائيليون أدّت بالنهاية إلى تصاعدِ وتيرة العنف الموجّه ضدّهُم من قبلِ الفلسطينيين.

وخلالَ دعمي لجهودِ السلام المُضنية آنذاك ، فقد خالفتُ أحدَ الدروسِ الدينية التي تعلمناها عبر التاريخ اليهودي والتي تأمرُنا بألا نكونَ سُذّجاً ، إذ كنتُ ساذجاً عندَما اعتقدتُ بأنّ الفلسطينيينَ يتحدّثون عن السلام في الوقتِ الذي كانوا يُخطّطونَ فيهِ لِلحرب ، وبينَما كانوا يُخطّطونَ للوصولِ إلى دولةِ فلسطين الكبرى ، كنتُ أتخيلُ أرضَ فلسطينَ التي تتسعُ لدولتين.

جاريَ العزيز ، لا تزالُ الروايةُ الفلسطينيّة الرسميّة التي يُجمعُ عليها الشعبُ الفلسطينيّ بأكملهِ تُصَوّرُ هذا الصراعَ على أنّهُ حربُ بينَ السكانِ الفلسطينيين الأصليين والمُستعمرينَ الصهاينة ، وبأنّ قدرَ المُستعمرِ في نهايةِ المطافِ هو الرحيلُ عن الأرضِ التي اغتصبَها ، وهذه أحدُ المُسلّماتِ التي أثبتها التاريخ المُعاصرُ وأكدت عليها قيمُ ومباديء العدالة ، بالتالي ومن وجهة نظر الفلسطينيين فإن تل أبيب لا تقلّ أهميّة عن غزة ، وهُنا يكمنُ أحدُ الاختلافاتِ الجوهريّة في الطريقة التي يُصوّر بها كلّ طرفٍ من الأطرافِ هذا الصراع ، فالمنظورُ الذي ينظرُ به الجانبُ الإسرائيليّ لهذا الصراع يصوّرهُ على أنّهُ اختلافٌ بينَ حَرَكتينِ وَطنيتينِ شرعيّتينِ تحاربانِ بعضهُما بعضاً في صراعٍ مأساوي دامٍ.

لقَد وَصَفَ الروائيّ الإسرائيليّ أ.ب. يهوشوع الصراعَ الإسرائيليّ الفلسطينيّ على أنّهُ صراعٌ " بينَ الحقّ والحقّ " ، الأمرُ الذي جعلني أطرحُ هذا السؤالَ المُحيّرَ يا جاريَ العزيز: أينَ أجدُ روائياً من الجانبِ الفلسطينيّ يصفُ هذا الصراعَ بمثلِ هذا الوصف؟ أينَ أجد أ.ب. يهوشوع الفلسطينيّ ؟ يحيّرني هذا السؤال كثيراً، لأنك إذا ما تصفحّتَ الإعلامَ الإسرائيليّ فإنّكَ ستجدُ آلافَ المقالاتِ التي كانَت ولا زالت تُطالبُ المجتمعَ الإسرائيليّ بمواجهة الواقع والاعترافَ بالتنافس بين روايتين شرعيّتين لهذا الصراع . إنني أتفهّم أيضاً أنّ رؤية الجانبِ الآخر من أيّ صراعٍ والاعترافَ بروايةِ الخصمِ هوَ أمرُ سهلُ على المُنتصرِ، صعبٌ على المهزوم ، إلا أنني وخلالَ تتبّعي منذ فترة طويلة للإعلامِ الفلسطيني بمُختلفِ توجّهاتِهِ السياسيّة، لم أجد مقالة واحدة لكاتبٍ فلسطينيّ أو رئيس تحريرٍ لجريدةٍ فلسطينيّة تطالبُ بإعادة النظر في الأسلوب الذي ينظرُ به الفلسطينيون للرواية اليهوديّة ، لم أجد مقالةً واحدةً تطالبُ بتغييرذلكَ النهجِ بين وسائل الإعلام الفلسطينية المُنشغلةِ بمهاجمة الجانبِ الإسرائيلي والتنكّرِ لروايتهِ التاريخيّة والسخريةِ منها.

وبطبيعةِ الحال ، فقَد أدركَ المُجتمعُ الإسرائيليّ - بما فيه العديد من نشطاءِ اليسار- الحقيقةَ القائلةَ بأن هذا الصراع سيستمرّ مهما قدّمَت إسرائيلُ من تنازلات ، فيما باتَ الإسرائيليّون على قناعةٍ تامّة بأن الحركة الوطنية الفلسطينيّة لا تطمحُ إلى تصحيح ما جرى بعد حربِ 1967 من احتلالٍ للضفة الغربية وبناءٍ للمستوطنات ، بَل تطمحُ إلى تصحيح ما جرى بعد حرب 1948 ، إي إزالة إسرائيل من الوجود ، وتلكَ حقيقةً مؤلمةٌ ومُحزنةٌ لنا نحنُ الإسرائيليّونَ الذين لا زالَوا يؤمنُونَ بحلّ الدولتين.

جاريَ العزيز ، إنّ هذا الصراع القائمَ بيننا صراعٌ غير متناسقٍ أبداً ، صراعٌ مليءٌ بالتناقُضات ، إذ تمثّلُ إسرائيلُ القوّة العُظمى في منطقة الشرق الأوسط ، في حين يمثّلُ الفلسطينيون أضعفَ القوى في هذه المنطقة . من ناحية أخرى ، فإنّك كفلسطينيّ تشكّلُ جزءاً من أمّة عربيّة وإسلاميّة ، في حين أن دولةَ إسرائيلَ تُجابهُ وحدَها في هذه المنطقة ، وهذه هي التناقُضاتُ البارزةُ ، فإذا ما نظرنا للاختلافاتِ السياسيّة داخل كلّ مجتمعٍ فإننا سنجدُ العديد من التناقُضات الجانبيّة الأخرى.

يَعتبرُ الإسرائيليون الداعمونَ لحلّ الدولتين أنّ تقسيمَ الأرضِ بينَ الشعبين الوسيلةَ الوحيدةَ لإنهاءِ الصراع ، إلا أنني - وبناءاً على تجربةٍ طويلةٍ مع الفلسطينيين - أدركتُ بأن الفلسطينيينَ الداعمين لحلّ الدولتين يعتبرونَ أنّ هذا الحلّ هو حلّ مؤقتٌ نتيجةً لضعفِ الفلسطينيين حالياً ، وأنه سوفَ يُستبدلُ بنهايةِ المطافِ بحلّ الدولةِ الواحدة ذات السيادةِ الفلسطينيّةِ على كاملِ الأرض ، دولةً يتواجدُ فيها اليهود كأقليّة - على فرضِ وُجدَ فيها اليهود أصلاً - فيما سيصلُ الفلسطينيونَ إلى هذا الحلّ بمُجرّدِ عودة اللاجئينَ الفلسطينيين إلى ديارهِم وتلاشي دولةِ إسرائيل شيئاً فشيئاً. بمعنى آخر. في الوقتِ الذي يعتبرُ فيهِ المُعتدلونَ الإسرائيليون السيادة الفلسطينيّة حاجةً مُلحةً وشكلاً من أشكالِ العدالة ، يرى المُعتدلونَ الفلسطينيونَ السيادةَ الإسرائيليّة ظُلماً مُحقّقاً.

إنّ المُتتبعَ لتاريخ المنطقةِ بدءاً من ثلاثينياتِ القرنِ المُنصرمِ حتى يومنا هذا ، لن يجدَ أيّ حركةٍ وطنيةٍ رفضَت عروضاً ومُقترحاتٍ بإقامةِ دولةٍ ذات سيادةٍ كالحركةِ الوطنيةِ الفلسطينية ، وهوَ رفضٌ نستطيعُ تفهّمه إذا ما فسّرناهُ من مُنطلقِ الفهمِ الفلسطيني للحركة الصهيونية ; إذ طالَما استمرّ اعتقادُ الفلسطينيينَ بأنّ دولةَ إسرائيلَ هيَ الشيطان الأعظَم ، فإنني أتفهّم منطِقَهُم بضرورةِ قتلِ ذلك الشيطان ، كما لَن يكونَ وصولُ الفلسطينيينَ لفهمٍ متزنٍ لهذا الصراع أو تقديمُهُم تنازلاتٍ حقيقيّة للجانبِ الإسرائيليّ أمراً ممكناً طالَما واصلَ الإعلامُ الفلسطيني والنظام التعليميّ وحتى المساجدُ نشرَ تلكَ الرسالةِ التي تُصرّ على شيطنةِ الجانب الإسرائيليّ وتصوير الحركة الصهيونيّة على أنها الشيطان بحدّ ذاتِه.

لذلكَ يا جاريَ العزيز ، هلّا قُلتَ لي ماذا كنتَ ستفعلُ لو كنتَ مكاني: هَل ستنتهزُ الفرصةَ وتنسحبُ من الضفّة الغربيّة وتُعيدَ حدودَك إلى الوراءِ مانِحاً ثقتَك وأرضَكَ لغريمِك الذي يقودُ حركةً وطنيّة ترفضُ الاعترافَ بحقّك في الوجود؟ هَل كنتَ ستُجازف بِقُدرتِكَ على الدفاعِ عن نفسِك أو حتى ستخاطر بوجودكَ بأكملِهِ في سبيلِ تمكين ذلك العدوّ وتقويةِ جانبِه؟ وهَل كنتَ ستقومُ بأيّ من هذه التنازُلاتِ إن كنتَ محاطاً بدولٍ تشتعلُ لهيباً من حولِك؟

إن اقتناعيَ التامَ بأنّ التنازلاتَ التي قدّمتُها وسأقدّمها للجانبِ الفلسطيني ستَنقلبُ عليّ عاجِلاً أم آجلاً يَجعلني عالِقاً بين مُطالبتي بحلّ الدولتين وتشبّثي بالوضع القائم . في الوقتِ نفسه ، فإنني لا أستطيعُ الاستمرارَ بهذا الحالِ الذي يبدو فيهِ وكأن أزلية الصراع ستحكُم طبيعة العلاقةِ القائمةِ بيننا إلى الأبد.

إننا يا جاريَ العزيزُ عالقونَ في وضعٍ يبدو شبيهاً لدوّامةٍ من اليأسِ، اليأسِ فقط ، فلا تُصدّق من يقولُ لكَ بأنّنا عالقونَ في دوامةٍ من العُنف ، كونهُ - بنظري - تعبيرٌ ساذجٌ لا يُفسّر أي سببٍ من أسبابِ استمراريّة هذا الصراع ولا يُفسر حتى كيفيّة انتهائه.

إننا عالقون فعلياً في دوّامةٍ من " الإنكار " ، حيثُ يُنكرُ شعبُكَ شرعيّة شعبي وحقّهُ في تقرير مصيرهِ ، فيما يُنكرُ شعبي حقّك وحقّ شعبكَ في تحقيق سيادةٍ وطنيّة على أرضِه . إنّ دوامةَ الإنكارِ تلكَ تعرّفُ تواجُدُنا المُشتركَ فوق هذه الأرض على أنّهُ استحالةٌ لوجودِ علاقةٍ تقاربٍ بيني وبينَك ، فيما يشكّل العنفُ والكتمانُ والغضبُ واليأسُ ملامحَ هذا التواجدَ المُشتركِ ، وهذه هيَ الدوامةُ التي لن نَخرُجَ مِنها إلا إذا قرّرنا اختراقها معاً أيّها الجارُ العزيز.

الرّسالةُ السادِسة : اقتسامُ العدالةِ

جاريَ العزيز ،

كيفَ بإمكاننا إذاً أن نُنهيَ دوّامةَ الإنكارِ والتجاهُلِ تِلكْ؟

مما لا شكّ فيهِ بأنّ الحدودَ والمستوطنات وقضيّة القدس جميعُها قضايا شائكة لا بدّ من ايجادٍ حلّ لها ، إلا أنهُ من الضروريّ جداً أن نُدركَ بأن هذهِ القضايا هيَ مُجرّدُ تبعاتٍ ملموسةٍ لقضايا أخرى غير مَلموسةٍ تُحرّكُ هذا الصراع ، بدايةً بالمخاوفِ اليهوديّة المُتواصِلة ، مروراً بصراعِ اليهودِ المُستمرّ من أجل البقاء وإثباتِ حقّهم في الوجود ، وصولاً إلى ذاكرتِنا التاريخية وشرعيّة روايتِنا وقصِصنا الوطنية كأمةٍ يهوديّة. إنّه لمنَ الضروريّ أيضاً أن نُدركَ بأن جميع التنازُلاتِ والصّيغ السياسيّةِ و الخطوطِ العشوائيّةِ على الخرائط لن تتمكّنَ من طمأنةِ مخاوفِ الشعوبِ أو إزالةِ هواجِسِهِ أيّاً كانَت تلك الصيغُ والتنازُلاتُ والخرائط. وعدا عن هذا كلّه ، فإنّهُ يتوجّبُ علينا أن نعترفَ ونُقِرّ بحقيقةِ الأسبابِ والتجاربِ التي تجعلُ من حلّ الدولتين حلّاً مؤلِماً لكلا الشعبينِ الإسرائيليّ والفلسطينيّ على حدٍ سواء.

ولأكونَ صريحاً معَك يا جاريَ العزيز ، فإنّني أحلمُ بذلكَ اليوم الذي ننجحُ فيه باقتِسامِ الأرضِ فيما بيننا، إلّا أنّني وفي خضمّ تلكَ الحاجةِ والرغبةِ لتحقيقِ حلّ الدولتين ، فإنني أشعرُ وكأنّ قلبي يتمزّقُ كلّما تذكّرتُ بأنّ أرضَنا الحبيبة التي بالكادِ تظهرُ على الخارطة سيتمُ تَقطيعُها وتجزئتُها إلى دولَتين ، تلكَ القطعةُ الصغيرةُ من الأرض التي تمتدّ من نهرِ الأردن إلى البحر الأبيض المتوسّط بما فيها دولةُ إسرائيلُ والضفة والغربية وقطاع غزة والتي بالكاد تبلغُ مساحتها 11,000 ميلاً مربّعاً.

إنني لا أخفي عليكَ يا جاريَ العزيزُ حالة البأسِ الشديد التي ستحلّ بُنا جراء ذلكَ الألمِ العميقِ الذي سنفرضهُ على أنفسِنا كأمةٍ يهوديّة نتيجةً لحلّ الدولتين ، إذ كيفَ بإمكانِنا التخلّي عن مدينةِ الخليل؟ كيف سنَدوسَ على أحدِ أهم وأقوى المشاعرِ الدينيّة التي لطالما ربطَتنا بهذه المدينة عبرالتاريخ اليهودي؟ لقَد رضَخنا لقدَرِنا بالابتعادِ عن أرضِنا التاريخيّة وتقبّلناهُ في الماضي نظراً لما حلّ بنا من شتات ، لكن الأمر مُختلفٌ هذه المرة ، فها نحنُ نرسمُ دربَ شتاتِنا عن تلكَ الأرضِ بأيدينا وبمحضِ إرادتِنا ، بالتالي كيفَ سنتمكّنُ من تحمّلِ مرارة ذلك القرار الأليم مرةً أخرى؟

وبالطبع فإنني أتفهّمُ بأنّ تخلينا عن جزءٍ من أرضِنا التاريخيّة سيكونُ لهُ مقابل ، وهوَالوصولُ إلى دولةٍ يهوديّةٍ ذاتُ قيمٍ ديمقراطيّة ، ومن أجلِ أن يعمّ السلامُ على هذهِ الأرض ، إلا أنني ومن ناحيةٍ عاطفية أشعرُ تجاه حلّ الدولتين بنفس الشعور الذي يراودُ المستوطنين تجاه ذلكَ الحلّ: إنّهُ شعورُ الانسانِ الذي يقومُ بِتشويهِ نفسِهِ بنفسِهِ.

من ناحيةٍ أخرى، فإنني لا أخفي تأثريَ العميقَ بحجمِ النجاحِ الذي حقّقتهُ الحركةُ الاستيطانيّة في إعادةِ إحياءِ الأماكن التي سكنتها قبائلُ يهودا والسامرة قديماً ، حيثُ يولدُ وينشأ ويترعرعُ الأبناءُ والأحفادُ في المُجتمعاتِ اليهوديّة التي تمّ إعادةُ إحيائِها في مستوطناتِ تشيلو وعوفرا وبيت إيل وكريات أربع ، في الأراضي التي تحتوي على معالمِ الطفولةِ التي عاشَتها أمّتنا اليهوديّة سابِقاً ، حيثُ يرى الإسرائيليونَ الذين يقطنونَ تلكَ المستوطناتِ وجودهُم على هذه الأرض تصحيحاً لأخطاءِ التاريخِ اليهوديّ رداً - حتى وإن فاتَ أوانهُ - على الغزو الرومانيّ لهذه الأرض بشكلٍ خاص، وعلى كلّ من حاولَ القضاءَ على الأمةِ اليهوديّة بشكلٍ عام. إنّ هؤلاءِ الإسرائيليين من مؤيّدي الحركة الاستيطانيّة يُثمّنونَ عالياً تواجُدَهُم على هذه الأرض كإثباتٍ على تاريخيّةِ أصولِهِم المُتجذّرةِ فيها.

وخلالَ القرنِ المُنصرم ، فقد تَعرّضَتْ آلافُ المُجتمعاتِ اليهوديّة التي عاشَت في أوروبا والعالمِ الإسلاميّ للدمار، بالتالي هل يعقلُ أن نقومَ نحنُ اليهودُ بأنفُسِنا بعد كلّ ما حلّ بنا من دمارٍ بتدمير مُجتمعاتِنا اليهوديّةِ التي أقمناها على أرضِ إسرائيلَ؟ هل سنقومُ بتدميرِ تلكَ القرى والتجمّعاتِ اليهوديّة التي تغمرُها الحياةُ الطبيعيّة اليهوديّة من جديد؟

ولأكونَ صريحاً معكَ يا جاريَ العزيزُ ، فإنني أتحدثُ بالنيابةِ عن نفسي فقط فيما يخصّ حلّ الدولتين ، إذ كيفَ بإمكاني أن أقنعَ عشراتِ الآلافَ من إخوتي اليهود الذي يستوطنونَ الضفّة الغربيّة بتركِ منازلِهم ومدارسِهم ومواقعَ عملِهم في سبيلِ الوصولِ إلى هذهِ الغاية؟

في الواقع ، لقدَ حظيَ الجيلُ الذي أنتمي لهُ بامتيازٍ عظيمٍ يتمثّلُ بالعودةِ إلى الأرضِ التي لطالمَا تمنّى اليهودُ العودة إليها والسكنَ فيها عبرَ مئاتِ السنين التي أمضوها في الشتات. في الوقت نفسِهِ ، فقد حظيَ ذلكَ الجيلُ من المستوطنينَ الذين يقطنونَ في الضفة الغربيّة بامتيازٍ أعظمَ ، وهوَ العودة إلى تلالِ يهودا والسامرة ، بالتالي فإن اقتلاعَنا وطردَنا لأنفسِنا من تلك التلال والهضاب سيكونُ بمثابةِ ألمٍ تاريخيّ شديدٍ للأمةِ اليهوديّة.

كذلكَ يا جاريَ العزيز فإنني أتفهَم رفضَك وانزعاجكَ العميقَين عند سماعِكَ لكلمةِ " إسرائيلَ " بالتحديد، كونهُ الشعورُ نفسهُ الذي ينتابُني عندما أسمعُ كلمةَ " فلسطين ". وخلافاً لبقيّة أخوتي اليهود ، فإنني لا أشعرُ بأيّ انزعاجٍ من رؤيةِ الخرائطِ المُعلّقةِ في صفوفِ المدارسِ وعلى جدرانِ المكاتب الفلسطينيّة والتي لا تتضمنُ أي وجودٍ لكلمة إسرائيل . إنني لا أشعرُ بذلكَ الانزعاج لسببٍ بسيط ، وهوَ أن خارطتي العاطفيّة لا تحتوي على كلمةِ فلسطين ، إذ كيفَ يُفرَضُ ذلكَ الاسمُ الغريبُ على أرضي التي أعشقُها؟ إنني وبكل بساطةٍ أتعاملُ مع كلمةِ " فلسطين" على أنّها إجحافٌ لغويّ بالنسبةِ لي ، تماماً كما يحصلُ لك عندما تستيقظُ صباح أحدِ الأيام لتجدَ بأن اسمكَ الذي تحملهُ منذ طفولتِك لم يَعُد مُلكَكَ بعد الآن ، وبأنّكَ مُجبرٌ على تقبّلِ اسمٍ جديدٍ وهويةٍ غريبةٍ.

وبطبيعةِ الحال ، يحاولُ الدبلوماسيّونَ الأوروبيّونَ تحقيقَ السلامِ بيننا من خلال العديدِ من المساعي التي تبرزُ من خلالِها نواياهُم الحسنة ، إلا أنّهُم في خضمّ تلكَ المساعي عاجزونَ عن إدراكَ هذه الحقيقة المهمّة : وهيَ أنّ تقسيمَ الأرضِ ليسَ حلّاً مثالياً بقدرِ ما هوَ انتهاكٌ لطموحاتِ كلا الشعبين واستئصالٌ لقطعةٍ نفيسةٍ من الأرضِ بالنسبة لهُما، إذ كيفَ تكونُ دولةُ إسرائيلَ بدونِ الخليل؟ وكيفَ تقومُ دولةٌ فلسطينيّة بدونِ يافا؟ إنّهُ لأمرٌ من المستحيلِ تقبّلهُ من وجهةِ نظر الجهتين ، إلا أنني من ناحيةٍ أخرى لا أرى أيّ بديلٍ معقولٍ يرضي كلا الجانبين سوى اقتِسامِ الأرض فيما بيننا.

في الوقت ذاتِه ، ومهما حاولَ كلّ طرفٍ من الأطرافِ إزالةَ الطرف الآخر من الوجودِ على الخارطة ، فإن إسرائيل وفلسطين مُستمرّتانِ وموجودتان سواءاً تقبّلنا هذه الحقيقة أم لم نتقبّلها ، فأنا وأنتَ يا جاريَ العزيزُ قد ورَثنا أرضاً هيَ في الحقيقةِ أرضان - على الأقلّ من الناحية النظرية - : ففي المساحةِ الممتدّة من البحر إلى النهر تتربّعُ إسرائيلُ وفلسطينُ ، إذ تكمنُ المأساةُ في أنّ هذين الكيانينِ يحتّلانِ نفسَ المساحة مع بعضِهما البعض. ولأكونَ واضحاً معك أكثرَ يا جاريَ العزيز ، لو قلتَ لي بأنّ حيفا هيَ ملكٌ لكَ فإنني سأقول لك : إنني أتفهّم من وجهةِ نظركَ بأن حيفا هي ملكٌ لك ، لكن عليكَ أن تتفهّم من وجهةِ نظري بأنّ الخليلَ هيَ ملكٌ لي، وهُنا تكمنُ المُشكلة!

بالتالي ، واستناداً إلى الفشل الذريعِ في الوصولِ إلى اتفاقيّات سلامٍ تقودُ إلى حلّ الدولتين ، آخذينَ بعين الاعتبار الرفضَ العاطفيّ من قبلِ كلا الشعبين لهذا الحل ، فإن تبنّي حلّ الدولةِ الواحدة والتي - بطريقةٍ أو بأخرى - سيحكمُها الإسرائيليّون والفلسطينيّونَ بشكلٍ مُشتركٍ قد يكونُ مُغرياً إلى حدٍ ما ، إلا أنّ أولئكَ الذين يروّجونَ لهذا الحلّ يبدونَ لي وكأنهُم يضلّلونَ غيرَهُم ويوهمونَ أنفسَهُم بذلك الحلّ. بنظري ، فإنّهُ لا يوجدُ خيارٌ أسوَأُ من حلّ الدولتينِ سوى حلّ الدولةِ الواحدة الذي يعني بنهايةِ المطافِ أنّ هذه الدولة ستقضي على نفسِها بنفسها.

إنّهُ لمِنَ المُستحيلِ أن يتشاركَ شعبانِ أمضيا قرابة المئة سنةٍ في قتالِ بعضهما البعض خلالَ صراعٍ وجوديّ عملاً وديّا مشتركاً داخلَ حكومةٍ واحدة ، كما أنّ الصراعَ القائمَ بيننا حاليّاً سيكونُ غيضاً من فيضِ الصراعِ الذي سينشبُ بيننا مُستقبلاً نتيجةً لتنافُسنا على مصادرِ القوّة داخل تلكَ الدولةِ " الواحدة " ، في حين أنّ النموذجَ اليوغسلافيّ هو خيرُ مثالٍ على عواقبِ فشل حلّ الدولة الواحدة والذي أدّى بالنهايةِ إلى تفكّكِ الدولةِ إلى قوى وأحزابَ دينيّة وعِرقيّة تحاربُ بعضها بعضاً في صراعٍ دمويّ لربّما يَكونُ أشدّ ضراوةً من الصراعِ القائم بيننا.

إنّ حلّ الدولةِ الواحدةِ باختصارٍ شديدٍ من شأنهِ أن يحوّلَ حياةَ كلا الشعبين وأحلامهُما إلى كابوسٍ مرعب ، كما من شأنهِ أن يحرمَ كلا الشعبينِ من أحد أهمّ مقوّمات العدالة التي يرغبُ الشعبان في الوصول إليها ، وهيَ حقّ تقرير المصيرِ ، ذلكَ الحقّ الذي يُشعرُنا بأننا نمتلكُ مُطلقَ الحريّة فوقَ أرض وطننا التي تخضعُ لسيادتِنا الوطنيّة.

كذلكَ يا جاريَ العزيزُ فإنني أودّ منكَ أن تُدركَ وتتفهّمَ حاجتي الشديدة للعيشِ في دولةٍ يهوديّة ، لا دولةٍ لليهودِ فقط ، إنني أرغبُ بالحياةِ في دولةٍ تظهرُ في ملامحها العامة على أنّها دولةٌ ذات طابعٍ يهوديّ وثقافةٍ يهوديّة ، دولةٌ تلبّي احتياجات الأمةِ اليهوديّة وتطبّقُ قيَمَها وتمارسُ تقاليدَها ، دولةٌ تجمعُ اليهودَ من الشرقِ والغربِ متوحّدينَ مع بعضهِم البعض كي يبدأوا فصلاً جديداً من فصولِ الحضارة اليهودية. إنني أحتاجُ دولةً يهوديّة على بقعةٍ من هذه الكوكبِ بحيثُ يبدأ موسمُ أعيادِها انطلاقاً من رأسِ السنةِ اليهوديّة ، فيما تشدو فيها محطّاتُ الإذاعة بالأغاني العبريّة الحديثة ، دولةٌ يُدرّسُ التاريخُ المبنيّ على التجربةِ اليهوديّة رسميّاً في مدارسِها. من ناحيةٍ أخرى ، هُناك أمرٌ في غايةِ الأهميّة يتوجّبُ عليكَ إدراكُهُ : حتّى لو تمّ تطبيقُ حلّ الدولتين فإن العربَ لن يغادروا دولةَ إسرائيل ، بل سيَبقى عددٌ كبير من العرب في دولتِنا كمواطنينَ إسرائيليينَ إلّا أنَهُم – بطبيعةِ الحالِ - سيظلّون أقليّة سكانيّة مُحترمةً في تلكَ الدولة اليهوديّة بشكلٍ لا يتناقضُ أبداً بين احتياجاتِ تلكَ الدولةِ ووجودِ العربِ فيها.

حقيقةً ، فقد اقتنعَ اليهودُ بنجاحِهم في إيجادِ ملاذٍ آمنٍ للشعبِ اليهوديّ في إسرائيل ، إلا أن قناعتنا تلكَ بدأت تَتَزَعزعُ بعضَ الشيء في ظلّ وجودِ آلافِ الصواريخِ الموجّهةِ إلى مراكز التجمّعات السكانيّة اليهوديّة الإسرائيليّة مؤخراً ; الأمرُ الذي جعلَنا نرى في إسرائيلَ ملاذاً آمناً لليهودِ بقدرِ كونِها ملاذاً آمناً لليهوديّة ، تلكَ الحضارة التي مضى عليها قرابة الأربعةِ آلافِ عام ، فإسرائيلُ هيَ الدولةُ الوحيدةُ التي يمتلكُ فيها اليهودُ ضمانةَ عدم اندثارِهِم من الوجودِ نتيجةً لصهرِهِم في مجتمعٍ ذو أغلبيّة قوميّةٍ أو دينيّةٍ غيرِ يهوديّة مثلما حلّ باليهودِ في السابق.

ولأوضّح لكَ المغزى من كلاميَ أيّها الجارُ العزيز، دعني أستذكرُ هذا الموقف الذي حدثَ عندما قامَ صديقٌ أمريكيّ مسلمٌ في أحدِ الأيامِ بزيارةِ إسرائيلَ متوجّهاً إلى الحائطِ الغربيّ ، ليجدَ نفسهُ مُحاطاً بحشدٍ من آلافِ المُصلّينَ اليهود ، فعلّق على زيارتهِ للحائطِ الغربيّ قائلاً : " الآنَ فقط أدركتُ حاجةَ اليهودِ إلى دولةٍ ذات سيادةٍ يهوديّة ، فهُم يحتاجونَ دولةً تحمي حياةَ اليهود الدينيّة وتنظّمُ أمورَ حجيجِها اليهود ، تماماً كما نفعلُ نحنُ المسلمونَ في مكّة " ، واصفاً المُصلّينَ في الحائط الغربيّ " بالحجّاجِ اليهود ". حقيقةً ، فقَد وَجدتُ في كلامِهِ هذا وُجهةَ نظرٍ إسلاميّةٍ نادراً ما أسمعُها حولَ أهميّة السيادةِ اليهوديّة على الأرض التي يعيشُ عليها اليهودُ.

ولو افترَضنا يا جاريَ العزيزُ أنكّ تملكُ مدينة يافا ، بينما أمتلكُ أنا مدينة الخليل ، فإن أمامَنا خياران اثنانِ لا ثالثَ لهُما : إما أن نقاتِلَ بعضنا بعضاً لمئة سنةٍ قادمة على أملِ أن يُهزمَ أحدُنا وينتصرَ الآخر ، أو أن نتقبّل الحلّ المطروحَ على الطاولة منذ بداياتِ هذا الصراع ، وهوَ اقتسامَ الأرض فيما بيننا. كذلكَ فإنه من الضروريّ جداً أن تُدركَ يا جاريَ بأنّنا لا نخونُ تاريخَنا إذا ما قبلنا بحلّ التقسيم ، بَل على العكسِ تماماً ، إن قبولنا بتقسيمِ هذهِ الأرض فيما بينَنا هو اعترافٌ وتسليمٌ من كلا الجانبين بحقيقةِ أنّ التاريخَ لم يمنحنا أي خيارٍ آخرَ سوى القبولِ بهذا الحلّ لإنهاءِ هذا الصراع.

وبالعودة قليلاً إلى الماضي ، فإنّكَ ستجدُ القادة الصهاينة الأكثر تشدّداً كديفيد بن غوريون ، والذي لا يقلّ في تشددّهِ عن التيار اليمينيّ المتشددّ في الحركة الصهيونيّة الذي يُطالبِ بسيادةٍ يهوديّة على كامل الأرض ، ستجدُ أنّه وافقَ على قرار التقسيم الذي صوّتَت عليه الأممُ المتحدة عام 1947; حيثُ أدركَ بن غوريون بأنّ مواجهةَ الظروفَ الخاصّة التي أحاطَت بعودةِ اليهودِ إلى أرضِ إسرائيلَ بعد آلاف السنين من الشتات تتطلبُ شيئاً من التفهّمِ والاستعداد لتقديمِ التنازلاتِ من قبل الحركةِ الصهيونيّة ، تنازُلات قد تصِلُ إلى التفريطِ بالأرضِ التي سكنّاها وعِشنا في ربوعِها منذُ مئات السنين.

بالتالي ، كيفَ سنتمكّنُ من المضيّ قُدُماً في رسم خريطةِ كلّ دولةٍ من الدولتينِ آخذين بعين الاعتبار الأهميّة الجغرافيّة لكلٍ منطقةٍ من مناطق هذه الأرض لكلا الشعبين؟ برأيي ، ربّما تبدأ الخطوةُ الأولى بالاعترافِ بحبّنا كفلسطينيينَ وإسرائيليينَ لكاملِ تُرابِ هذه الأرض ، إلا أنّهُ يجبُ علينا أن نُتبعَ ذلك الاعترافَ بأمرٍ قاسٍ بعضَ الشيء: وهوَ التنازلُ عن ذلكَ الشعورِ بحبّنا لكاملِ هذهِ الأرض واستعدادَنا للقبولِ ببعضِها في سبيلِ الوصولِ إلى غايةٍ أكبَر وأسمى.

في الوقتِ ذاتِه ، فإنّهُ يتوجّبُ على أيّ اتفاقيّة سلامٍ أن تُقرّ وتقبلَ بشرعيّة أولئكَ " المتَطرّفينَ" في حبّهِم لكاملِ هذه الأرضِ ، أي أولئكَ المُطالبين بالسيادةِ الكاملةِ على كلّ ذرةٍ من ترابِها ، ذلكَ لأنّ المضيّ قدُماً في تلكَ الاتفاقيّاتِ يعدّ مُناقِضاً لمطالبِ هؤلاء وتطبيقاً عمليّاً مُجحفاً بحقّ كلا الجانبينِ الفلسطينيّ والإسرائيليّ. إنّ التقسيمَ يا جاريَ العزيزُ هوَ اعترافٌ ضمنيّ بأننا سنضعُ حدوداً لأحلامِنا ، كونَ قرارَالتقسيمَ - فعلياً – لا يُمثّلُ تقسيماً للأرض فقط ، بل هو تقسيمٌ وتجزيءٌ للعدالةِ نفسِها بينَ جانبينِ محقّين كلّ الحقّ في ادعاءاتِهما بملكيّةِ هذه الأرض والوجودِ عليها.

ولنكونَ واقعيينَ أكثرَ، لَن يتخلّى أيّ من الجانبين الفلسطينيّ أوالإسرائيليّ عن انتمائهِ العاطفيّ لكاملِ الأرض بعدَ الوصولِ إلى حلّ الدولتين ، إلّا أنّ التعبيرَ الواقعيّ عن الانتماءِ لكاملِ الأرضِ سيكونُ منقوصاً ، فمواطنو دولةِ إسرائيلَ - رغمِ انتمائهِم لكاملِ الأرض - إلا أن تعبيرَهُم عن الانتماء للأرضِ سيقتصُر على الأرض التي ستخضعُ للسيادةِ الإسرائيليّة فقط ، وكذلكَ هوَ الحال بالنسبة لمواطني الدولةِ الفلسطينية والذينَ سيقتصرُ تعبيرهُم عن الانتماءِ للأرض التي ستخضعُ لسيادةِ الدولةِ الفلسطينيّة فقط ; الأمرُ الذي يعني أنّ كلّ طرفٍ من الطرفين سيمارسُ سيادتهُ الوطنيّة فعليّاً على جزءٍ من كاملِ هذه الأرض.

لذلكَ يا جاريَ العزيزُ يتوجّبُ علينا أن نُفرّقَ بين فكرةَ العدالةِ من الجانبِ النظريّ من جهة ، والتطبيقِ غير العادلِ لتلكَ الفكرة عملياً من جهةٍ أخرى ، كون هذه التفرقة تمثّلُ نتيجةٌ لاستحالةِ تلبيةِ كاملِ مطالبِ كلّ جانبٍ من الجانبين ، نظراً لأنّ تلبيةِ كاملِ المطالبِ لأي جانبٍ سيؤدي إلى دحضِ مطالبِ الجانبِ الآخر نهائيّاً. بالتالي ، فإن الإطارَ الأخلاقيّ لفكرةِ تقسيمِ الأرض بينَ الشعبين يتلخّصُ في هذه الفكرة : يجبُ على كلّ جانبٍ أن يَفرضَ على نفسهِ قدَراً من "الإجحاف والظلْمِ" في سبيلِ حصولِ الجانبِ الآخرِ على قدرٍ من " العدالة" .

إنني أتطلّعُ بشغفٍ لرؤيةِ ذلكَ اليوم الذي نصلُ فيهِ إلى اتفاقيّة سلامٍ تلبّي طموحاتِ كلا الجانبين في السيادة على كامل أرضِ فلسطين وكامل أرض إسرائيل ، إلّا أنّ تحقيقَ السلامِ وتطبيقَ قدرٍ من العدالةِ المُجزّئةِ التي ستتضمنّها اتفاقيّة السلامِ تلك سيعني بالضرورةِ تقديمَ تنازُلاتٍ مؤسفةً تُدمي أفئدةَ الجميع ; وهوَ أمرٌ بديهيّ جداً ، كونَ تمتّعَ أحدُ الجانبينِ بعدالةٍ مُطلقةٍ سيقفُ عائقاً أمامَ تحقيقَ عدالةٍ مُطلقةٍ للجانبِ الآخر.

حقيقةً ، فقد أمرَتني التوراةُ بالتزامٍ دينيّ صريح : **"الْعَدْلَ الْعَدْلَ تَتَّبِعُ، لِكَيْ تَحْيَا وَتَمْتَلِكَ الأَرْضَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ** ; الأمرُ الذي دفعَ الكثيرَ من الحاخامات وأحبارَ اليهودِ للتساؤل : لماذا تكرّرَت كلمةُ العدلِ مرّتين ؟ لقَد صيغَت وتشكّلَت إجابتي على هذا السؤالِ من خلالِ تجربتي التي عِشتُها في خضمّ هذا الصراع ، وهيَ أنّ اتّباعَ العدالةِ في بعضِ الأحيانِ يتطلّبُ تلبيةَ المطالبِ العادلةِ لكلا الطرفين حتى لو اختصَما ، وهوَ ما يستوجبُ وجودَ نوعٍ من المقايضة فيما بيننا يا جاريَ العزيز، مقايضةٌ قائمةٌ على هذا المبدأ: أفقِدُ أنا مُخطّطيَ الذي يقضي بإقامةِ دولةِ إسرائيلَ العُظمى ، فيما تفقدُ أنتَ مخطّطكَ الذي يقضي بإقامةِ دولةِ فلسطينَ العُظمى . بعبارةٍ أخرى ، فإنّ خطّة التقسيم ستجعلُ مساحةَ أرضِنا تتلاشى بعضَ الشيء ، إذ ستقلّ مساحةُ دولةِ إسرائيلَ ومساحةُ دولةُ فلسطين أيضاً.

من وجهةِ نظري، فإن تخلينا عن العدالةِ المُطلقةَ سيُخلّفُ وراءهُ عدالةُ أخرى أكثرُ إيلاماً ، إلا أنّها ورغمَ ألمِها ستكونُ ملائمةً لحدٍ ما لِكلا الجانبين ، وهيَ حقيقةٌ تُذكّرُني بما قالهُ المعلّمُ الحسيديّ مناحيم مِندِل : " لا يوجدُ شيءٌ كاملٌ أكثر من القلبِ المُحطّم " ، بيدَ أنّ وجهةَ نظرنا كيهودٍ تختلفُ بعضَ الشيء ; إذ لا يوجدُ شيٌ على هذه الأرض سيُشعرُنا بمدى تحقّقُ العدالة الكاملةِ سوى إبطالُ قرار تقسيمِ الأرضِ بينَ الشعبين.

ومما لا شكّ فيه يا جاريَ العزيزُ بأن تعاملَ الفلسطينيينَ مع اليسارَ الإسرائيليّ العلمانيّ هوَ أمرٌ يسيرٌ جداً على الفلسطينيين ، نظراً لأنّ اليسار العلمانيّ غيرَ المُتديّنِ يُنكرُ الانتماءَ العاطفيّ لأرضِ يهودا والسامرة ، واصِفاً إياها "بالأراضي المُحتلّة " ، لكن عليكَ أن تعلمَ جيّداً يا جاريَ العزيز بأنه سواءٌ في السرّاء أوالضرّاء فإنني أنا الشريكُ الذي تحتاجُهُ لإقامةِ السلام على هذه الأرض، لا اليسارَ العلمانيّ الإسرائيليّ ; تحديداً لِكوني أشعرُ بالإنتماءِ لكلّ ذرةٍ ترابٍ من ترابِ هذه الأرض بالتالي أرفضُ التخلّيَ عن أيّ جزءٍ منها ، أضف إلى ذلك سبباً مهمّا لكوني شريكاً موثوقاً بهِ ، وهوَ وجودُ نسبةٍ لا بأس بها منَ الرأي العامّ الإسرائيليّ تشارِكُني الشعورَ نفسهُ تجاهَ هذهِ الأرض ، إلّا أنّ أهمّ سببٍ يجعلُكَ تثقُ بي كشريكٍ للسلامِ هوَ أن وجهةَ نظري تعكسُ وجهةَ النظر الفلسطينيّة المتعلّقةَ بملكيّة هذه الأرض ، خاصةً وأن الغالبيّة العُظمى من الفلسطينيينَ الذينَ التقيتُ بهِم وتعرّفتُ عليهم يدّعونَ ملكيتهُم لكاملِ الأرضِ، لا جزءاً منها فقط. بنظري ، سوفَ يتحقّقُ السلامُ في اللحظةِ التي يتفهّمُ فيها كل جانبٍ أن الجانبَ الآخر قد قدّمَ تضحياتٍ وتنازلَ عن شيءٍ عزيزٍ عليه في سبيلِ تحقيق السلام ; الأمرُ الذي يجعلُ منّي إسرائيليّاً شريكاً حقيقيّاً لكَ على الجانبِ الآخر، شريكاً يبادِلُكَ الشعورَ نفسَهُ بالحزنِ والأسى على ما ضحّيتَ بهِ في سبيلِ قبولِكَ باقتسامِ هذهِ الأرض فيما بينَنا.

لقَد ارتكبَ اليسارُ الإسرائيليّ خطأً قاتِلاً بتخلّيهِ عن الانتماءِ العاطفيّ لأرضِ يهودا والسامرة ، أو كما أسميهِ أنا " انسحاباً عاطفيّاً " من تلكَ الأراضي ; الأمرُ الذي كانَت نتيجتُهُ إنكارَ حقّنا التاريخي في تلك الأراضي . وبطريقةٍ أو بأخرى ، هُناكَ جانبٌ هزليّ غيرَ منطقيّ من جوانبِ السياسةِ الإسرائيليّة ، جانبٌ يكادُ يكونُ بمثابةِ نمطٍ مُتكّرر يُعيدُ نفسَه من حينٍ لآخر، وهوَ أنّ اليمينَ الإسرائيليّ ينفّذُ رؤيةَ اليسار الإسرائيليّ على أرض الواقع! فعلى سبيلِ المثال لا الحصر ، فإن القادةَ الإسرائيليينَ الذينَ قاموا بانسحابٍ فعليّ من الأراضي التي احتُلّتْ عقِبَ حربِ الأيام الستة كانوا قادة من اليمينَ الإسرائيليّ ، حيثُ انسحبَ مناحيم بيغين من صحراءِ سيناءِ عام 1982 ليكونَ بذلكَ أوّل زعيمٍ صهيونيّ يُزيلُ مستوطنةً إسرائيليّة ، كذلكَ الحال مع أرييل شارون الذي انسحبَ من غزة عام 2005 وقامَ بإخلاءِ المستوطناتِ الإسرائيليّة التي بناها بيدِه.

بالتالي عليكَ أن تُدركَ جيّداً بأن اليسارَ الإسرائيليّ لا يستطيعُ أن يتخذَ أي قرارٍ بالقيامِ بانسحابٍ حقيقيّ من الأراضي الفلسطينيّة ; ذلكَ لأن الرأي العامّ الإسرائيليّ يثقُ باليمينِ لا باليسارِ الإسرائيليّ فيما يتعلّقُ بقضية أمنِ دولةِ إسرائيل . كذلكَ فإن الشعبَ الإسرائيليّ يرغبُ في أن يكونَ قرارُ التنازلِ عن أيّ مساحةٍ من الأرضِ نابعاً عن قناعةٍ مُطلَقَةٍ من قبل القيادة الإسرائيليّة ، وأقصدُ هُنا قيادةً إسرائيليةً تبكي بأسىً شديد على فقدانِ الأراضي التي تشكّلُ جوهرَ التاريخ اليهوديّ ، قيادةٌ ستبكي بحرقةٍ شديدةٍ على أطلالِ التجمّعاتِ اليهوديّة في يهودا والسامرة ، أولئكَ همُ القادةُ الذينَ يُمكنُ الوثوقُ بهم في خضمّ هذه الأحداثِ التي ستُدمي الأفئدةَ إذا ما تمّ الوصولُ إليها يوماً ما.

إضافةً إلى ذلكَ ، عليكَ أن تُدركَ أيضاً بأنّ حلّ الدولتين واقتسامَ الأرضِ فيما بيْنَنا سيواجهُ عقبتين خطيرتين ، إحداهما على الجانب الإسرائيليّ والأخرى على الجانبِ الفلسطيني. فمنَ الجانبِ الإسرائيلي ، ستشكّلُ الحركةُ الإستيطانيّة اليهويّة عائقاً هامّاً أمام حلّ الدولتين ، أما مطلبُ اللاجئينَ بالعودةِ إلى أراضيهِم في إسرائيلَ فهوَ العائقُ الذي يواجهُ حلّ الدولتين من الجانبِ الفلسطينيّ. من ناحيةٍ أخرى ، يُمكننا رؤية القاسمِ المُشتركِ بين هاذين العائقين : وهوَ تجاهلُ وجودِ سيادةٍ وطنيّةٍ للجانبِ الآخر على أيّ جزءٍ من هذه الأرض. فعلى الجانب الإسرائيليّة تسعى الحركةُ الإستيطانيّة إلى إغراقِ الضفة الغربيّة بالمستوطنين من أجلِ الوصولِ إلى مرحلةٍ يُصبحُ فيها الانسحابُ الإسرائيليّ من الضفة الغربيّة أمراً مُستحيلاً ، فيما إذا تمّ ربطُ عودةِ اللاجئينَ الفلسطينيينَ الذين ينحدرون من نسلِ لاجئي النكبة ، فإنّ القادة الفلسطينيينَ يسعونَ إلى إغراقِ دولةِ إسرائيل باولئكَ اللاجئين الفلسطينيين حتى تفقدَ إسرائيلَ أغلبيتها اليهوديّة ; الأمرُ الذي سيؤدي بنهايةِ المطاف إلى تلاشي " يهوديّةِ" الدولةِ اليهوديّة.

إنني يا جاريَ العزيزُ أعارضُ وُجهةَ النظر المُتشائمةِ التي ترى أنّ الحركةَ الاستيطانيّة قد انتصرَت في الضفّة الغربية وأن الانسحابَ الإسرائيليّ من الضفةَ أصبح ضرباً من ضروبِ الخيال ، بل على العكس تماماً ، إنني أرى الانسحابَ الإسرائيليّ من الضفة الغربيّة أمراً مُمكناً وقابلاً للحدوث ; حيثُ اتّخذَت إسرائيلُ سابقاً قراراً مُماثِلاً بتفكيك المستوطناتِ الإسرائيليّة التي كانَت موجودةً في قطاع غزة. كذلكَ فإنّ مُعظمَ المستوطناتِ المُقامةِ في الضفة الغربية لا تبعُدُ كثيراً عن حدود عام 1967 ، بالتالي تتوافرُ امكانيّةٌ لقيام إسرائيلُ بضمّ تلكّ المستوطناتِ لدولةِ إسرائيلَ مقابلَ تبادلٍ للأراضي التي سيتمّ اقتطاعُها من مساحةِ دولة إسرائيلَ والتنازلُ عنها للفلسطينيينَ في المناطقِ المحاذية لحدودِ قطاع غزة والضفّةِ الغربيّة.

كذلكَ فإنّهُ يوجدُ طرحٌ آخر لحلّ مشكلةِ بعضِ المستوطناتِ وبعضِ المستوطنين الذين يستحيلُ اجتثاثُهُم من الضفة الغربيّة نظراً لتمسّكِهم الشديدِ بأرضِ يهودا والسامرة : وهوَ السماحُ لهُم بالبقاءِ في أراضٍ تخضعُ لسيادةِ الدولةِ الفلسطينيّة ومنحِهم الجنسيّة الفلسطينيّة ، إذ سيعيشُ المواطنون يهود مع المواطنينَ العربِ في دولةِ فلسطين ، تماماً كما يعيشُ المواطنونَ العربِ مع المواطنين اليهودِ في دولةِ إسرائيل. في الواقع يا جاريَ العزيز ، يُفضّلُ بعضُ المستوطنينَ العيشَ كأقليّة دينيّة وسكانيّة في الدولةِ الفلسطينيّة على أن يتمّ طردُهُم من يهودا والسامرة.

من جانبٍ آخر، فإن الانسحابَ الإسرائيليّ من الضفةِ الغربيّة يتطلّبُ قيادةً قويّة قادرة على الإلتزامِ باتفاقيّةِ سلامٍ من جهة، وغالبيةً سكانيةً من المجتمع الإسرائيلي تدعمُ هذه الاتفاقيّة من جهة أخرى ; إذ يتوجّبُ على القيادةِ الإسرائيليّةِ أن تُقنعَ تلكَ الفئة مِن المجتمع الإسرائيلي والتي لا زالت تُشكّكُ في نوايا الفلسطينيين ومدى جدّيتهِم في الإلتزام بتحقيق السلام بهذا الطرح ، فيما يترتّبُ على القيادةِ الفلسطينيّة أن تساعدَ القيادة الإسرائيليّة في دحضِ تلك الشكوكِ وطمأنةِ تلكَ المخاوفِ من خلال إظهار مؤشراتٍ على الأرضِ توحي باعترافٍ فلسطينيّ جادّ بالدولةِ اليهوديّة. ولنكونَ صريحينَ مع بعضِنا البعض ، لا تتوافرُ أي من هذه الشروطِ لتطبيق تلكَ الاتفاقيّة حالياً ، إلا أننا وكما علّمتنا تجاربُ الشرق الأوسط ، فإن كل شيءٍ مُمكنٌ وقابلٌ للحدوث. بالتالي ، إن لم نستطِع الوصولَ إلى اتفاقيّة سلامٍ تلبّي طموحاتِ كلا الشعبين حاليّاً ، فإنّهُ يتوجّبُ علينا العملُ على الوصولِ إليها بشكلٍ مَرحليّ تدريجيّ مُستقبلاً.

كذلكَ فإنّ حقُّ عودةِ اللاجئينَ الفلسطينيينَ يُمثّلُ أحدَ أهمّ المُعضلاتِ في طريقِ الوصولِ إلى اتفاقيّة حلّ نهائيّ لهذا الصراع، أقصدُ عودةَ اللاجئينَ الفلسطينيين الذين ينحَدرونَ من نسل لاجئي نكبة سنة 1948 إلى أراضيهِم التي تمثّلُ أراضي دولةَ إسرائيلَ حالياً. لربّما يتبادرُ إلى ذهنِكَ سؤالٌ مُحيّرٌ يا جاريَ العزيز ، خاصةً بعد كتابتي عن الشوقِ والحنينِ لأرض الآباءِ والأجداد : هل يستطيعُ اليهود دونَ غيرهِم من الأممِ تفهّم شوقِ الشعبِ الفلسطينيّ ولَهفَة الفلسطينيينَ للعودةِ إلى أرضِ أجدادِهم التي هُجّروا منها؟ لقد أصرّ اليهودُ على العودةِ لأرضِ آبائهِم وأجدادهِم رغم ابتعادهِم عنها لآلاف السنين ، بالتالي كيفَ يُنكرُ أولئكَ اليهودُ حقّ اللاجئينَ الفلسطينيينَ في العودةِ إلى أرضهِم التي مضى على تهجيرهِم منها قرابة سبعةِ عقودٍ من الزمن؟

إنني يا جاريَ العزيزُ لا أنكرُ حقّك في العودة بأيّ شكلٍ من الأشكال ، لكنَ مشكلتي تكمنُ في الإجابةِ على هذا السؤال المهمّ: **العودة إلى أين؟** إنّ الغالبيةَ العُظمى من الإسرائيليينَ الذين يؤيّدونَ حلّ الدولتين يوافقونَ تماماً على عودةِ اللاجئينَ الفلسطينيينَ إلى الأراضي التي ستخضعُ لِلسيادةِ الوطنيّةِ الفلسطينيّة مُستقبلاً، إلا أن اللاجئينَ الفلسطينيينَ يُطالِبونَ بالعودةِ إلى الأراضي التي تُعتبرُ الآن جزءاً من دولةِ إسرائيل.

إننا يا جاريَ العزيزُ شعبانَ عاشا تجربةَ شتاتٍ طويلةٍ ومريرة تفرضُ علينا البحثَ عن سبلٍ لإنهائِها، ففي خمسينيات القرنِ المُنصرم ، أصدرَت دولةُ إسرائيلَ " قانونَ العودة " ; وهو قانونٌ يمنحُ الجنسيّة الإسرائيليّة تلقائيّاً لأي يهوديّ يُهاجرُ إلى إسرائيلَ قادماً من أي مكانٍ من العالم وتحتَ أيّ ظرف من الظروف ، وتبعاً لهذا القانونِ فقَد أصبحتُ مواطناً إسرائيليّاً يحملُ الجنسيّةَ الإسرائيليّة بدءاً من اللحظةِ التي عدتُ فيها إلى إسرائيلَ عبر مطارِ بن غوريون وأعلنتُ نفسيَ ابناً بارّاً عائداً إلى أرضِ آبائهِ وأجدادِه. إنّ قانونَ العودةِ اليهوديّة يُشكّلُ أحدَ الأساسيّاتِ التي تقومُ عليها الدولةُ اليهوديّة ; كونهُ يُمثّلُ جانِباً هامّاً من جوانبِ المسؤولياتِ والإلتزاماتِ الأخلاقيّةِ للدولةِ اليهوديّة تجاهَ الأمّةِ اليهوديّة جمعاء ، كذلكَ فإنني على يقينٍ تامٍ بأنّ الدولةَ الفلسطينيّة القادمةَ ستُصدرُ قانوناً مُشابهاً لهذا القانونِ فورَ إقامتِها تعبيراً عن التزامِها الأخلاقيّ تجاهَ جميع اللاجئين الفلسطينيينَ في شتّى بقاعِ العالَم.

ويُصنّفُ قانونَ العودةِ إلى أرضِ إسرائيلَ على أنّهُ قانونٌ للهجرةِ ; إذ يحقّ لأي دولةٍ ذاتِ سيادةٍ أن تُصدر قوانينَ للهجرة، وهوَ بذلكَ – ومن منظورٍ واقعيّ - يختلفُ عن " الحقّ في العودة " الذي يتجاهلُ بشكلٍ صريحٍ سيادةَ أمةٍ محددةٍ على أرضٍ معينة من خلالِ إقحام جماعةٍ معيّنة داخلَ حدودِ تلكَ الدولةِ بهذه الطريقة.

ومما لا شكّ فيهِ بأنّ كلا الجانبين ، الإسرائيليّ والفلسطينيّ ، ينظُران باهتمامٍ بالغٍ إلى قضيّة " العودة " على أنَها أحدُ مقوّماتِ السيادةِ الوطنيةِ لكلا الشعبين ، فالحركةُ الاستيطانيّةُ تجسّدُ تعبيراً عن حقّ الجانبِ اليهوديّ في العودةِ إلى الأرضِ بأكملِها ، لمدينةِ الخليلِ لا لمدينة حيفا فقط ، وهوَ التجسيدُ المقابلُ لِحَقّ اللاجئينَ الفلسطينيينَ في العودةِ إلى مدينةِ حيفا ، لا لمدينةِ الخليل فقط.

بالتالي ، فإنّ مطالبةَ اللاجئينَ الفلسطينيينَ بالعودةِ إلى أراضيهِم التي تعتبرُ جزءاً من دولةِ إسرائيلَ حاليّاً تُعادِلُ مُطالبةَ الإسرائيليينَ بمواصلةِ بناءِ المستوطناتِ في الأراضي التي تعتبرُ جُزءاً من الدولةِ الفلسطينية. إنّهُ " الحقّ " الذي سيعملُ بلا شكٍ على تدميرَ إمكانيّاتِ الجانبِ الآخرِ من أجلِ بناءِ وطنٍ قابلٍ للحياة ، مما يعني أنّ التطبيقَ العمليّ لخطةِ تقسيمِ الأرضِ بينَ الشعبين يتطلّبُ من كلا الجانبينِ كبحَ جِماحِ مطالبهِما الشرعيّة بالحقّ في العودة لتقتَصرَ تلكَ العودةُ على الرجوعِ لبقعةِ الأرض التي يُمارسُ فيه كلُّ شعبٍ سيادتهُ الوطنية الفِعليّة على أرضِ الواقع.

إن التطبيقَ العمليّ لتحقيقَ السلامِ يتطلّبُ " تقليصاً " مُتبادلاً على كلا الجانبين ، وما أقصدُهُ هُنا هو أن " يُقلّصَ" الجانبُ الإسرائيليّ رغبتهُ في بناءِ المستوطناتِ ، فيما " يُقلّصُ " الجانبُ الفلسطينيّ من رغبَتِهُ في حقّ العودة، وتلكَ هيَ التنازُلاتُ المُسبقةُ والمُتبادلةُ التي يجبُ أن تتحقّقَ من أجل الوصول إلى حلّ الدولتين ، إذ سيُحقّقُ اليهودُ حلمُ عودتهِم بالرجوعِ إلى دولةِ إسرائيلَ فقط ، لا لكاملِ الأرض ، بينما يُحقّقُ الفلسطينيون حلمَ عودتِهِم بالرجوع إلى الأرضِ الفلسطينيّة فقط ، لا لكاملِ الأرض. بالتالي فإنّ حلّ الدولتينِ قائمٌ على مقايضة حدود 1948 مقابلَ حدود 1967. بمعنىً آخر، أتنازلُ أنا عن الأراضي التي وقعَت تحت سيطرتي بعد حرب 1967 مقابلَ اعترافٍ منكَ بإسرائيلَ على حدود 1948، إضافة إلى ضماناتٍ جدّيةٍ بعدمِ نيّة أي طرفٍ من الأطراف التعدّي على سيادةِ الطرف الآخر ، لا عن طريقِ بناءِ " المستوطناتِ " في أراضي السيادةِ الفلسطينيّةِ ولا عن طريقِ المطالبةِ بـ"حقّ العودة" إلى الأراضي التابعةِ للسيادةِ الإسرائيليّة.

في الواقع ، فقَد كانَ الرئيسُ الفلسطينيّ محمود عبّاس على وشكِ القيام بقفزةٍ مفاهيميّةٍ مهولةٍ في سبيل الوصول إلى حلّ الدولتين ، قفزةٍ مُفاجئةٍ لم نكُن نتوقع منهُ القيامَ بها أبداً! ففي عام 2012 وخلال أحدِ المقابلاتِ الصحفيّة التي أجراها صحفيّ إسرائيليّ مع محمود عبّاس ، وجّهَ ذلكَ الصحفيّ سؤالاً للرئيسِ الفلسطينيّ يستفسرُ فيهِ عن ماهيّةِ الدولة الفلسطينيةِ ومفهومِها بالنسبة له ، فأجاب عبّاس قائلاً : " فلسطين بالنسبة لي هيَ دولةٌ قائمةٌ على حدودُ 1967 وعاصمتُها القدسُ الشرقيّة ، هكذا تبدو بالنسبةِ ليَ الآن وستظلّ هكذا إلى الأبد ، هذه فلسطينُ بالنسبة لي. صحيحٌ بأنني لاجيءٌ فلسطينيّ إلا أنني أعيشُ حاليّاً في رام الله .." .

واصلَ الصحفيّ الإسرائيليّ طرحَ الأسئلةِ قائلاً : " لكنّ التلفزيونَ الرسميّ لدولةِ فلسطين يتحدّثُ عن مدينة عكا والرملة ويافا – وهيَ مدنٌ داخلَ حدود 67 – على أنّها فلسطين أيضاً " ، فأجاب عبّاس : " إنني أؤمنُ بأنّ الضفةَ الغربيّةَ وقطاع غزة هيَ فلسطين ، أما باقي المناطقُ فهي إسرائيل.. ". تابعَ الصحفيّ الإسرائيليّ : " وماذا بالنسبةِ لبلدةِ صفد التي تقع في شمال إسرائيل التي فرّت منها عائلتُك يا سيّد عباس سنة 1948 ؟ " ، أجابَ عباس : " يحقّ ليَ رؤيةُ قريةِ صفد ، لكن ليسَ من حقّي أن أسكُنَ فيها ..".

حقيقةً ، فقد شعرتُ عقبَ سماعِ تصريحاتِ عبّاس بصدمةٍ غريبةٍ جعلَتني أستعيدُ الأملَ الذي سيُبدّدُ حالةَ الركودِ والإحباطِ التي سيطرت عليّ منذ اندلاعِ الانتفاضةِ الثانية، فها أنا أشهدُ اللحظةُ التي طالَ انتظارها ، لحظةُ وجودِ تقدّمٍ مفاهيميٍ من الجانبِ الفلسطينيّ تجاه َحلّ الدولتين ، وها هوَ محمود عباس يُتحدّثُ بمنتهى الوضوحِ عن رغبتهِ الصريحةِ في حلّ الدولتين بأسلوبٍ خطابيّ مؤثّر ، بَل من أشد الأساليبِ تأثيراً ; كونهُ يُقحمُ جانبهُ الشخصيّ كلاجيءٍ فلسطينيّ في صياغةِ ذلكَ الحلّ! ها أنا أخيراً أسمعُ خطاباً واضحاً يخلو من الازدواجيّة والحيلِ والألاعيب: حدود 1967 مقابلَ حدودِ 1948.

لكن في وقتٍ لاحقٍ تراجعَ الرئيسُ الفلسطينيّ محمود عباسَ عن تصريحاتهِ خلالَ خطابٍ لهُ أمامَ حشدٍ من الفلسطينيين ، حيثُ صرّحَ بأنّ ما قالهُ آنذاك " يعكسُ وجهة نظرهِ الشخصيّة " ، مُردفاً بأنه " لا يحقّ لأحدٍ أياً كانَ التنازلُ عن حقّ العودة " . حقيقةً ، إنني أرى بأن جميعَ الأطرافِ مذنبةٌ وتتحملُ مسؤولية فشلَ حلّ الدولتين ، ذلكَ لأن كلّ طرفٍ يُعلن على الملأ تبنّيه لحلّ الدولتين فيما يقومُ كل جانبٍ على أرضِ الواقع بالتقدّم تجاه ذلك الحلّ لكن باتجاهٍ مُعاكِس ; فالحكوماتُ الإسرائيليّة المُتعاقبةُ كانَت قد أعلنَت عن تبنّيها لحلّ الدولتين نظرياً ، إلا أنّ تلكَ الحكومات لَم تُظهر حسنَ النيّةِ بكلّ ما تعنيهِ الكلمةُ من معنى فيما يتعلّق بالتزامها بذلك الحل ، وهو ما يتضّحُ جليّاً من خلالِ ما كانَت تقومُ به على أرضِ الواقع من ممارساتٍ تدعمُ الحركةَ الاستيطانيّة بهدف تعزيز التوسّع الاستيطاني في الضفة وغزة. أما من الجانبِ الفلسطينيّ ، فلطالما أكّدَ الشعبُ الفلسطينيّ على رسالتِه الثابتةِ والواضحة كوضوح الشمس: وهيّ أنّ الوصولَ إلى حلّ الدولتين هو مجرّدُ تكتيكُ فلسطينيّ يهدفُ في نهايةِ المطاف للوصولِ إلى الدولةِ الفلسطينيّة الواحدة.

وعلى أيّ حال ، فقد رفضَت القيادةُ الفلسطينيّةُ كلّ خطةِ سلامٍ كانت تُطرحُ عليها خلال العقدين المُنصرمين نتيجةً لمطالبِ القيادةِ الفلسطينيّة المُتزمّتة فيما يخصّ قضيّة عودة اللاجئينَ الفلسطينيين ; تلَكَ الشروطُ التي تعني بالنسبة ليَ كإسرائيليّ بإنهُ يتوجّبُ عليّ أن أقومَ بالانتحارِ كشرطٍ مُسبقٍ لقبولِ القيادةِ الفلسطينيةِ بأيّ خطةِ سلامٍ تُطرحُ عليها!

وها أنا أنظرُ يا جاريَ العزيزُ إلى منطقةِ عناتا ومخيّم شعفاط للاجئينَ الفلسطينيين، كونهُ واحداً من المخيّماتِ الفلسطينيّةِ التي أستطيعُ رؤيتَها من شرفةِ منزلي. والمُلفتُ للنظر في هذا المخيّمِ هو البناءُ المُتواصلُ للبيوتِ والعماراتِ السكنيّة خلافاً لما يحدثُ في مخيّماتِ اللاجئينَ الفلسطينيينَ في قطاع غزة ، تلكَ المخيّماتُ التي تمنعُ الحكومةُ الفلسطينيّة أي أعمالٍ من شأنها تحسينُ الظروفِ المعيشيّة وتطويرَ مقوّماتِ الحياةِ الأساسيّة للاجئينَ الفلسطينيينَ الذينَ يقطنونَ هذه المخيّمات ; إذ على الأقل يُسمحُ لسكّان مخيم شعفاط بالتشييد والبناء داخلَ حدودِ هذا المخيّم . إنني أرى عماراتٍ سكنيّةٍ تفوقُ في ارتفاعِها ارتفاعَ الجدار ، كما أرى حبالَ الغسيلِ المُعلّقةَ خارجِ بعض الشقق السكنية ، في حين يبدو وكأن العديدَ من تلكَ الشققَ السكنيّةَ خاليةٌ من أيّ سكانٍ حتى الآن.

من ناحيةٍ نظريّة ، تعد تلكَ المنطقةُ جزءاً من المناطق التابعة لبلديّة القدس ; حيثُ يقومُ عمّالُ النظافةِ التابعينَ لبلديّة القدسِ بجمع النفايات من هذه منطقة ، في حين يشعرُ رجالُ الدفاع المدني أو عمّالُ شركةِ الاتصالات بالخوف من دخول هذا المخيم أذا ما دعت الحاجةُ لوجودهِم فيه. من ناحيةٍ أخرى ، فإن منطقة عناتا لا تخضعُ لسيادةِ الحكومةِ الفلسطينيّة ; الأمرُ الذي يُشعرُ سكّان تلك المنطقة بأنّهُم يسكنونَ منطقةً هي أشبهُ بمنطقةٍ حدوديّة فاصلةٍ بين دولتين ، منطقةٌ تتفشّى فيها الجريمةُ وتنتشرُ فيها المخدّراتُ ، وهوَ الأمرُ نفسهُ الذي يجعلُ من سكانِ عناتا ضحايا لفشلِ التوصّلِ إلى أيّ خطةِ سلام بين الجانبين. ولكن ، ورغم المآسي التي تشهدُها منطقة عناتا ، إلّا أنّها لم تَعُد مخيّماً للاجئينَ الفلسطينيين ، فسكّانُ عناتا لن " يعودوا" إلى أيّ مكانٍ آخر في حال قيام دولةٍ فلسطينيّة مُستقلةٍ ; كونهُم سيصبحونَ مواطنينَ من مواطني الدولةِ الفلسطينيّة القادمة.

وعلى أيّ حال ، فإنّ القيادةَ الفلسطينيّة تُصرُّ على وصفِ منطقةِ عناتا بأنّها مخيمٌ للاجئينَ الفلسطينيين ، فيما ينشأ جيلٌ فلسطينيّ يتلوهُ الآخر محاطاً بوهمِ العودةِ إلى أطلالِ البيوتِ الإسرائيليّة المدمّرة. من جانبٍ آخر ، فإن المُجتمعَ الدوليّ متواطيءٌ أيضاً في استمرار" تضليل " تلكَ الأجيال ; ففي خمسينيّاتِ القرنِ المنصرم قرّرت الأمم المتحدة إنشاءَ وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين " الأونروا " ، حيثَ كانَ هذا القرارُ استجابةً للتقاربِ بين مصالحِ الدول الإسلاميّةِ والمعسكر الشيوعيّ ودولِ عدم الانحياز، فيما تُمَوّلُ الأونروا اللاجئينَ الفلسطينيينَ في المخيّماتِ الفلسطينيّة بمنهجيّةٍ لا تفرّق بين لاجئي مخيّماتِ الضفةِ الغربية ولاجئي مخيّماتِ لبنان.

ولنكونَ صريحينَ مع بعضنا البعض يا جاريَ العزيز ، فإن الأونروا هيَ المنظمةُ الوحيدةُ المنبثقةُ عن هيئة الأممِ المتحدةِ والمُخصصةُ لخدمةِ قضيّةِ لجوءٍ واحدةٍ دون غيرها من قضايا اللجوءِ في العالم ، أضِف إلى ذلكَ بأن قضيّةَ اللجوءِ الفلسطينيّ هيَ قضيّة اللجوء الوحيدةُ في العالم التي تنتقلُ فيها صفةُ اللجوءِ بالوراثة ، أي من جيلٍ لآخر ، حتى لو كان الجيلُ الأوّل من اللاجئينَ الفلسطينيينَ يسكنُ في فلسطين نفسها!

ونتيجةً لهذا ، فقد كانَ الدعمُ الماليّ الذي سخّرهُ المُجتمعُ الدوليّ لقضيّةَ اللاجئينَ الفلسطينيين من خلال الأونروا أكثرَ بكثيرٍ من الدعم الماليّ الذي تلقّتهُ أي قضيّة لجوءٍ أخرى في العالم ، لتكونَ نتيجةُ هذا التمويلِ مزيداً من الغضبِ والحقد والبؤس بينَ صفوفِ الفلسطينيين. أما بالنسبةِ للاجئينَ الفلسطينيين في العالم العربيّ ، فإننا إذا ما استثنينا دولةَ الأردن التي منحَت اللاجئينَ الفلسطينيين جنسيّة أردنيّة ، سنجدُ بأنّ الدولَ العربيّة كانت ولا زالت تعاملُ اللاجئينَ الفلسطينيين كبشرٍ بلا هويّة ، فيما حرصَت تلكَ الدولُ على إبقاءِ اللاجئينَ الفلسطينيينَ داخلَ مخيّمات اللجوء حتى يومِنا هذا ، في محاولةٍ من تلكَ الدول العربيّة لتسييسِ قضيّة اللاجئين الفلسطينيين ومعاناتِهم لاستخدامها كورقةٍ ضغطٍ دائمةٍ ضدّ إسرائيل.

وفي الوقتِ الذي تتلقّى فيه الأونروا هذا الدعمَ الماليّ السخيّ يا جاريَ العزيز ، فإننا نجدُ العديدَ من المنظماتِ الإنسانيّةِ التي تبحثُ عن قدرٍ من الاهتمامِ والدعم الماليّ العاجل ، تلكَ المنظماتُ التي ترعى قرابة الستين مليون لاجيءٍ- على الأقّل - حولَ العالم ، فيما تعودُ أسبابُ تهجير أولئكَ اللاجئينَ إلى الكوارثِ التي حلّت ببعض دولِ الشرق الأوسط ; الأمرُ الذي يجعلُ من الصفةِ الخاصةِ الذي مُنحَت للاجئين الفلسطينيينَ أمراً يصعبُ التعاملُ معهُ في ظلّ الظروف القاسيةِ التي حلّت بالمنطقة مؤخّراً. وعدا عن ذلك كلّه ، فإنّ المُعارضةَ الإسرائيليّة الدائمةَ لعودةِ اللاجئينَ الفلسطينيين إلى أراضٍ تعتبرُ جزءاً من دولةِ إسرائيلَ تَزيدُ من الأمور تعقيداً وتَجعلُ من قضيّةِ اللجوءِ الفلسطينيّ مُعضلّة في طريقِ طموحاتِ الشعب الفلسطينيّ في إقامةِ دولته ذاتِ السيادة الوطنيّة الفلسطينيّة المُستقلّة.

أخيراً وليسَ آخراً ، فإنني يا جاريَ العزيزُ أعرِفُ الشعبَ الإسرائيليَ تمام المعرفة ، هذا الشعبُ الذي إذا ما شعرَ بأنّ تحقيقَ السلام هوَ أمرٌ ممكنُ الوصولُ إليهِ ، فأنّ الغالبيةَ العُظمى من المُجتمع الإسرائيلي ستدعُم الانسحابَ الإسرائيليّ الكاملَ من الأراضي الفلسطينية ، تماماً كما حدثَ عندما دعمَت غالبيةُ المُجتمعِ الإسرائيليّ الانسحابَ الإسرائيليّ الكامِلَ من صحراءِ سيناء عام 1982، وهوَ الأمرُ نفسهُ الذي حدثَ قُبيلَ انطلاق مباحثات أوسلو للسلام عام 1993 .

من جهةٍ أخرى ، إذا ما أرَدنا إقناعَ المُجتمعِ الإسرائيليّ بضرورةِ الإقدامِ على هذه المجازفةِ المخطيرةِ والمتمثّلةِ بالانسحابِ من الأراضي الفلسطينيّة في ظلّ ما نشهدهُ من ظروفٍ شرقِ أوسطيةٍ غير مُستقرة ، فإنّنا نرغبُ كإسرائيليينَ في سماعِ صوتِ جيرانِنا الفلسطينيينَ وهمّ يعبّرونَ لنا بصراحةٍ تامّةٍ عن أنّ الرفضَ الفلسطينيّ لحقّ إسرائيلَ في الوجودِ قَد انتهى أخيراً ، ذلكَ الرفضُ الذي لم يعُد بمقدورنا احتمالهُ أبداً أيّها الجارُ العزيز ; كونَنا نرغبُ بشدّةٍ في رؤيةِ جيرانِنا على هذهِ الأرضِ وهُم مُقتنعونَ تماماً بأنّ دولةَ إسرائيلَ هيَ دولةٌ قَد وُجدَتْ لِتبقى.

الرّسالةُ السابعةُ : اسحقُ وإسماعيل

جاريَ العزيزُ ،

اليومُ هوَ أوّلُ أيامِ عيدِ الأضحى المُبارَك ، لذلكَ أتمنى لكَ عيداً مُباركاً ، وكلّ عامٍ وأنتَ بألفِ خير بمناسبةِ حلولِ هذا العيدِ الذي يحييهِ المُسلمونَ مُستذكرينَ اليومَ الذي افتدى اللهُ بهِ اسماعيلَ بذبحٍ عظيمٍ عندما أرادَ أبوهُ ابراهيمَ التضحيةَ به امتثالاً لأوامرِ اللهِ عزّ وجَلّ. أنحاءُ الحيّ هادِئةٌ بعضَ الشيء، فيما أرى ازدحاماً مرورياً أقلّ من المُعتادِ، بينما يرتادُ عددٌ قليلٌ من فلسطينيّي القدسِ الشرقيّة القطارَ الخفيفَ هذا اليوم ، وقُبيلَ المساءِ أرى أضواءً ملوّنةً مُبهِجَةً تجعلُ من تلّتكِ تبدو مُفعَمَةً بالحياةِ.

وعلى ذكرِ هذه المناسبةِ العظيمةِ يا جاريَ العزيز، فإنهُ من الصعبِ علينا تجاهلُ العديدِ من الأمور المُشتركةِ التي تجمعُ بينَ اليهوديّة والإسلام ، في الوقتِ نفسه ، هُناك العديدُ من الأمور التي تفرّق بيننا كيهودَ ومسلمين. بدءاً بالأمور المشتركة بيننا ، فإننا كمسلمينَ ويهود نمتلكُ مبدأً دينياً مُشتركاً يَعتبرُ القانونَ والروحانيّةَ أمرينِ يستحيلُ الفصلُ بينهُما أبداً ; بالتالي فإن حالةَ الارتباط الشديدِ بين الروحانيّة والقوانين الحياتيّة تنظّمُ العديدَ من مناحي حياتِنا ، كالطعام والشرابِ مثلاً ; إذ أنّ تزكيةَ الطعام روحانيّاً تعني وجودَ أمورٍ يَحِلّ علينا تناولُها وأمورَ أخرى من المُحرّم علينا تناولهُا. كذلك الحالُ بالنسبةِ للمجسّماتِ المنحوتة والمنقوشة بشكلٍ عامٍ ، والتي تنظرُ إليها كلتا الديانتانِ على أنّها أمورٌ مكروهةٌ تَنتهِكُ قدسيّة الذاتِ الإلهية. كذلكَ فإن كلا المُعتقدَين اليهوديّ والإسلاميّ يتضمّنان في تفاصيلِهما تقاليدَ روحانيّةً تعبّرُ عن شوقٍ وحنينٍ للوصولِ إلى ما بعدَ المُعتقدِ نفسهِ، أي الوصولَ إلى الله مباشرةً.

كلانا أيضاً يا جاريَ العزيزُ يتبعُ عقيدتينِ عرفتا جيّداً معنى الصحراءِ في روايتهِما التاريخيّة، كونها كانَت البيئةَ التي انطلقَت منها الديانتان اليهوديّة والإسلاميّة ; الأمرُ الذي ساهمَ إلى حدٍ كبيرٍ في تشكيلِ ماهيّةِ معاناتِنا من أجلِ الاستمرارِ والبقاء. أضف إلى ذلكَ كلّهِ أننا أبناءٌ ينتمونَ لِلأبِ ذاتِه: ابراهيمُ الخليل عليهِ السلام ، ذلكُ الأبُ الذي يُجسّدُ في كلا الديانتين نموذجاً ومثالاً حيّاً للكرمِ والضيافةِ والمروءةِ ، ذلكَ الأبُ الذي جعلَ من خيمته في الصحراءِ مضافةً واستراحةً للمسافرين عبرَ الصحراء.

توجّهتُ في أحدِ الأيام لزيارةِ مغارةِ المكفيلةِ في مدينةِ الخليل ، وهوَ الموقعُ الذي يُطلقُ عليه بحسبِ المُعتقدِ الإسلامي اسمَ المسجدَ الابراهيميّ. حقيقةً ، إنّهُ المكانُ الوحيدُ الموجودُ في الأرضِ المقدّسةِ الذي يُشعرني بوجودِ جذوريَ الضاربةِ في عمقِ هذه الأرض من جهة ، فيما يُشعرني بشيءٍ من التشويشِ والاضطرابِ من جهةٍ أخرى.

لقد سُميّت مغارةُ المكفيلةُ بهذا الاسم نسبةً إلى الكلمة العبرية "مخبيلا" والتي تعني المُزاوجة ; كون هذه المغارة تضمّ ضريحَ الأزواجِ المؤسسينَ للديانةِ اليهودية : ابراهيم وزوجتهُ سارة ، واسحق وزوجتهُ رفقة ، ويعقوب وزوجتهُ ليئة. من جهةٍ ثانية ، لربما يكونُ لكلمةِ المخبيلا مقصدٌ آخر: وهوَ المزاوجةُ بينَ العقيدتينِ اللتين ظهرتا على يدِ أبناءِ ابراهيم: اليهوديّة والإسلام ; بالتالي فإن هذا التشابُكَ والارتباط الشديدين بين هاتين الديانتين لم يأتِ عبثاً ، بَل لربّما يكونُ غايةً من غاياتِ اللهِ سبحانه وتعالى التي تريدُنا أن نتماسكَ ونتعاضدَ كي نزدهرَ كديانتينِ توحيديّتين جنباً إلى جنب.

وعلى أيّ حال ، وعلى الرغم من أهميّة هذا المكان لكلا الديانتين ، إلا أن هذا المكانَ يحوي مفارقةً مؤسفةً ; فهوَ المكانَ الذي ألحقنا فيه ألماً وأذىً شديداً ببعضنا بعضاً على الرغمِ من أنّهُ المكانُ الذي قُصدَ منه أن يكون نقطة انطلاقٍ لاعترافِ اليهود والمسلمين وبارتباطهِم العميق بهذه الأرض ، وهوَ أيضاً المكانُ الذي قُصِد للّغتين العربيّة والعبريّةُ أن تكونا اللغتينِ اللّتين تنطقان بلسانِ هذهِ الأرضِ وتعبّرانِ عن روحِها.

وبالعودةِ إلى زيارةِ مغارةِ المكفيلة يا جاريَ العزيز ، فإن زيارتي لهذا المكان - والتي أعتبرُها بمثابةِ زيارةَ حجٍ - تبدأ انطلاقاً من ركنٍ خارجيّ من أركانِ هذا البناء الحجريّ الشامخ الذي أسّسهُ الملكُ اليهوديّ هيرودس الأول ، والذي نشاهدُ مكانهُ الحرمَ الابراهيميّ حاليّاً. وفورَ دخولي إلى المغارة ، أرى لافتةً معلّقةً في الممرّ الذي يقودُ إلى الدرجِ العلويّ ، فيما كُتبَ على هذه اللافتة بأنهُ يُحظرُعلى اليهودِ تجاوزُالدرجةِ السابعةِ من درجاتِ هذا السُلّم بأمرٍ من دائرةِ الأوقافِ الإسلاميّة، كما يُحظرُ على اليهودِ دخولُ هذا المبنى والوقوفُ أمام ضريحِ أبينا ابراهيم وأمّنا سارة للصلاة على قبرهِما ، وهوَ حُظرٌ مَنَعَ اليهودِ من الوصول إلى هذهِ الأماكنِ لقرونَ مَضَت كجزءٍ من الوضعِ القائم في هذا المكان.

في الوقتِ نفسِه ، فإنني أرى تشابهاً بينَ ما كانَ يقومُ به الحجّاجُ اليهودُ في هذا الضريح في السابق وما يقومُون بهِ اليوم; فعوِضاً عن زيارةِ المقامِ وأداءِ الصلواتِ هُناك، يقومُ أولئكَ الحجّاجُ بإدخالِ قصاصاتٍ ورقيّةٍ يُكتبُ عليها آياتٌ من الأدعيةِ اليهوديّة إلى داخلِ الشقوقِ الموجودةِ بين الصخور، وهوَ الأمرُ نفسهُ الذي كانَ يقومُ به اليهودُ سابقاً لأداءِ صلواتهِم وأدعيتهِم بينما كانوا يذوقونَ مرارةَ الشتات.

حقيقةً، فقَد كانَ الوضعُ مُختلفاً تماماً في هذا المكانِ خلال العقودِ التي سبقَت حرب الأيام الستة ، إذ لم يكُن مُقسّماً إلى منطقتينِ يهوديّة وإسلاميّة ، بَل كانَ اليهودُ والمُسلمونُ يحتكّونَ ببعضهِم البعض بكاملِ الحريّة في أروقةِ هذا المقام ، فيما كانَت النساءُ المسلماتُ المُتّشحاتُ بالوشاحِ الإسلاميّ المعقودِ على أسفل ذقونّهنَ يقفنَ بجانبِ النساءِ اليهوديّاتِ المُتشحاتِ بالوشاحِ اليهوديّ المعقودِ على أسفلِ رقابهنّ ، وحتى إن لم تكُن النساء من كلتا الديانتين يُصلين مع بعضهنّ البعضَ إلا أنّهنّ - على الأقل - كُنّ يقفنَ جنباً إلى جنبٍ بالقرب من بعضهنّ في نفسِ المكان. عندما كنتُ أرى هذا المشهدَ يا جاريَ العزيز ، كنتُ أرى بُعداً آخر لقداسةِ هذا المكان ، بُعداً يتجسّدُ ببساطةٍ في وجودِ الحجيجِ اليهود والمسلمينَ معاً في المكانِ نفسِهِ.

إنني لا أنكرُ يا جاريَ العزيز بأنّ هذا المشهدَ كان تحت مرأى ومسمعِ الجيش الإسرائيليّ الذي يفرضُ سيطرتهُ على هذا المكان، كذلكَ فإنني لا أنكرُ أنّ التوترَ كان يبدو جليّاً بين الجانبين من حينٍ لآخر، إلا أنّ هذا المكانَ شهدِ لأوّل مرةٍ وجود اليهودِ والمسلمينَ معاً ; الأمرُ الذي أشعرني ببركةِ أدائنا لصلواتِنا جنباً إلى جنب في المكانِ نفسِه.

وعلى أيّ حال ، لقَد كانت العلاقةُ التي تجمعُ بيننا أشبهَ بخيطٍ رفيعٍ يربطُ الديانتين ببعضهما البعض ، إلا أنّ ذلكَ الخيطَ قد قُطعَ تماماً عقبَ المجزرةِ الدمويّةِ التي قامَ بها المُجرمُ باروخ غولدشتين في شهر رمضان ، بالتحديد في الخامس والعشرين من شباط سنة 1994 ، حينَ اقتحمَ الحرمَ الابراهيميّ مُطلقاً النار باتجاه المصلّينَ المُسلمينَ أثناء تأديتهِم الصلاة بالقرب من مقام اسحق وزوجته رفقة ، حيثُ أدّت هذه المجزرةُ الدموية إلى مقتل 29 فلسطينيّ وإصابةِ العشراتِ في مجرزةٍ بشعةٍ نعتبرُها واحدةً من أفظعِ الانتهاكاتِ لحُرمةِ الله وأكثرها تدنيساً لاسمهِ وقدسيّته.

اقتربتُ من ضريحِ ابراهيم وسارة ، وهي غرفةٌ صغيرةٌ مسقوفةٍ بسقفٍ عالٍ بعضَ الشيء تضمّ حجَراً مجوّفاً يمثّلُ شاهداً لقبري ابراهيمَ وسارة الذين يقعانِ في المغارةِ الموجودةِ أسفلَ تلكَ الغرفة ، فيما تُعدّ هذه الغرفةُ جزءاً من المنطقة التابعةِ لليهود ، حيثُ يَفصلُ بينها وبينَ المنطقةِ التابعة للمسلمينَ بوابةٌ معدنيّة مُقفلةٌ بقربِ شاهِدين حجريّينِ لقبري اسحق وزوجته رفقة ; الأمرُ الذي - بنظري- يعكسُ وضعاً غيرَ منطقيّ على الإطلاق ; فهذا هو أحدُ الأمكنةِ التي لا يُمكن لكلا اليهود والمسلمين أن يكونوا غرباءَ بداخلهِ مهما كانَت التقسيمات الداخليّة لهذا المكان المُقدّس

جَلستُ على أحدِ المقاعدِ المحاذيةِ للبوابةِ الحديديّة ، وهيّ البوابةُ التي اقتحمَ المُجرمُ باروخ غولدشتين المكانَ من خلالِها بعد أن ملأَ سلاحهُ الاوتوماتيكيّ بالذخيرة ثم قامَ بتفريغهِ في أجساد أولئكَ المُصلّين من رجالٍ ونساءٍ بكلّ دمٍ بارد أثناء سجودهِم في الصلاة ; الأمرُ الذي لا زلتُ غير قادرٍ على استيعابهِ حتى الآن ، إذ كيفَ تجرّأ هذا المُجرم على القيامِ بتدنيسِ اسمِ اللهِ وانتهاكِ حُرمةِ عِبادهِ بهذه الطريقةِ الشنيعة!

وبينما أتجوّلُ في أروقةِ هذا المكان ، أسمعُ صوتَ المؤذن يُنادي للصلاةِ من الخارج قائلاً :" اللهُ أكبر، اللهُ أكبر " ، فيما يعمّ الصوتُ أرجاءَ المكانِ لدرجةٍ يبدو فيها وكأنهُ يتسرّبُ إلى مسمعي من بين شقوق الجدران . في الواقع ، فقد بدَت بعضُ ملامح القلق والاضطرابِ ترتسمُ على وجوهِ الزوّار اليهودِ لذلكَ المكان فورَ سماعهِم لصوتِ الأذان ، فيما التفتَ أحدُ الزوارِ القادمينَ من نيويورك والذي كان يرتدي قبّعةً سوداءَ فيما تتدلى من رأسه سوالفُ طويلة قائلاً : " أتعلم شيئاً؟ عندما تتفكّرُ في هذا الصوتِ الذي ينادي المسلمين للصلاةِ بعبارةِ الله أكبر ، ستجدُ بأنهُ نداءٌ رائعٌ ومؤثرٌ إلى حدٍ ما ، أليسَ كذلك؟ ". أجبتهُ : " أجل ، بكلّ تأكيد". أردتُ أن أعانقَ ذلك الشخص بحرارةٍ ; كونكَ نادراً ما تجدُ شخصاً يرى أي نوايا حسنةٍ لدى الجانبِ الآخر في مثل هذه المواقِف ، خاصةً هُنا في مدينةِ الخليل.

وبطبيعةِ الحالِ، فإنّ الصراعَ القائمَ بيننا لا يعدّ صراعاً ذا نزعةٍ وطنيّةٍ فقط ، كما أنّهُ ليسَ صراعاً على الأرضِ فقط ، إنهُ صراعٌ ذو أبعادٍ أعمقَ من ذلك بكثير، أبعادٌ تتمثّلُ في مخاوفِ كلا الشعبين وآمالهما المُستقبليّة على حدٍ سواء ، الأمرُ الذي يُقوّضُ من حجمِ الفُرصِ للوصولِ إلى حلّ لهذا الصراع من جهة ، ويؤثّرُ سَلباً على العلاقاتِ اليهوديّة الإسلاميّة حولَ العالمِ من جهةٍ أخرى ، مما يَزيدُ من حجمِ المسؤوليّة المُلقاةِ على كاهلِنا في سبيلِ كبحِ جِماحِ مشاعر الحقدِ والكراهيةِ التي سيطرَت على كلا الجانبين.

بالتالي يبقى هذا السؤال عالِقاً بلا إجابةٍ أيّها الجارُ العزيزُ: كيفَ بإمكانِنا احترامُ الإلتزاماتِ والمشاعر الدينيّة للجانبِ الآخر في الوقتِ الذي تُشكّلُ فيه تلكَ الالتزاماتُ مصدراً لتهديد التزاماتِنا ومشاعرنا الدينيّة؟ إنّ هذه المُعضِلةَ تبرزُ بشكلٍ جليّ في الأماكنِ المُقدّسةِ التي نتشاركُها معاً على كلا جانبي هذا الصراع ، والتي يُجسّد جبلُ الهيكلُ / الحرمُ الشريفُ أحدَ أهمّ المقضايا الجوهريّة التي يتمحورُ حولَها هذا الصراع ، إذ تتجلّى قمّة التعقيدِ الدينيّ في هذا المكانِ المُقدّسِ تحديداً.

وبمرورِ الوقت ، لم يُفلِح الكثيرُ من اليهودِ في فهمِ مدى العُمقِ الدينيّ للمسجد الأقصى الموجودِ على قمّة جبلِ الهيكل وأهميّتهِ الدينيّة بالنسبةِ للمسلمين، حيثُ يأتي المسلمونَ مُتعبّدين في هذا المكان لاستحضارِ مُعجزةِ الإسراءِ والمعراج حينَ عرجَ النبي محمد عليه السلام من ذلكَ المكان إلى السماوات العُلا بحسبِ اعتقادِ المُسلمين ، في مُعجزةٍ اخترقَ من خلالها النبيّ محمد الحدودَ الفاصلةَ بينَ هذا العالمِ والعالمِ الآخر. حقيقةً ، فأنني أواجهُ الكثير من التجاهلِ والإنكارِ- خاصةً من قبلِ اليمينِ اليهوديّ - لأهميّة هذا الموقع بالنسبة للمسلمين ، تجاهلٌ مَصدَرُهُ اعتبارُ المسجدِ الأقصى كثالثِ أقدسِ مكانٍ بالنسبة للمُسلمين ، وكأنّ قداسةَ الأماكنِ قضيّة يمكنُ قياسهُا أو تقديرُها حتى ! فعلى سبيل المثال ، تعدّ مغارةُ المكفيلة في مدينة الخليل ثانيَ أقدسِ موقعٍ ديني في الديانةِ اليهوديّة ، إلا أنّ أهميّتَها الدينيّة بالنسبةِ لليهودِ المُتديّنين وأهميّتَها الدينيّة بالنسبةِ لليهودِ غير المُتدينين لا يُمكنُ تقديرهُا أو قيسُها بأي شكلٍ من الأشكال.

من ناحيةٍ أخرى، فإنّهُ من الضروريّ أن نُدركَ كإسرائيليينَ كيفَ أصبحَ المسجدُ الأقصى مظهراً من مظاهرِ الاحتلالِ بالنسبة للمسلمين. في الواقع ، فإن عدمَ قدرتِكَ يا جاريَ العزيزُ على الوصولِ إلى المسجدِ الأقصى والصلاةِ فيه بحريّة دون حصولِكَ على تصريحٍ يُخوّلُكَ باجتيازِ الحواجز الإسرائيليّة هوَ بمثابةِ ألمٍ عميقٍ على المستويين الروحيّ والسياسيّ في الوقتِ نفسِهِ، بالتالي يتوجّبُ على الجانب الإسرائيليّ أن يُدركَ جيّداً حجم هذا الألم العميقِ الذي سببّناه للجانبِ الفلسطينيّ في خضم محاولاتنا لتحقيقِ الأمن والأمانِ للشعب الإسرائيليّ. إننا أيضاً بحاجةٍ ماسّةٍ إلى خطابٍ دينيّ يؤكّدُ على أهميّة الكرامةِ الدينية والروحيّة كجانبٍ مهمٍ من جوانب الحوار اليهوديّ الإسلامي ، لا خطاباً يُهينُ تلكَ الأماكنَ الدينيّة التي نحرصُ كلّ الحرصِ على حمايتِها والدفاع عنها.

بطبيعةِ الحال ، يؤمنُ الكثيرُ من غيرِ اليهودِ بأنّ الحائطَ الغربيّ هوَ أقدسُ المواقعِ الدينيّةِ اليهوديّة بالنسبة لنا ، كونهُ آخرَ المعالمِ المتبقيّة من الجدارِ الذي كان يُحيطُ بالهيكلَ اليهوديّ في يومٍ من الأيام. لكن لنكون دقيقينَ أكثر، فإنّ الهيكلَ اليهوديّ هوَ أكثرُ الأماكنِ قدسيّةً بالنسبة لليهود لا الحائطُ الغربيّ ; إذ يُمثّلُ الهيكلُ بالنسبة لنا النقطةَ المركزيّة للخلق بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى ، كوننا نؤمنُ في الديانةِ اليهوديّةِ بأنّ حضورَ اللهِ قد تجلّى حقيقةً في هذا المكان تحديداً وبين ظهراني شعبِ إسرائيل.

في الوقتِ نفسِه ، لا يندبُ اليهودُ بحرقةٍ على ضياعِ الهيكل على اعتبارِ أن ضياعهُ جسّد نهاية السيادةِ اليهوديّة على الهيكل وبداية الشتات اليهودي ، بل يندبُ اليهود على ضياعه لسببٍ أشدّ ألَماً من ذلك ، وهوَ بدايةُ "شتاتِ " الحضورِ الإلهيّ من بين ظهراني اليهود. في الواقع ، فإن تواصلُنا الحقيقيّ مع الهيكل كانَ من خلالِ رفضِنا المُطلقِ للقبول والتسليم بواقع الشتات إلى الأبد ، الأمرُ الذي تجلّى في أداءِ جميعِ أبناء الأمّة اليهوديّة لِصلواتهم وأدعيتهم صوبَ الهيكل اليهوديّ على اختلافِ أماكن تواجدهم في شتّى بقاع العالم. كذلك فإنّ النبوءاتِ التوراتيّة تنصّ على أنّ جميعَ الأمم البشريّة ستجتمعُ على قمّةِ جبلِ الهيكل في آخر الزمان، حيثُ سيأتيه الناسُ حجيجاً من كلّ حدٍ وصوبٍ ، فيما سيُصبحُ بيتُ اللهِ على جبلِ الهيكل " **بَيْتَ الصَّلاَةِ يُدْعَى لِكُلِّ الشُّعُوبِ** ".

ولأكونَ صريحاً معكَ يا جاريَ العزيز فإنني لا أعلمُ كيف ستتحقّقُ هذهِ النبوءاتُ على أرضِ الواقع ، ولا أعلمُ أيضاً إن كانَ يتوجّبُ عليّ كيهوديّ - وكَجزءٍ من التزاماتيَ الدينيّة - أن أقومَ بالإعدادِ والتجهيزِ لهذهِ النبوءاتِ أم لا. لكن من جهةٍ أخرى ، توضّحُ أحدُ قصصِ الحكمةِ اليهوديّةِ ماهيّة حدوثِ وتحقّقِ تلكَ النبوءاتِ وكيفيّةِ ظهور الهيكلِ اليهوديّ المُستقبليّ ككتلةٍ مُلتهبةٍ من اللهبِ التي تتدلّى من السماء ، بالتالي فإننا إذا ما دقّقنا في هذه القصة سنجدُ فيها تحذيراً صريحاً لليهودِ الذين تخضعُ مدينةُ القدسِ لسيادتهم حاليّاً: إياكُم وبناءَ الهيكلَ اليهوديّ مُجدّداً، فهذا شأنٌ من شؤونِ الله وهوَ وحدُهُ الذي يُقررّ متى يحينُ الوقتُ المناسبُ لِبنائِهِ.

ونتيجةً لهذا ، وبينما أنا عاجزٌ عن التخلّي عن تلكَ الصلةِ الوثيقة التي تجمَعني بجبلِ الهيكلِ دون أن أخالفَ جوهرَ الديانةِ اليهوديّة ، فإنني أتخلّى عن فكرةِ تحقيقَ تلكَ النبوءاتِ على أيدي البشر، إلا أنني أتمنّى أن تأخذَ بعين الاعتبار أهميّة بعضَ المواقع الموجودةِ في جبلِ الهيكلِ بالنسبة لي ، كما أنني أتمنّى أن تُنهي القيادةُ الفلسطينيّة حملتَها المتواصلة التي تُنكرُ أي صلةٍ يهوديّة بجبلِ الهيكل وبالأماكنِ المقدّسة الموجودةِ فيه ، خاصةً في ظلّ الرسالةِ المتواصلةِ التي يبثّها الإعلامُ الفلسطينيّ والتي تنفي بشكلٍ قاطعٍ وجودَ أيّ هيكلٍ يهوديّ في القدس ووجودَ أيّ صلةٍ يهوديّةٍ بالحائط الغربيّ ، كما تنفي وجودَ أي أدلّةٍ تاريخيّة تُثبتُ وجودَ جذورٍ تاريخيّةٍ لليهودِ على هذه الأرض أبداً ، وهيَ الرسالةُ نفسُها التي يبثّها الرئيسُ الفلسطينيّ محمود عباس حينَ يتحدّثُ عن القدس مؤكداً على التاريخِ الإسلامي والمسيحيّ لهذه المدينة ، متجاهِلاً بشكلٍ متعمّدٍ الحديثَ عن التاريخ اليهوديّ لمدينةِ أورشليم القدس.

وعلى أيّ حال ، يُمكِنُني القولُ بأنّ جميعَ الشخصياتِ الدينيّة والسياسيّة الفلسطينيّة التي تحدّثتُ معها خلال السنوات الماضية قد أجمعَت على أمرٍ واحد: وهوَ عدمُ أحقيّة اليهودِ في ممارسةِ شعائرَهُم الدينيّة في مغارةِ المكفيلة في الخليل في ظلّ السيادة الفلسطينيّة، فيما أنكَرتْ جميعُ تلكَ الشخصياتُ وجودَ أي صلةٍ يهوديّة أو ارتباطٍ دينيّ يهوديّ بهذه المغارة ، تلكَ المغارةُ التي وُجدَت لغايةٍ واحدةٍ وهيَ أن تكون مسجداً لا غير. كذلك ، وفي خِضَمّ حديثي مع تلكَ الشخصيّات ، فقد رحّب جميعهُم بالزوّار اليهود لتلكَ المغارة ، لكن كزوارٍ سائحين لا كحجاجَ متعبّدين ، وبالنسبةِ لليهودِ فإنّ استقبالهُم كسوّاحٍ في هذا المكان يوازي الوضعَ القائمَ في الحرمِ الابراهيميّ والذي يَحظرُ على اليهودِ التواجدَ في المنطقة التي تلي الدرجةِ السابعةِ من سلالمِ دَرَجِ مغارةِ المكفيلة.

حقيقةً ، فقد تركتني هذه المواقف الصادرةُ عن تلكَ الشخصياتِ الفلسطينيّة التي تتجاهلُ صِلتي وارتباطيَ الدينيّ بهذا المكان المقدّس في موقفٍ صعبٍ للغاية ، فغدوتُ كمَن أصابَهُ الشللُ لدرجةٍ احترتُ فيها كيفَ أردّ عليّهم وماذا أقول لهُم! هَل أعدّدُ لهُم المتاحفَ الإسرائيليّة الغارقةِ بالأدلّةِ الأثريّةِ التي تُثبتُ صِلةَ اليهودِ التاريخيّة بهذا المكان؟ أم أذكرُ لهُم الأبحاثَ والتقاريرَ التي أعدّها الباحثون والرحّالونَ الذين زاروا القدسَ عبر التاريخ؟ أم ألوذ بالصمتِ كي لا أفتحَ البابَ أمامَ نقاشٍ عقيمٍ قد يراهُ البعضُ على أنّه اعترافٌ بشرعيّةِ وصحّةِ مواقفهُم المتجاهلةَ لتاريخيَ اليهوديّ في هذا المكان؟

أضِف إلى ذلكَ يا جاريَ العزيزُ التصريحاتَ المتواصلةَ من قبلِ القيادةِ الفلسطينيةِ والتي تتّهمُ اليهودَ بتشكيلِ خطرٍ حقيقي على وجودِ المسجد الأقصى ; الأمرُ الذي قادَ بنهايةِ المطافِ إلى تَصاعدِ موجةِ عنفٍ شديدةٍ تعرّضَ خلالَها اليهودُ لهجماتٍ عديدةٍ بالطعن وإطلاقِ النار وحتى الدهس بالسيارات من قبل الفلسطينيين في سبيلِ ما أطلق عليهِ الفلسطينيون " حمايةَ " المسجدِ الأقصى من مؤامراتِ الحكومةِ الإسرائيليّة التي تُحاكُ ضدّ المسجد الأقصى وذلكَ من خلالِ إفراغِ الحرمِ الشريفِ من أيّ تواجدٍ إسلاميّ والحدّ من تواجد المُسلمين فيهِ بشكلٍ كلّي.

لهذا ، دعني أقولَ لكَ بكلّ تأكيدٍ وبصريحِ العبارة يا جاري العزيز: لا توجدُ أيّةُ مؤامرات إسرائيليّة لتدميرِ المسجد الأقصى، كذلكَ فإننا لا نستهدفُ التواجدَ الإسلاميّ في المسجدِ الأقصى ولا نطمحُ لمحاربة تواجدِ المسلمين في الحرمِ الشريف بأيّ شكلٍ من الأشكال. إنّ فكرة المؤامرةِ اليهوديّة على المسجد الأقصى هي فكرةٌ لا أساسَ لها من الصحّة ، وهيَ إحدى الشائعاتِ التي انتشرَت بشكلٍ أو بآخر منذ عشرينيّات القرنِ المُنصرم ، حيثُ تسبّبَ انتشارُ هذه الشائعاتِ بنتائجَ كارثيّة أدّت إلى ارتكابِ مجازرَ دمويّةٍ باسم اللهِ وباسمِ الدفاعِ عَن مقدساته ، وخيرُ مثالٍ على النتائج الكارثيّة لهذه الشائعاتِ المسمومةِ هوَ مجزرةُ سنة 1929 في الخليل والتي راح ضحيّتُها عشراتُ اليهود.

وليكُن بمعلومِك أيضاً بأنّ السياسةَ الإسرائيليّة في الحرم الشريفِ بعد انتهاءِ حربِ الأيّام الستةِ قامت على أساس استيعابِ التواجدِ الإسلاميّ ومنحِ تسهيلاتٍ للمسلمين من جهة ، وفرضِ قيودٍ تَحُدّ منَ التواجدِ اليهوديّ في باحاتِ المَسجدِ الأُقصى من جهةٍ أخرى ، لدرجة تمّ فيها منعُ اليهودِ من أداءِ صلواتِهم الدينيّةِ في هذا المكان.

ولأدلّلَ على كلامي يا جاريَ العزيز ، دَعني أستحضر هذا الموقفَ الذي حدث خلال حربِ الأيام الستة ، تحديداً عندما وصلَ جنودُ وحدةُ المظليينَ الإسرائيليينَ إلى جبل الهيكل / الحرم الشريف صبيحةَ يوم السابع من حزيران سنة 1967، حينَ اندفعَ الجنودِ لا إراديّاً إلى باحةِ الحرمِ مُعلنين استعادةَ السيطرةِ اليهوديّة على هذا المكان ، فيما تسلّقَ جنديّانِ إسرائيليّان قبّة الصخرة رافعينَ علماً إسرائيليّا فوقها. وفورَ رؤيةِ وزيرِ الدفاع الإسرائيليّ آنذاك موشي ديّان لهذا المشهد أثناء متابعتهِ لمُجريات الأحداث عبر المنظارِ من قمّةِ جبل المشارف ، أبرقَ إلى رئيسِ وحدةِ المظليين طالباً منهُ إزالةَ العلمِ الإسرائيليّ من فوق قبّة الصخرة ، فقامَ بإنزالِ العلمِ الإسرائيليّ على الفور.

إنّ هذا الموقف الرائعَ هوَ أحدُ الأمثلةِ الحيّةِ التي تُظهر ماهيّة القيودِ المفروضةِ على التواجدِ اليهوديّ في منطقةِ الحرم الشريف ، حيثُ لم ترجِع الأمّةُ اليهوديّةُ إلى أرضِها لتفرضَ قيوداً على المسلمينَ أو لتتآمر علَيهِم ، بل عادَ اليهودُ لأرضهِم ومكانِ عبادتهِم المقدّس في هذه البقعة التي حُظر عليهم التواجدُ بها لمئاتِ السنينَ ليمارسُوا سيادتهُم عليها في لحظةِ الانتصار تلك . وعقبَ انتهاء الحربِ بفترة وجيزةٍ ، التقى موشي ديّان بكبار الشخصياتِ الإسلاميّةِ الرسميّةِ مانحاً إياهُم بشكلٍ رسميّ حقّ الاعتراضِ على أداءِ الصلواتِ اليهوديّة على جبلِ الهيكل. في الوقتِ نفسه، فقد تقبّل اليهودُ المتديّنونَ ما قام به موشي ديّان بصدرٍ رحب ، ولنكون دقيقينَ أكثر ، فإن غالبيةَ اليهودِ المُتديّنين يرفضونَ المشي فوق جبل وباحاتِ المسجدِ الأقصى خوفاً من تدنيسِ أقدسِ المُقدّساتِ - أي الحرمَ الداخليّ للهيكلِ اليهودي - نظراً لأنَ الموقعَ الذي يتواجدُ فيه هذا الحرم الداخليّ تحديداً لا زالَ مجهولاً حتى هذه اللحظة.

من ناحيةٍ أخرى ، فإنهُ من الصعبِ علينا إنكارُ المُطالباتِ المُستمرّةِ والمتصاعدةِ لأقليّةٍ دينيّةٍ إسرائيليّةٍ - ولحسنِ الحظ أنّها لا زالَت أقليّة - تسعى لممارسةِ ضغوطٍ شديدةٍ على الحُكومةِ الإسرائيليّةِ بهدف تغيير الوضع القائمِ في الحرم الشريف من خلالِ السماح لليهودِ بأداء صلواتهِم في باحةِ الحرَم ، إلّا أن الحكومةَ الإسرائيليّة اليمينيّة - رغم تشدّدها - لا زالت تتمسكُ بالوضع القائم وترفضُ رفضاً قاطعاً تغييرَ هذا الوضعِ من منطلقِ حُرمةِ تدنيسِ الحرمِ الداخليّ للهيكلِ الذي لا نعرفُ موقعهُ تحديداً ، بالتالي يُمنعُ علينا التواجدُ في هذه الباحاتِ منعاً باتّاً.

إنني أتفهّمُ أيضاً وجهة النظرالتي يتبنّاها بعضُ إخوتي اليهود والتي ترى في هذا الوضع القائم أمراً في منتهى السخافة ، ذلكَ الوضعُ الذي إذا ما أردنا أن نكون واقعيين فإننا سنجدُهُ بالفعل في منتهى السخافة! فعندما يتواجدُ اليهودُ في جبلِ الهيكل يقومُ الحرّاسُ المسلمونَ بإحاطتهِم وحراستهِم حراسةً مُشدّدة ، فيما يقومُ أولئكَ الحرّاسُ بمراقبةِ " شِفاهِ " الزوّار اليهودِ في محاولةٍ منهُم لسماع ما إذا كانَ هؤلاء اليهود سيتفوّهونَ بأي صلاةٍ يهوديّة أم لا، وفي حال قيام أيّ يهوديّ بتلاوةِ أيّ صلاةٍ يهوديّة فإنّهُ يتمّ سحبهُ على الفور واعتقالهُ من قبل الشرطةِ الإسرائيليّة. تأمّل معي قليلاً في هذا الموقفِ يا جاريَ العزيز، ألا تجدُه أمراً في منتهى السخافةِ حينَ يتمّ منعُ المصلّينَ اليهود من تأديةِ الصلواتِ اليهوديّةِ في هذا المكانِ من قبلِ حكومةٍ يهوديّة؟

وعلى أيّ حال ، فإنني - كغالبيّة الإسرائيليينَ - أتقبّلُ هذه التضييقَ الذي فرضناهُ نحنُ اليهودُ على أنفسِنا في الحرم الشريف بصدرٍ رحب ، كوني أتفهّمُ رؤيةَ الحكومةُ الإسرائيليّة واتخاذها لمثلِ هذهِ الإجراءاتِ من بابِ نظرتِها الواقعية البراغماتيّة لا من بابِ التعاطفِ مع المسلمين ، ذلكَ من أجل الحيلولةِ دونَ نشوبِ حربٍ دينيّة بين الجانبين. من ناحيةٍ ثانيةٍ ، فإن البراغماتيّة التي نتمتّعُ بها نحنُ اليهودُ - خاصة عندما تتعلقُ الأمورُ بالمطالبِ الدينيّة - هيَ أمرٌ قلّما نراهُ في هذه المنطقةِ من العالم ، لذلكَ يا جاريَ العزيزُ أريدُكَ أن تسألَ نفسَك هذا السؤال : هل حدثَ وأن شهِد تاريخُ الأديانِ وجودَ أمة تحظرُ على نفسِها التواجدَ في أكثر الأماكن قدسيّة بالنسبةِ لها؟

أنّهُ لمنَ المهم أيضاً أن نُدرك بأنّ السلامَ يقومُ بالأساس على مبدأ الاحترامِ المُتبادلِ قبلَ كلّ شيءٍ ، وهوَ ما يفرضُ على الإسرائيليين معاملةَ الفلسطينيين معاملةً كريمة ، لكن من وجهة نظرِ العديد من اليهودِ فإن احترامَ الإسرائيليين لغيرِهم يشكّلُ تحدّياً جسيماً أمامَ المُجتمع الإسرائيليّ ; نظراً لأن إسرائيلَ تشكّلُ في الواقع مُجتمعاً مُضطرباً إلى حدٍ ما ، مُجتمعاً قائماً على وجودِ لاجئينَ اقتلِعوا من جذورِهِم في هذه الأرض ولاجئينَ عادوا إلى جذورِهِم مُجدّداً إلى هذه الأرض ، فيما نشأ في ذلك المُجتمع أبناءُ هؤلاءَ وهؤلاءَ ; الأمرُ الذي يُظهر الجانبَ المُظلمَ لتعدديّة المُجمتع الإسرائيلي: وهو الصراحةُ الزائدة التي تتحوّل بسهولةٍ إلى وقاحةٍ تُناقضُ اللباقةَ والتهذيب اللتانِ تتصّفانِ بهما المُجتمعاتُ العربيّة. في الواقع، لا يُعلمُ اليهودُ كيفَ يعاملونَ بعضهُم البعضَ بتهذيبٍ ولباقة ، فما بالك بمعاملتِنا مع أولئكَ الذين نحتلّهُم؟

إننا يا جاريَ العزيزُ أمّةٌ تسيرُ في عجلةٍ من أمرها لتعوّضَ ما فاتَها من ضياعٍ خلال قرونِ الشتاتِ التي كانَت فيها أمّتنا مُتفرّقة ، إننا أمةٌ لا تُعطي أيّ انتباهٍ للمواقفِ التي يتوجّبُ علينا أن نكونَ فيها لَبقينَ ومهذّبين ، وهذا ما يجعلُني أعتقدُ أحياناً بأننا لو عرفنا كيف نُظهرُ قدراً من الاحترامِ أثناءَ تعاملِنا مع الفلسطينيين لكانَ الواقعُ مُختلفاً إلى حدٍ كبير. لهذا ، فإن ما أطلبهُ منكَ أيّها الجارُ العزيزُ هوَ قدرٌ من الاحترام لقصةِ الأمةِ اليهوديّةِ ; ذلكَ لأنّ الحملةَ المُمَنهجةَ التي تنفي ارتباطَ اليهودِ بهذه الأرض تقودُ اليهودَ لقناعةٍ مفادُها بأنّ جوهرَ هذا الصراع ليسَ الاحتلالُ أو المستوطناتُ ، بَل إنّ جوهرَ هذا الصراع يتمثّل في الحرب التي تُشنّ على التاريخ اليهوديّ في هذه المنطقة ، ذلك أن قناعاتَ اليهودِ مبنيّة على أساسٍ واقعيّ مفادهُ بأنّ المحاولاتِ الهادفةَ إلى طمسِ الوجودِ اليهوديّ " نظريّاً " تشكّلُ مُقدّمةً لمحاولةِ طمسِنا والقضاءِ علينا " فِعليّاً ".

كذلكَ يا جاريَ العزيز فإنّهُ يتوجّبُ على كلا الجانبين معالجةُ الأذى العميقِ الذي تَرَكتهُ إهانتُنا لبعضِنا البعض في نفوسِنا، كما يتوجّبُ علينا أن نُدركَ جيّداً بأن ما نحنُ عليه الآن هوَ نتيجةٌ طبيعيّة لمخاوفِنا العميقة من بعضنا البعض ، تلكَ المخاوفُ التي تُعزّزُها أفعالُنا على أرض الواقع. إضافة إلى ذلك ، يتوجّبُ علينا تعلّمُ كيفيّةِ احترامَنا لما مرّ بهِ الطرفانِ من تجاربَ مؤلمةٍ خلال تاريخِهما، حيثُ يتوجّبُ على الجانب اليهوديّ أن يتوقفَ عن القيام بما من شأنهِ تعزيزُ مخاوفِ المُسلمين النابعةِ عن تجاربِهم مع الاستعمار الغربيّ، فيما يجبُ على الجانبِ الفلسطينيّ أن يتوقفَ عن القيامِ بما من شأنهِ تعزيزُ مخاوفِ اليهودَ التي نتجَت عن تجاربِهم التاريخيّة بتعرّضِهم لشتّى أنواعِ الاضطهادِ عبر التاريخ. ومن وجهةِ نَظري ، كلّما تمحورَ هذا الصراعُ على الألمِ الذي سبّبهُ المسلمونَ واليهود لبعضِهم البعض ، كلّما أضَعنا الفرصة لتحقيق سلامٍ حقيقي بيننا ; الأمرُ الذي يطرحُ سؤالاً هامّاً : هل ستقودُنا الأديانُ إلى صراعٍ أبديّ بينَ اليهوديّة والإسلام في حربٍ تقتَتِلُ فيها الديانتان حولَ مدى قدسيّةِ وِصحّةِ مَزاعمِ كلا الديانتين؟

إنني أؤمنُ بشدةٍ بأنّ كلا المُعتقَدين يمتلكانِ إمكانيّاتٍ ومقوماتٍ من شأنِها أن تساعِدَنا على العيشِ بسلامٍ وكرامةٍ جنباً إلى جنب، لكن يتوجّبُ علينا في الوقت نفسهِ أن نقفَ وقفةً صريحةً وجادّةً مع أنفسِنا ونعترفَ بوجودِ معوّقاتٍ عديدةٍ تحولُ دونَ تقديم كلتا الديانتين لتنازلاتٍ في سبيلِ الوصولِ إلى ذلك الهدف ، فمن منظورٍ يهوديّ : هَل تتقبلُ الديانةُ اليهوديّةُ فكرةَ تقسيم الأرضِ المقدّسة التي وضعها اللهُ أمانةً في أعناق اليهودِ من أجلِ الوصول إلى تفاهمٍ وقبولٍ لمطالبِ الطرفِ الآخر؟ من ناحيةٍ ثانية ، أي من المنظور الإسلاميّ: هل تعترفُ الديانةُ الإسلاميّة بواقعٍ يكونُ فيه اليهودُ أصحابَ سيادةٍ ودولةٍ ذات أغلبيّةٍ يهوديّة بين دولِ العالم الإسلاميّ؟ بمعنى آخر ، هل يتخلّى المسلمونَ عن فكرةَ وجودِ اليهودِ " كأهلِ ذمّةٍ " في كنف الدولِ الإسلاميّة، أي كمواطني درجةٍ ثانية؟ وهل يؤمنُ المسلمونَ بأنّ من حقّ اليهودِ أن يتمتّعوا بسيادتِهم الوطنية مثلما يتمتّعُ بها المُسلمون في دولِ العالمِ الإسلاميّ؟

وعلى أيّ حال ، فإن النصوصَ الدينيّة للدياناتِ التوحيديّةِ تصوّرُ أصحابَ الدياناتِ الأخرى بطريقةٍ معقّدةٍ ومُتناقضةٍ بعضَ الشيء. فعلى سبيلِ المثال ، يصوّرُ القرآنُ الكريمُ والحديثُ الشريفُ اليهودَ على أنّهُم قومٌ آثمونَ عاقّونَ وناكرونَ للجميل ، إلا أنّ القرآنَ والحديثَ في الوقتِ نفسهِ يَصِفانِ مُتّبعي الديانتين اليهوديّة والمسيحيّة على أنهُما " أهلُ الكتابِ " بطريقةٍ تفرضُ على المُسلمينَ احترامُهُم جميعاً. كذلكَ الحالُ بالنسبة للتوراة ; إذ تصوّرُ التوراةُ والتعاليمُ العبريّةُ القديمة إسماعيلَ بالإنسانِ الفظّ الغليظِ ، وهوَ تصويرٌ ضمنيّ يعني وصفَ المُسلمينَ والعربَ بنفسِ الوصفِ ، إلا أنّ التوراةَ في الوقتِ نفسهِ تصفهُ على أنّهُ صاحبُ رسالةٍ إلهيّةٍ ربّانيّةٍ مباركةٍ. حقيقةً ، تتعدّدُ الأمثلةُ التي تُشيرِ إلى نُدرةِ الإطراءِ المُتبادلِ بينَ اليهوديّة والإسلام ، إلا أن هذا لا يعني عدمَ وجودِ أسُسٍ تدعو إلى احترامِ الكرامةِ الدينيّة للآخر في كلتا الديانتين.

إننا يا جاريَ العزيزُ بحاجةٍ ماسّةٍ للبحثِ عن تلكَ المواقفِ الايجابيّة التي تتضمنّها عقائدُنا وتقاليدُنا الدينيّة تجاه الآخر والتي تطرحُ تفاسيرَ حديثةً للنصوصِ والمباديءِ الدينيّة القديمة ، كونها الطريقةُ الوحيدةُ التي تفسّرُ تأقلمَ أي ديانةٍ مع الحداثةِ والتغيير. ومن منظورٍ يهوديّ ، فإنّ الديانةَ اليهوديّة تفتحُ البابَ على مصراعيهِ للتفاسيرِ والتأويلاتِ الجديدةِ للنصوص القديمةِ ; الأمرُ الذي منحَ الديانةَ اليهوديّة المرونةَ الكافية للاستمرار والبقاء ، وهوَ المبدأ نفسهُ الذي يُشرّعُ الأبوابَ لتوظيف الأديانِ بشكلٍ عامٍ لتكونَ إما أداةً لحربٍ أزليّةٍ أو لتكونَ منهجيّة للسلامِ، حيثُ يعتمدُ ذلكَ على كيفيّة قراءتِنا للنصوصِ الدينيّة القديمة. من وجهةِ نظري ، فإنّ الديانتين اليهوديّة والإسلاميّة هُما ديانتانِ تشكّلان عالمينِ معقّدين وثريّينِ في الوقتِ نفسه، عالمانِ يحملانِ النورَ لهذا العالم من جهة ، فيما يأخذان على عاتقيهما عِبءاً ثقيلاً جداً منذ قرونٍ طويلة. وبنهايةِ المطافِ، يتوجّبُ على كلّ ديانةٍ منهما أن تُجابهَ التحدّيات الداخليّة الموجودةَ في كلٍ منهُما في سبيلِ قبولِ وصياغةِ فهمٍ حديثٍ للنصوصِ الدينيّةِ القديمةِ.

وعلى الجانبِ اليهوديّ ، فإن رسالةَ التوراةَ هيَ رسالةٌ واضحةٌ كَوضوحِ الشمس: لقد منحَ اللهُ هذه الأرضَ لبني إسرائيلَ; الأمرُ الذي يمثّلُ لبعضِ اليهود قراراً إلهياً حاسماً فيما يخصّ ملكيّة هذه الأرض، فنحنُ مُلّاكُ هذه الأرضِ الشرعيّونَ وهذا أمرٌ غيرُ قابلٍ للنقاشِ بأيّ شكلٍ منَ الأشكال. واستناداً إلى هذا المُعتقَد فإنّ هذه الفئةَ من اليهود ترفضُ رفضاً قاطِعاً اقتسامَ الأرض وتشاركَها مع أي شعبٍ آخرَ ، أي الفلسطينيينَ على وجهِ التحديد ، وهيَ وجهةُ النظر التي تفسّرُ مُلكيّةَ هذه الأرض من قبلِ القائمينَ على الحركةِ الاستيطانيّة، بالتالي لا يوجدُ أي مكانٍ لأي إدعاءاتٍ ومزاعمَ وطنيّة فلسطينيّة تجاه الأرض بين ثنايا وجهةِ النظر تلك.

في الوقتِ ذاتِه ، فإنني أنظرُ إلى مبدأ مُلكيّةِ هذه الأرض من منظورٍ دينيّ مُختلفٍ إلى حدٍ ما ; كوني أعتبرُ أنّ مُلكيّة هذه الأرض لا تعودُ لنا نحنُ البشر بل تعودُ إلى اللهِ نفسِه ، فيما أستمدّ وجهةَ النظرهذهِ انطلاقاً من علاقةِ الديانةِ اليهوديّة بأرضِ إسرائيل، تلكَ العلاقةُ التي تُلزمُ القبائلَ اليهوديّة الاثني عشر بتركِ الأرض وعدمِ زراعتِها مرةً كلّ سبعِ سنواتٍ لكي تستعيدَ خصبتها ونضرتَها وتعودَ إلى وضعها الطبيعيّ، فيما تُلزمُ تلكَ العلاقةُ اليهودَ بإعادة أيّ قطعةٍ من الأرض تمّ تملّكُها كسدادٍ لدينٍ معيّن لصاحبِها مع إلغاءَ جميعِ تلكَ الديون بعد مضيّ خمسين سنةً على انتقالِ ملكيّة تلكَ الأرض ; ذلكَ لأنّ اللهَ هوَ مالكُ هذه الأرضِ لا عِبادُه. كذلكَ فإنه يُحرّمُ تناولُ أيّ من ثمارِ الأرضِ بعد عامِها الثالث ، فيما يجبُ أن يتمّ تخصيصُ مساحةٍ معينةٍ من مساحةِ الأرض بحيثُ تُتركُ ثمارُها للفقراءِ والمساكين. في الوقتِ نفسِهِ ، تنصُّ اليهوديّة على تطبيقِ تلكَ الوصايا الدينيّةُ المتعلّقةِ بالأرضِ وزراعتِها على أرضِ إسرائيل فقط.

حقيقةً ، فإنّ تلكَ القوانين توَضّحُ أمراً في غايةِ الأهميّة: وهوَ ملكيّةُ الله لهذه الأرض ، بالتالي فإنَ الحيرةَ التي تنتابُنا فيما يتعلّقُ بمُلكيّة هذه الأرض هو تعبيرٌ واضحٌ وصريحٌ عن قداستِها وعدم ملكيّتها من قبل البشر، إذ يستحيلُ أن يتمّ امتلاكُ شيءٍ مقدّسٍ من قبلِ كائنٍ سيفنى يوماً ما ، خاصّةً وأنّ القداسةَ تعني تلكَ المساحة التي يلتقي فيها هذا العالمُ الماديّ بما وراء حدودِنا الماديّة في بُعدٍ لا علاقةُ لهُ بأي من المزاعِم والإدّعاءاتِ البشريّة.

لكن يعودُ السؤالُ ليراودني مرةً أخرى يا جاريَ العزيز: هل تتمثّلُ غايةُ اللهُ في تملّكِ اليهود لِأرضِ إسرائيلَ جميعَها أم يتوجّبُ علينا كيهود اقتسامُ هذه الأرض مع شعبٍ آخر في هذا الزمنِ بالتحديد؟ بالنسبة لي وكما وضّحتُ آنِفاً ، فإنّ الشروطَ الصارمةَ لملكيّة هذه الأرض والتي تعني عدمِ أحقيّةِ مُلكيةِ هذه الأرضِ المقدّسةِ من قبلِ أي انسانٍ أو أي شعبٍ تُجسّدُ قناعةً قد تساعدُ في صياغةِ وجهةَ نظرٍ دينيّةٍ يهوديّة تقودُ إلى قبول مبدأ اقتسامِ الأرض وتشاركُها فيما بيننا كشعبينِ يتوجّبُ عليهِما الحفاظُ على هذهِ الأرض ورعايتُها والوصايةُ عليها، لا تَمَلّكَها.

كذلكَ فإنني أجدُ أكثرَ الأصواتِ اليهوديّة إثارةً هيَ الأصواتُ اليهوديّة المُتديّنةُ التي تؤمنُ بشدةٍ بمبدأ الشروطِ الصارمةِ التي فرضَها الله على ملكيّة هذه الأرض نظراً لتقاربُها مع وجهةِ نظري إلى حدٍ ما ، حيثُ توصّلَ بعضُ رجالِ الدين اليهوديّ البارزونَ من ذوي وُجهاتِ النظرِ المُعتَدِلة إلى قناعةٍ نابعةٍ عن ألمِهِم الشديد الذي تسبّبَ بهِ الثمن الباهظِ الذي دفعناهُ كيهود في سبيلِ تحقيق تطلّعاتِنا الدينيّة والتي تطمحُ لفرضِ سيادتِنا اليهوديّةِ على كاملِ أرضِ إسرائيل، حيثُ طرحَ رجالُ الدين هؤلاءِ مسألةَ قداسةِ الحياةِ الإنسانيّة وكونَها مُقدّمةً على على قداسةِ الأرض ، بالتالي يجبُ وقف شلالِ الدماء المسفوكِ بيننا على جانبي الصراع في خضمّ اقتتالِنا على هذه الأرض.

وفي السياق نفسه، يؤيّدُ بعضُ رجال الدينَ اليهود الطرحَ القائم على اقتسامِ الأرضِ بينَ الفلسطينيينَ والإسرائيليينَ استناداً إلى هذه الآية المُقتبسة من سفرِ أشعياء : " **صِهْيَوْنُ تُفْدَى بِالْحَقِّ، وَتَائِبُوهَا بِالْبِرِّ** " ، هذهِ الآيةُ التي تتضمّنُ وجوبَ تخلّي اليهودِ عن فكرتِهِم بتملّكِ كاملِ الأرضِ إذا ما أرادوا التعبيرَ عن انتمائِهِم وولائِهِم الحقيقيّ لها.

وعلى أيّ حال ، وخلالَ رحلتي لاكتشافِ الإسلامِ من الواقعِ الفلسطينيّ ، تعرّفتُ على شيخٍ صوفيّ سأسمّيهِ من الآن وصاعداً الشيخُ ابراهيم، حيثُ اصطحبني الشيخُ ابراهيم في رحلةٍ إلى مساجدِ المُسلمين في شتّى أنحاء الأراضي الفلسطينيّة، بالتالي شعرتُ برفقتهِ بنوعٍ من الأمان كوني كنتُ أتجوّل أينما أشاءُ في المناطقِ العربيّةِ بصحبةِ شيخٍ مسلمٍ يتمتّعُ بِمكانةٍ دينيّة مرموقةٍ بين أبناء مُجتمعه. وعلى أيّ حال، فما جَمَعنا أنا والشيخ ابراهيم كانَ نوعاً من الفضولِ الذي يتملّكُنا لاكتشاف العالم الدينيّ والروحيّ للطرف الآخر، الأمرُ الذي جعلنا نشعرُ بشيءٍ من المُتعةِ أثناء استكشافِنا لما يجمعُ وما يفرّقُ بينَ الديانتين الإسلاميّة واليهوديّة.

وفي أحدِ المواقفِ التي حدثَت معنا أثناء تلكَ الرحلة ، تلا الشيخُ ابراهيم هذهِ الآية العظيمةَ منَ القرآن الكريم : " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** " ، ثمّ وجّهَ الشيخُ ابراهيمُ مُمازِحاً : " ماذا تقولُ هذه الآية يا يوسي؟ هل تَحُضّنا على قتلِ بعَضنا البعض؟ " ، ثمّ أجاب : " قطعاً لا، إنّها تَحُضّنا على معرفةِ بعضِنا بعضاً يا يوسي". واصلَ الشيخُ ابراهيم طرحَ الأسئلة : " ما مدى معرفتكَ يا يوسي هاليفي بالدين الإسلامي؟ إنني أرى يوسي رجلاً متديناً ، لكن ما هوَ مصدرُ حكمتِهِ وتديّنِهِ؟ ومن هوَ الشيخُ ابراهيم بِنظره؟ وما هيَ الأمورُ التي سيعلّمها الشيخُ ابراهيم ليوسي هاليفي؟ وما هوَ الأمرُ المميّزُ الذي أوجدهُ الله فيكَ يا يوسي ولم يوجِدْهُ في الشيخِ ابراهيم؟ ".

لاحقاً، قمتُ بطرحِ عدة أسئلةٍ على الشيخ ابراهيم، أسئلةٌ تتعلّقُ بالرواياتِ المُختلفة في الديانة اليهوديّة والإسلاميةّ فيما يخصّ قصّةِ افتداءِ الله لاسحق واسماعيل في القرآن والتوراة ، فأيّ منهُما هوَ بطلُ تلكَ القصّة ؟ وهَل يُجسّدُ الصراعُ الديني والوطنيّ بين الروايتين التاريخيّتين للفلسطينيين والإسرائيليين امتداداً لتلكَ المنافسةِ بينَ اسماعيل وإسحق؟
أجابَ الشيخُ ابراهيم بكلّ بساطة : " إنني لا أرى في هذا التنافسِ بين اسحق وإسماعيلَ أي مشكلةٍ على الإطلاق! فلننظُر إلى القصة من جانبٍ مُختلفٍ بعض الشيء ولنسأل أنفُسنا هذه الأسئلة: أينَ تَجسّدَت عَظمَةُ اسماعيل؟ وأينَ تَجسّدَت عَظَمةُ اسحق ؟ لقد تجسّدتُ عظمتُهُما ببساطةٍ في امتثالِهِما لأوامر اللهِ وانصياعِهِما لرغبتِه ، وهوَ الأمرُ نفسهُ الذي أتمناهُ لابناءِ الشيخِ ابراهيمِ وأبناءِ يوسي هليفي: أتمنى أن يمتثلَ جميعهُم لأوامر الله مثلما امتَثَلَ لها اسحقُ وإسماعيل".

بمعنى آخر ، فإنّ الرسالةَ التي أرادَ الشيخُ ابراهيم ايصالَها لي كانت كالتالي : يجبُ علينا ألا نُبديَ اهتماماً كبيراً بِالأحداثِ والصراعاتِ التي تتضمنّها هاتان الرواياتان ، بل علينا أن نركّز اهتمامَنا على الرسالةِ المُشتركةِ في كلتا الروايتين والتي من شأنِها أن تكونِ سبباً لوحدتِنا كيهود ومُسلمين. فليكُن بطلُ هذه القصة إسحق أو اسماعيل ، أو لِيكُن كلاهُما بطلين لهذه القصة ، لقد كان هناكَ متّسعٌ في ذلكَ المذبحِ لاسحقَ واسماعيلَ وكلّ من انحدرَ من نسليهِما من اليهودِ والمسلمينَ الذي يرغبونَ في الامتثالِ لأوامر الله عزّ وجلّ بالتضحيّة بأنفسهِم في سبيلِ طاعتِه.

وعلى أيّ حال، فقد حرصَت الديانتان الإسلاميّةُ واليهوديّةُ على التمسّكِ بشدةٍ بتلكَ الرواياتِ التي احتوَت في طيّاتِها أُسسَ كلّ معتقدٍ منهُما. بالنسبة للمُسلمين ، فإن هذهِ القصة تعني الاستسلامَ للهِ والخضوعَ لهُ في سبيلِ تحقيقِ ما تصبو إليهِ الإنسانيّة. أما بالنسبة لليهودِ فإنّ هذه القصةَ تعني الشراكةَ مع اللهِ من أجلِ شفاءِ آلامَ البشريّة وحلّ مشاكلّها. حقيقةً ، فإن الاختلافَ في سردِ هذه القصّة في النصوصِ الدينيّة الإسلاميّة واليهوديّة يعتمدُ اعتمادا كلّياً على الطريقةِ التي وصَفت تلكَ النصوصِ للموقفِ الذي وقفَ فيهِ ابراهيم عليه السلام أمامَ اللهِ مُعترضاً على دمارِ قَريَتيْ سدوم وعميرة ، تلكَ القرى التي خسفها الله بسببِ الفواحشِ والمعاصي التي اقترفها أهلُها.

وفي الروايةِ التوراتيّةِ لهذه القصة ، يُحاورُ ابراهيمُ اللهَ عزّ وجلّ مفاوضاً إياه : إذا كانَ في هذه القرية خمسون من عبادكَ الصالحين، هل ستكفّ غضبكَ عن هذه القرية؟ أربعون؟ ثلاثون؟ عشرة؟ ، في مشهدٍ يبدو وكأنّ اللهَ ذاتَهُ يُشجّع ابراهيمَ على مواصلةِ محاولاتهِ اليائسةِ التي أظهرَت ابراهيمَ على أنّهُ مُعارضٌ لِلمشيئةِ الإلهيّةِ ، في الوقتِ الذي كانَ فيهِ ابراهيمُ يفاوضُ اللهَ في سبيل العزوفِ عن قرارهِ بِخسفِ تلكَ القرى وتقبّلِ البشريّة للمشيئةِ الإلهيّة وإنقاذ العبادِ الصالحين.

أما في الرواية القرآنية لهذه القصة فقد بادرَ ابراهيمُ إلى محاورةِ اللهِ مُحاولاً اقناعهُ تغييرَ مشيئتهِ وعدم إنزال غضبه على تلكَ القرى ، إلا أن ابراهيمَ سرعان ما يصمتُ ويتوقّفُ عن تلكَ المحاولاتِ في رسالةٍ إلهيّة مفادُها : من أنتَ يا ابراهيم ، أيّها الكائنُ البشريّ الفاني، لتحاولَ الاعتراضَ على مشيئتي؟ بالتالي يصمتُ ابراهيمُ مستسلِماً خاضِعاً لمشيئةِ الله رغمَ أنّه لم يفهَم الحكمةَ من وراء تلكَ المشيئة.

حقيقةً ، فإن ما تُخبرُنا به القصّتان من وجهةِ نظرٍ إسلاميّة ويهوديّة هو نموذجٌ حيّ يوضّحُ لنا نقطة خلافٍ جوهريّة بين كلتا الديانتين فيما يخصّ طبيعةِ العلاقة بين الانسانِ والذات الإلهيّة ، إلا أنّها اختلافاتُ احتَرمُها وأقدّرها جداً من وجهةِ نظري. إنني في الواقع أثمّنُ عالياً جُرأةَ أبينا ابراهيم في الروايةِ اليهوديّة - هذه الجرأة التي نصفُها بـِ الحوتزباه باللغة العبريّة - التي تحلّى بها والتي تمثّلَت في موقفِهِ الرافضِ للقبولِ بمعاناةِ البشرِ حتى لو كانَت تلكَ المعاناةُ مشيئةً إلهيّة ، حيثُ تُعدّ جرأةُ ابراهيمُ تلكَ صفةً هامّةً من صفاتِ مدارسِ ومجالسِ العلمِ في الديانةِ اليهوديّة ، تلكَ المجالسُ التي لا تقلّ فيها قيمةُ السؤالِ عن قيمةِ الإجابة في بيئةٍ تعليميّة تُشجّعُ طلبةَ المدارسِ الدينيّةِ على النقاش والحوارِ وطرحِ الأسئلةِ قبلِ الإلتزامِ بأي معتقدٍ دينيّ.

من ناحيةٍ أخرى ، فإنني أثمّنُ عالياً الحكمةَ من وراءِ استسلامِ ابراهيمَ وخضوعِهِ للأمر الإلهيّ بحسبِ الروايةِ القرآنيّة ، حيثُ يوضّحُ خضوعُ ابراهيم وصَمتَهُ أمامَ اللهِ مدى عبثيّة جدلِ ونقاشِ الإنسان فيما يخصّ الأوامر الإلهيّة ، فيما أرى في الخضوعِ للهِ والاستسلامِ لمشيئتهِ صفةً إسلاميّة عظيمةً يمارسها المُسلمونَ كلّ يومٍ خلال صلواتِهم من خلالِ امتثالهم وسجودهِم بينَ يدي الله خمسَ مراتٍ يوميّاً على سجادة الصلاة.

وعلى أيّ حال، فقد كانَ الخضوعُ للهِ والعنادُ الدينيّ صفتين شكّلتا الشخصيّة الإسلاميّة واليهوديّة على حدٍ سواء; إذ يسودُ في الديانةِ اليهوديّة مُعتقدٌ شائعٌ حولَ مبدأ " الشهادةِ " بالنسبة لليهود ، فيما تعودُ أصولُ ذلك المُعتقدِ إلى الفترة التي كان يعبدُ فيها الناسُ الأوثان ، ذلكَ حينَ فضّلَ اليهودُ المتشبّثونَ بدينهم الموتَ على الانصياعِ لعبادةِ الأوثان. كذلكَ فقد تضمّن التاريخُ اليهوديّ حركاتٍ يهوديّة عديدةً وضّحَت بِأنّ الانصياع لأوامر الله والخضوع له هوَ أحدُ أهمِ سُبُلِ التجديد الروحيّ والبعثِ من جديد. أما في الإسلام ، فإننا نجدُ بأن هذا المُعتقدَ الذي حثّ على التعمّقِ في الفلسفةِ والبحث العلميّ قد كان سبباً من أسبابِ الوصولِ إلى عصرِالنهضة ، ذلكَ العصرُ الذي كان لهُ شديدُ الأثر في نقلِ البشريّة نقلةً نوعيّة غيّرَت مجرى حياتِها.

أما في يومنا هذا، فإنني أرى بأن كلا المعتقدين يفتقدانِ جانباً أو أكثرَ من الجوانب التي تجعلُ ذلكَ المعتقدَ مُفعماً بالحياة ، حيثُ تفتقدُ الديانةُ اليهوديّة ذلكَ الانسجامَ بينَ الحداثةِ وروحانيّة اليهوديّة; الأمرُ الذي يبدو جلياً في انقطاع عددٍ لا بأس به من اليهود عن أداء الطقوس الدينيّة والعبادات اليهودية من أجل الصعودِ في رَكْبِ الحداثة. من ناحيةٍ ثانية ، يعاني الإسلامُ من مشكلةٍ مُختلفةٍ كلياً تتمثّلُ في تآكلِ ذلكَ المُعتقدِ نتيجةً لانعدامِ النقدِ الذاتيّ وحريّة البحثِ والاستقصاء بين طيّاته.

لكن إذا نظرنا لما تحتويهِ وما تفتقدهُ كلتا الديانتين، فلربّما نجدُ هامِشاً لمساعدةِ بعضِنا بعضاً كمسلمينَ ويهودَ في استعادة حالةٍ من التوازن التي ستُعيد حيويّة أديانِنا إلى سابقِ عهدها. باعتقادي الشخصيّ، فإنني أشعر بحاجة اليهودِ إلى استعارةِ الجوّ الروحاني لسجّادة الصلاة من المُسلمين ، تلكَ السجادةُ التي تحضّ العبادَ على الخضوعِ للهِ والامتثالِ لأوامِرِه ، فيما يحتاجُ المسلمون لاستعارة بيئةِ مدارسِ ومجالسِ العلمِ اليهوديّة من اليهود ، تلكَ البيئةُ التي تحضّ على النقاشِ والحوار قبلَ الإلتزام بأيّ اتزامٍ دينيّ. بالتالي يا جاريَ العزيزُ ، هل ترى معي وجودَ فرصة حقيقيّة نُلهُم بها بعضَنا بعضاً كمُسلمينَ ويهود من أجلِ تجديدِ عظمتِنا الروحيّة مرةً أخرى؟

إنني أرى دِفئاً ومروءةً مميزتين يتّصفُ بهما أبناءُ الديانتين الإسلاميّة واليهوديّة ، لكنّنا - ومعَ الأسفِ الشديدِ - نتحلّى بهاتين الصفتين حينَ نتعاملُ مع أبناءِ مُعتقدِنا فقط ، لا عِندما نُعاملُ أبناءَ المعتقداتِ الأخرى ، ذلكَ أن معالمَ القسوةَ سرعانَ ما تطغى على ملامحِنا حينَ نعاملُ الآخرين. وعِوضاً عن هذه المعاملة القاسية لبعضِنا البعض ، يتوجّبُ علينا أن نبحثَ عميقاً عن المصادرَ الدينيّة في كلا المُعتقدين والتي من شأنها أن تجعلنا على قناعةٍ تامّة بأننا جانِبانِ لروايةٍ مُقدّسة واحدة، جانِبانِ لا يمكنُ الفصلُ بينهُما أياً كانَ السبب ، حيثُ تبدأ أحداثُ تلكَ الروايةِ الدينيّة منذُ اللحظة التي ثارَ فيها أبونا ابراهيمُ عليه السلام ضدّ الأصنام وعبدةِ الأوثان فقامَ بِتحطيمِ أوثان أبيهِ مُعلِناً وحدانيّة اللهِ عزَ وجلّ من خلالِ رؤيةٍ عالميّةٍ وضَعَها ابراهيمُ لتوحيدِ البشريّةِ جَمعاء.

كذلكَ فإنهُ من المهمّ أن نُدركَ يا جاريَ العزيزُ بأنّ تقديرَنا واعتزازَنا بأمجادِ أبينا ابراهيمَ يجعلُنا نساهمُ مساهمةً عظيمةً في تلكَ اللحظةِ الهامّة من تاريخِ الإنسانية ، تلكَ اللحظةُ التي أعادَ فيها ابراهيم البشريّة إلى رُشدِها فاستعادَت بصيرَتها ووعيَها من خلال توحيد الله عزّ وجل. كذلك فإننا نشتركُ في الطموحِ نفسهِ يا جاريَ العزيز، يهوداً ومُسلمينَ ، طموحٌ يصبو إلى رؤيةِ هذا العالمِ خالياً من عبادةِ الأوثانِ مُتحَرّراً من العبوديّة لغيرالله بشتّى أشكالِها ، ومن كلّ ما من شأنهِ أن يحجبَ بصيرتنا عن رؤيةِ الوجودِ الإلهيّ في حياتِنا.

أخيراً وليسَ آخراً يا جاريَ العزيز ، أريدُ أن أذكّركَ بأن كلا المُعتقدين الإسلاميّ واليهوديّ قد أكّدا على حقيقةٍ مفادُها بأن أبينا ابراهيمَ الخليل قد دُفنَ على يدِ ابنيهِ اسماعيلَ واسحقَ معاً ، ذلكَ عندما وضعا الخلافاتِ التي كانَت بينهُما جانباً من أجل إعلاءِ شأنِ أبيهِما ابراهيم . ومثلما ورَثنا كمسلمينَ ويهودَ ذلكَ الخلافَ التاريخيّ بين اسحق واسماعيل ، علينا أيضاً أن نتذكرَ جيّدا هذه اللحظة العظيمةَ من إرثِ ابَوَينا اسحق واسماعيل، لحظة وَضعِ الخلافاتِ جانباً في سبيلِ تحقيقِ غايةٍ أكبر.

كذلكَ فإنهُ لمنَ الضروريّ أيضاً أنّ نستذكرَ المُروءةَ الذي تحلّى بها ابونا ابراهيمُ عليه السلام ، ذلكَ لأنّ استحضارَنا لكرمِ أبينا ابراهيمَ ومروءتِهِ قَد يكونُ سبباً في ايجادِنا لسبيلٍ نسلكهُ من أجلِ أن نصلَ إلى واقعٍ نتقبّلُ فيهِ وجودَ بعضِنا البعض على هذه الأرضِ المُقدّسة.

الرّسالةُ الثامنة : التناقضُ الإسرائيليّ

جاريَ العزيز،

بالعودةِ إلى بدايةِ عام 2000 ، أي الفترة التي سبقَت وجودَ الجدارِ والهجماتَ الانتحارية من قبل الفلسطينيين ، فقد حظي الفلسطينيونَ والإسرائيليون بفرصةِ التعرّفِ على بعضهِم البعضَ على الرغم من وجودِ الاحتلالِ كعائقٍ يفصلُ بينَهُم ، حيثُ أن ذلكَ العائقَ لم يمنع من وجودِ مساحةٍ للتواصلِ الإنسانيّ بينَ الشعبين ، وهوَ الأمرُ الذي نفتقدهُ بشدّةٍ في أيامِنا هذه ، حيثُ تحوّلت طبيعةُ التعامل بيننا من احتكاكٍ مباشرٍ على أرض الواقع الى مُجرّدَ احتكاكٍ بين الأفكارِ التي تجولُ في خواطرنا عن بعضِنا البعض.

حقيقةً ، فإن مصدرَ قلقي على الجيلِ القادم من الفلسطينيين والإسرائيليين نابعٌ من طبيعةِ اقتصارِ الاحتكاكَ بينهُما على مجالاتٍ معيّنة ، كما أنّ هذا الاحتكاكَ في انحسارٍ وتضاؤلٍ مُستمرّ لدرجةٍ صار فيها هذا أمراً نادرَ الحدوث، وهذا الانحسارُ هو نتيجةٌ طبيعيّة لمشاعرِ الحقدِ والكراهيةِ المُتصاعدةِ بين أبناء الجيل الشابّ على كلا الجانبين. إنّ أي فرصةٍ مُستقبليّةٍ للتعايشِ بينَ الشعبين تقتضي وجودَ قدرٍ - ولو كان قليلاً - من الاحتكاكِ الايجابيّ بين أبنائِهما في سبيلِ نشرِ جزءٍ من المعرفةِ المتبادلة حولَ الواقع الذي يعيشهُ كلّ طرفٍ من أطرافِ هذا الصراع.

لقد حدّثتُكَ يا جاريَ العزيزُ عن عقيدتي اليهوديّة وتاريخيَ الشخصيّ وتاريخِ أمّتي اليهوديّة ، إلا أنني الآن وعلى ضوءِ الآياتِ القرآنيّة التي حثّتنا على معرفةِ بعضِنا بعضاً كوننا شعوباً وقبائلَ مُختلفة ، فإنني أرغبُ في إخبارِكَ بالمزيدِ عن المجتمعِ الإسرائيلي الحديث ، ذلكُ المُجتمعُ الذي يَبعُدُ مسافةً ليسَت بالبعيدةِ عَن مرمى ناظريكَ. أريدُ أن أحدّثكَ أكثر عن ماهيّة ذلك المُجتمع وكيفَ يتدبّرُ الإسرائيليّونَ شؤونَ حياتهِم على الصعيد الداخليّ. بطبيعةِ الحال ، فإن كلا الشعبينِ الفلسطينيّ والإسرائيليّ مرتبطانِ ببعضهِما البعض إلى حدٍ كبير، بالتالي فإن ما تتخذهُ دولةُ إسرائيلَ من إجراءاتٍ وقراراتٍ سيلعبُ دوراً كبيراً في رسمِ ملامح مستقبلِ كلا الشعبين. وعلى أيّ حال ، فإنني إذا ما أردتُ الحديثَ عن خصائص ومعالم المُجتمعِ الإسرائيليّ فإنني سأختصرُ معالم هذا المجتمع في كلمةٍ واحدة : التناقُض !

حقيقةً ، فقَد عرّفَ ميثاقُ إعلانِ استقلال دولةِ إسرائيلَ هذه الدولةَ على أنّها دولةٌ ديمقراطيّة ويهوديّة في الوقتِ نفسِه، وبالعودة إلى واضعي هذا الميثاق فإنّ دولةَ إسرائيل هيَ الوطنُ الأمّ لليهودِ من شتّى أنحاءِ العالمِ بغضَ النظر عن كونهِم يحملونَ الجنسيّةَ الإسرائيليّةَ أم لا، كما أنّها الدولةُ التي تعاملُ مواطنيها على أسسٍ وقواعدَ ديمقراطيّةٍ بغضّ النظر عن كونهِم يهوداً أو غيرَ يهود. ونتيجة لهذا، فإن هذهِ الهويّة المُزدوجة لدولةِ إسرائيلَ مثّلَت أحدَ أصعبِ التحدياتِ التي وَرَثناها عن مؤسسّي دولةِ إسرائيلَ الأوائل.

لهذا ، ربّما تتساءلُ أيها الجارُ العزيز: هل تُعدّ إسرائيلُ دولةً علمانيّة أم أنّها دولةً قائمةً على أساسٍ دينيّ؟

إنّ إجابةَ هذا السؤالِ تعتمدُ اعتماداً كبيراً على المكانِ الذي تطرحُ فيهِ سؤالَك ; فإذا طرحتَ هذا السؤال أثناءَ تواجُدِكَ في مدينةِ تل أبيبَ التي تملؤها الملاهي الليليةُ والمطاعمُ التي لا تلتزمُ بالكوشير - الأكلُ الحلالُ بحسبِ المُعتقدِ اليهودي - فإنّك سترى إسرائيلَ على أنّها دولةً علمانيّة غيرُ متديّنةٍ على الإطلاق، أما إذا طرحتَ هذا السؤال أثناءَ تواجدَكَ في مدينةِ القدسِ التي تملؤّها الكنسُ وحلقاتُ الدراسةِ والمدارسُ الدينيّة اليهوديّة فإنّك ستجدُ في إسرائيلَ دولةً دينيّة تقليديّة بامتياز ، إلا أنّ ليَ وجهةَ نظرٍ مُختلفة بعضَ الشيء ; كوني أعَرّفُ دولةَ إسرائيلَ على أنّها دولةٌ علمانيّة قائمةٌ فوقَ ترابِ أرضٍ مُقدّسة.

وبالرجوعِ إلى ذلكَ الوقتِ الذي حَسَمَت فيه الحركةُ الصهيونيّةُ أمرَها نافيةً وجودَ أيّ وطنٍ بديلٍ للأمّة اليهوديّة سوى أرضِ صهيون ، فقَد أعلنَت بذلكَ عن صراعٍ مفتوحٍ بين الدين والدولةِ ، وهوَ صراعٌ يمكنُ إدارتهُ إلى حدٍ ما ، إلا أنّهُ من المستحيلِ إيجادُ حلّ جذريّ لهُ بأي شكلٍ من الأشكال . من ناحيةٍ أخرى، فإن دولةَ إسرائيل تمثّل نقطة الإلتقاءِ بين يهودِ الغربِ الأوروبيّ - الذين يُطلقُ عليهم اليهودُ الأشكناز- ، واليهود المرزاحيين - أي اليهودُ الذين تنحدرُ أصولهُم من الدول العربيّة والإسلاميّة الشرقِ أوسطيّة - . بالنسبة لليهودِ المزراحيين ، فإنّ دولةَ إسرائيل تعني لهُم تمييزَاً عنصريّاً مُورسَ بحقّهِم من قبل اليهودِ الأشكناز الذين كانوا يتحيّزونَ ضدّ اليهودِ المزراح خاصةً في السنواتِ الأولى لِقيام دولةِ إسرائيل ، نظراً لاعتقادِ اليهودِ الأشكناز بأنهُم هم مؤسّسو هذه الدولة وواضعو بنيانِها.

أما اليوم فواقعُ المُجتمعِ الإسرائيليّ مختلفٌ تماماً ; إذ تُجسّدُ إسرائيلُ اليومَ مكاناً يجتمعُ في ظلّهِ يهودُ الأشكناز والمزراح في واقعٍ أفضَل، تماماً كمظلّة الزفافِ التي يقفُ في ظلّها العروسان يومِ زفافِهما . حقيقةً ، فقَد بذَل المُجتمعُ اليهوديّ الأشكنازيّ العلمانيّ جهوداً حثيثةً في سبيلِ تأسيس وقيام دولةِ إسرائيلَ ، إلا أن تلكَ العلمانيّة التي أرسى قواعدَها اليهودُ الأشكناز لا زالَت طاغية حتى يومِنا هذا. في الوقتِ نفسِه ، فإن الموسيقى اليهوديّة والمطبخَ اليهوديّ وحتى اللغةَ العبريّة نفسَها قد تأثرت جميعُها بقوّةٍ وبشكلٍ مُطرّدٍ بالثقافةِ التقليديّةِ لِليهودِ المِزراح.

وإذا ما تغلغلتَ بعملقٍ أكثر في المُجتمع الإسرائيليّ يا جاريَ العزيزُ، فإنّكَ ستجدُ آلة العودِ الشرقيّة تُقابلُ آلة الغيتار الغربيّة ، كذلكَ فإنّك ستُدهشُ عندما ترى أغاني " البيوتيم " - الأشعار الدينيّة لليهودِ المِزراح - يتمّ إحياؤُها مرةً أخرى من الذاكرةِ الثقافيّةِ المنسيّة لليهودِ العلمانيينَ على يدِ كبار موسيقيّي الروك الإسرائيليين. ولنكونَ واقعيين أكثر ، فقد كانَت الموسيقى الإسرائيليّةُ أحدَ أهمّ الوسائلِ التي تعبّرُ عن الروحِ العلمانيّة الإسرائيليّة سابِقاً، إلّا أنّ الموسيقى الإسرائيليّة اليوم تُجسّد تعبيراً حقيقيّاً عن شوقِ اليهودِ ولهفتِهم لعودةِ الروحِ التقليديةِ اليهوديّةِ القديمةِ إلى الموسيقى الإسرائيليّة.

إنني أعرفُ العديدَ من اليهودِ المزراح الذين يعتبرون عِشقَهُم للفنانةِ المصريّة العظيمة أم كلثوم جزءاً من هويّتهِم العائليّة، كذلكَ يوجدُ العديدُ من الفنانينَ الإسرائيليينَ والفرقَ الموسيقيّة الإسرائيليّة – مثل فرقة أورفاند لاند – التي أدخلَت نمطَ العزف باستخدام الآلاتِ الموسيقيّةِ المعدنيةِ الثقيلةِ إلى الطريقةِ التي يتمّ بها تأديةَ الأشعار الدينيّة اليهوديّة القديمة . وعلى الرغم من كونِها فرقةٌ يهوديّة ، إلا أنَها فرقةٌ ذائعةُ الصيتِ في الدول العربيّة والإسلاميّة ، فعندما تعزفُ هذه الفرقةُ في دولة تركيا مثلاً - وهيَ الدولةُ الإسلاميّة الوحيدةُ التي تسمحُ لهذه الفرقة بإحياء حفلاتٍ على أرضها - فإنّك ستجدُ مُعجبي هذه الفرقةِ قد جاؤوا لحضور حفلاتِها من كلّ حدٍ وصوب ، من لبنان ومصر وحتى من إيران نفسها ، فيما ستجدُ بعضَ أولئكَ المُعجبين يلوّحونَ بأعلامِهم وراياتِهم الوطنيّة بينما تؤدّي تلكَ الفِرقةُ عروضَها الموسيقيّة.

وخلالَ حضوري لأحدِ المهرجاناتِ الموسيقيّةِ التي تُحيي الموسيقى العربيّة واليهوديّة معاً خارجَ أسوار البلدة القديمةِ في القدس ، أذكرُ أنني شاهدتُ موسيقيينَ عرباً ويهود، إسرائيليينَ وفلسطينيين مقدسيينَ من مُختلفِ أنحاء القدس يعزفون جنباً إلى جنب ، حيثُ كانَ الفنانونَ العربُ يغنّونَ الأغاني العبرية بينما يُغني الفنانونَ اليهود الأغاني العربيّة على خشبةِ المسرح ذاتِه ; الأمرُ الذي يعمّقُ من قناعتي بأنّ السلامَ بينَ الشعبين لا يُجسّدُ تحدّياً سياسيّاً فقط ، بل هوَ تحدٍ ثقافيّ أيضاً ، وهيَ قناعةٌ تَجلعُني أؤمنُ بأنهُ كلّما تمسّكَت إسرائيلُ بهويّتَها الشرقيّة ، كلّما تزايدَت فُرصُ تقبّلِ دولِ هذه المنطقةِ لحقيقةِ وواقعِ وجودِ إسرائيلَ على هذهِ الأرض.

وعلى أيّ حال ، فإن هذا التناقضَ الموجودَ في البُنيّةِ الأساسيّةِ لطبيعةِ المُجتمعِ الإسرائيليّ ناتجٌ عن اتّحادِ المُجتمعات اليهوديّة التي كانَت متفرّقةً في الشتات وهِجرةَ اليهودِ من شتّى أنحاء العالم إلى دولةِ إسرائيل. لقَد جَلبَ هؤلاءِ اليهودُ الحِكمةَ والدروسَ التي استخلصوها من تجربةِ الشتاتِ إلى واقعِ الحياةِ الإسرائيليّةِ ، فَبالعودةِ مثلاً إلى تجربتِي الشخصيّة كيهوديّ نشأ وترعرعَ في نيويورك خلالَ ستينيّات القرنِ المُنصرم ، فقد جلبتُ معي قيمَ التعدّديّة التي تشرّبتُ ملامِحَها من نمطِ الحياةِ الأمريكيّة ; الأمرُ الذي ساعدني كثيراً في نشرِ وترسيخِ هذه القيمة الثقافيّة الديمقراطيّة في المُجتمع الإسرائيليّ بعد هِجرتي إلى إسرائيل.

في الوقت نفسه ، فإننا لا نستطيعُ إنكارَ مخاوفِنا المتزايدةِ وقلقَنا الدائم من زعزعةِ القيم الديمقراطيّة التي قام عليها المُجتمعُ الإسرائيليّ ، خاصّة بينَ أبناءِ الجيلِ الصاعد من الشباب الإسرائيليّ ، هذا الجيلُ الذي عاصرَ فشلِ اتفاقيّة أوسلو وانهيار مباحثاتِ السلام مع الفلسطينيين ، فيما بُنيتْ ذاكرةُ هذا الجيلِ على مشاهدِ العنف والصواريخ التي ضَرَبَت إسرائيل من قطاعِ غزة ولبنان.

وفي خضمّ مخاوفي تلك ، أستذكرُ ما قام بهِ أحدُ جنود جيش الدفاع الإسرائيليّ عندما أطلقَ النار تجاهِ مواطنٍ فلسطينيّ أعزلٍ في مدينةِ الخليل فأرداهُ قتيلاً. في الواقع ، لقد سُررتُ للغايةِ حين قامَ جيش الدفاع الإسرائيليّ بِمحاكمةِ هذا الجندي الذي تجاوزَ بِفِعلتِهِ تلكَ المنظومةَ الأخلاقيّةَ لجيش الإسرائيليّ ضاربا بعرضِ الحائطِ قواعدَ وأخلاقيّاتِ الانتساب إليه ، إلا أنّ ما أحزنني جداً هوَ ابتهاجُ فئةٍ من الإسرائيليين بما قام بهِ هذا الجنديّ واحتفاؤهُم بهِ كبطلٍ رغم ما قام به من خرقٍ وتجاوز صارخٍ لأخلاقيّاتِ الجيش الإسرائيليّ.

من جانبٍ آخر ، فإنني أعرفُ الكثير من الإسرائيليينَ الذين ينحدرونَ من أصولٍ سوفييتيّة - على سبيل المثال - والذين نشأوا وترَعرَعُوا في ظلّ اضطهادٍ وقمعٍ مُمنهجٍ مورسَ بحقهِم من قبلِ أنظمة حُكمٍ مُستبدّة ، حيثُ تتمثّلُ هواجسُ هذه الفئة من الإسرائيليينَ في الانتقالِ من مرحلةٍ كان فيها هؤلاء اليهودُ السوفييت عاجزين عن الدفاع عن أنفسهِم إلى مرحلةٍ يجبُ عليهِم أن يتعلّموا فيها جيّدا كيفية استخدامِ القوّة من أجلِ حمايةِ دولتهِم. بالتالي ، تشعرُ مثلِ هذهِ الفئة من اليهودِ بأنّ القيمَ الديمقراطيّة ، مثل المنظومة الأخلاقيّة لجيش الدفاع الإسرائيليّ ، هي رفاهيّة لا داعي لأن تمتلكها دولةٍ تعيشُ تحتَ تهديدٍ دائمٍ كدولةِ إسرائيل ، فيما تشعرُ هذه الفئة بأن منظومةَ أخلاقيّاتِ الجيش الإسرائيليّ من شأنها أن تُقوّضَ قدرةَ إسرائيل على الدفاعِ عن نفسِها.

حقيقة ، يبدو ليَ النقاشُ الإسرائيليّ على المستوى القوميّ نقاشاً عقيماً ، يبدو وكأنهُ تاريخٌ يهوديّ يُعيدُ نفسَهُ مرةً أخرى; الأمرُ الذي يطرحُ أسئلةً هامة يتوجّبُ علينا الإجابةُ عنها : من نحنُ ؟ وماذا يتوقّعُ منّا التاريخُ اليهوديّ أن نُنجز؟ وكيف بإمكانِنا معالجةُ تلكَ التناقضاتِ العديدة أو حتى التعايشُ مَعَها؟

ممّا لا شكّ فيه بأنّ دولةَ إسرائيل هي انعكاسٌ لتناقُضاتِ اليهودِ أنفُسهِم ، خاصةً وأننا عُدنا إلى هذه الأرضِ بتطلّعاتٍ مُخالفةٍ تماماً للشكلِ الذي يجبُ أن تكونَ عليه الدولةُ اليهوديّة ، فعلى سبيلِ المثال لاالحَصر، جاءَ العلمانيونَ الصهيانةُ - والذين لم يكونوا يهوداً متديّنين على الإطلاق رغم ارتباطهِم العميق بالتقاليد اليهوديّة - إلى أرضِ إسرائيل بتطلعاتٍ تصبو إلى إنشاء دولةٍ تقوم " بتطبيع " اليهود وجعلهِم أمةً واحدة من نسيجِ المُجتمعاتِ اليهوديّة المتعدّدة ، لتقوم تلكَ الأمةُ على أقدامِها من جديد وتعيشَ واقعها كأي أمةٍ بشريّة أخرى رغم حالةِ التشتّتِ الفريدةِ التي عاشها اليهودُ عبرَ التاريخ. من جانبٍ آخر، فقد كانَ يأملُ العلمانيونَ اليهودُ بانتهاءِ ظاهرةِ معاداةِ الساميّةِ ومظاهرها تدريجيّاً في خضمّ تلكَ الجهودِ التي بذلوها من أجلِ وضع المعتقداتِ اليهوديّة التوراتيّة جانباً وفصلِها عن الحياةِ المدنيّة والسياسيّةِ الإسرائيليّةِ.

من جانبٍ آخر ، فقد كانَ الصهاينةُ المُتديّنونَ يطمحونَ لرؤيةِ دولةٍ يهوديّة تُجسّدُ المعنى الحقيقي لتميّز الأمة اليهوديّة ، أي أن تكونَ نوراً تهتدي بهِ جَميع الأمم البشريّة لتكونَ خلاصاً للإنسانيّة بأكملِها ; الأمرُ الذي أضاف مُعضلةً جديدةً على الساحة الإسرائيليّة ووضعَها مُجدّداً على مفترق طرق : كيفَ تُكونَ دولةً إسرائيلَ دولةً اعتياديّةً ومُميّزةً في الوقتِ ذاتِه؟ لقد ظلّت إجابةُ هذا السؤالِ غامِضةً من وجهةِ نظرِ الحركةِ الصهيونيّة حتى قيام دولةِ إسرائيل ، أما بعدَ قيام الدولة فقد اتّخذت وجهاتُ النظرِ المتناقضةُ تلكَ طابعاً اجتماعيّاً بحتاً.

وبالعودةِ إلى التناخ ، تحديداً إلى أحدِ القصص القديمةِ التي أرسَت قواعدَ مهمةً لتأسيس الدولةِ اليهوديّة ، حيثُ تتحدّثُ هذه القصّةُ عن موقفٍ توجّهَ فيهِ حكماءُ إسرائيلَ إلى نبيّ اللهِ صموئيل طالبينَ منهُ تسميةَ ملكٍ ليحكمَ أرضَ إسرائيل ، وهوَ أمرٌ من شأنهِ أن يَجلعُنا " أمةً كَباقي الأمم " ، فيما ردّ صموئيل بغضبٍ مُتسائلاً: لماذا يطالبُ حكماءُ إسرائيلَ بتنصيبِ ملكٍ اعتياديّ ليحكمَ أمّةً يقودُها الأنبياءُ؟ . لقَد جسّدَ هذا المطلبُ رغبةَ حكماءِ إسرائيلَ الصريحة في التحرّرِ من عبءِ كونهِم" شعبُ اللهِ المختار " ليكونوا بذلكَ أمّة بشريّة اعتياديّة كسائرِ الأمَم البشريّة. (بالمناسبة ، يقعُ قبرُ النبيّ صموئيل بالمقربةِ من تلّتي وتلّتِك يا جاريَ العزيز ، حيثُ يحوي المكانُ ذاتهُ ضريحِاً ومسجداً إسلامياً وكنيساً يهوديّاً).

حقيقة ، فقد شكّلَت هاتان النزعتانِ- أي اعتياديّة إسرائيلَ من جهة وتميّزها من جهةٍ أخرى- دافِعين مُزدوجَين لطالما وَقفا خلفَ الآمالِ والطموحاتِ اليهوديّة عبرَ التاريخ اليهوديّ، فيما تمثّلَت عبقريّةُ الحركةِ الصهيونيّةِ وَسِرّ نجاحِها في تجميع اليهودِ رغم شتاتِهم من خلالِ تبنّيها لهذين الدافعين وتعهّدِ الحركةِ الصهيونيّة بتحقيقِهما معاً ، أي بأن تكونَ دولةُ إسرائيلَ دولةً اعتياديّة ومُميزةً في الوقتِ ذاتِه.

إنني لا أخفي عليكَ يا جاري العزيز حقيقة شعوري الداخليّ العميق بهذين الشعورين المُتناقضين معاً ، إنني أنظرُ إلى تلكَ المرحلة الانتقاليّة التي تحوّل فيها اليهودُ من شعوبٍ مُشتتةٍ مُمزّقةٍ إلى أمةٍ موحّدةٍ تتمتّعُ بسيادةٍ على أرضِها التاريخيّة كواحدٍ من أعظم الانجازات اليهوديّة عبر مرّ التاريخ. من جهةٍ ثانية ، فإنني أريدُ أن تكونَ دولةُ إسرائيل دولةً اعتياديّة كأي دولةٍ أخرى يتبقّلُها المُجتمعُ الدوليّ بصدرٍ رَحبٍ وتضمنُ وجودَها وبقائها بين الدول دون أدنى خوفٍ أو قلق. إنني أطمحُ لأني يكون شعوري باعتياديّة دولة إسرائيلَ مماثلةً لاعتيادِ المرءِ على وجودهِ في منزلِه ، أمرٌ طبيعيّ اعتياديّ لا تشوبهُ أيّ غرابة.

كذلكَ فَإنني أرغبُ في رؤيةِ المُجتمعِ الإسرائيليّ وهوَ يسعى جاهِداً إلى تحقيقِ أمورٍ تتعدّى حدودَ وجودِه من خلال تحقيقِ الرؤيةِ التي وضعها أنبياء إسرائيل لهذه الأرض ، تلكَ الرؤيةُ القائمة على الوصولِ إلى دولةٍ قائمةٍ على العدل ، دولةٌ تستحقّ كلّ تلكَ الصلوات والأدعيّة والآمال التي وضَعناها فيها منذُ مئاتِ السنين.

وعلى أيّ حال ، فإن الجانبَ المُضحكَ والمتعلّقَ بمسألتي " اعتياديّة " دولةِ إسرائيلَ و "تميُّزها "هو أنّه لا زال بانتظارنا مشوارٌ طويلٌ وشاقّ لتحقيق هاتين الرؤيتين على أرضِ الواقع ، فإسرائيلُ تُعدّ دولة قائمة على أساس قوميّ ، إلا أنّكَ قلّما تشعرُ بأنها دولة عاديّة مثلَ سائرِ دولِ العالم القائمةِ على أساس قوميّ. إننا نشعرُ بأننا استثناءٌ بينَ دولِ العالم ، نشعرُ بأننا منبوذونَ من الأمم المتحدة ومن دولِ الشرق الأوسط وغيرهِم . من جانبٍ آخر ، فإنّ المجتمعَ الإسرائيليّ يحاولُ مع الأسف الشديد تقليدَ المجتمعات العاديّةِ في خضم بحثِه الدؤوبِ عن مرحلةٍ يصيرُ فيها المُجتمعُ الإسرائيليّ مُجتمعاً نموذجياً ، وأقولُ مع الأسف الشديد كون تلكَ المساعي أدّت إلى ظهورِ آفاتٍ تظهرُ في أيّ مُجتمعٍ تقليديّ كالفسادَ السياسيّ والجريمة المنظمة وغيرها من الاختلالاتِ التي تُشعركَ باعتياديّة مُجتمعِكَ في ظلّ عصر الحداثة.

لقد بذلَ مؤسسو دولةِ إسرائيلَ قصارى جُهدهم لتطبيع العلاقات بين إسرائيل وسائرِ دولِ العالم على الصعيد الخارجيّ ، فيما حرصوا كلّ الحرصِ على جعلِ إسرائيلُ دولةً استثنائيّة من خلال تجربتها الديمقراطيّة الشيوعيّةِ الاشتراكيّةِ الفريدةِ على الصعيد الداخليّ ، لكن يبدو لي الأمرُ على أرضِ الواقعِ وكأننا وصلنا إلى ديناميكيّة مُعاكسةٍ تماماً لما كنا نصبو إليه; فها نحنُ دولةٌ " غيرُ اعتياديّة " على الصعيد الخارجي ، ودولةٌ ليس لها أي صفةٍ استثنائيّة على الصعيد الداخليّ.

بالتالي ، لربّما يكونُ هذا أحدَ أكثرِ التحدّياتِ صعوبةً أمام المُجتمع الإسرائيلي: أن تصبحَ الأمة اليهوديّةُ أمةً اعتياديّة بين سائر الأمم ، بينما تُبقي على طموحاتِها بِبناء مُجتمعٍ يوائمُ التاريخَ اليهوديّ والتطلّعات اليهوديّة في الوقت ذاتِه. لذلكَ يا جاريَ العزيز ، أضف هذا السببَ إلى قائمةِ الأسبابِ التي ذكرتُها سابقاً والتي تجعلُني أخاطبكُ وأطمحُ إلى الوصولِ إليك ، وهوَ أنّ تحقيقَ هذه الطموحاتِ يعتمدُ بشكلٍ جزئيّ على طبيعةِ العلاقةِ بين شعبينا على جانبي هذا الصراع.

وبطبيعةِ الحال ، لا زالَ الجدلُ قائماً حتى يومِنا هذا بين الإسرائيليين العلمانيين غير المتديّنين والإسرائيليينَ المتديّنينَ فيما يخصّ قضيّة اعتياديّة دولةِ إسرائيل وصِفَتَها الاستثنائيّة ، فيما لا يبدو أنّ أياً من الجانبين سينتصرُ على الآخر; ذلك لأن كلا الجانبين يُتطرّقانِ لمعالجةِ مسائلَ هامّة وحسّاسةٍ بالنسبةِ لليهود. ففي المرحلة التي تلَت الهولوكوست ، أقرّ العديدُ من اليهودِ المتديّنينَ بأنّ العهدَ الذي قطعتهُ العلمانيّة الصهيونيّةَ بتطبيع المُجتمعِ اليهوديّ قد ساهمَ إلى حدٍ كبير في شفاءِ آلام الأمةِ اليهوديّة بعدما ألمّ بها من كوارث. في الوقتِ نفسِه ، ومعَ استفحالِ النزعةِ الماديّة لِلمُجتمع الإسرائيليّ ، يُقرّ العلمانيونَ الإسرائيليونَ غيرُ المتديّنين بحاجةِ المُجتمعِ الإسرائيليّ الماسّة إلى قدرٍ من الروحانيّة من أجل تصويبِ بوصلةِ هذا المجتمعِ تجاهَ غايتِهِ الصحيحةِ ومسارهِ الصحيح.

في الحقيقة يا جاريَ العزيز ، فإنني أعيشُ في نقطةِ التقاءٍ بين تقليديّة المجتمع وحداثتِه ، وهي نقطة ليسَ من السهلِ على المرءِ أن يعيشَ فيها على الإطلاق. إنني يهوديّ مُتديّنٌ إلا أنني لا أصوّتُ في الانتخاباتِ لأيّ حزبٍ أو تيارٍ دينيّ ، وذلكَ انطلاقاً من قناعتي التامّةِ بوجوب إبعادِ الدين عن السياسةِ قدرَ المُستطاع. في الوقتِ ذاته ، فإنني أدركُ جيّدا بأنني لا أعيشُ في الولاياتِ المُتحدةِ الأمريكيّةِ بَل أعيشُ في إسرائيل ، بالتالي يستحيلُ تحقيقُ فصلٍ كاملٍ بين الدينِ والدولة ، كوننا دولة ذات أغلبيّة سكانيّة يهوديّة تتواجدُ في هذه المنطقة بالتحديد.

وخلالَ إحدى المقابلاتِ التي أجريتُها مع احدى قياديّاتِ الحركةِ العلمانية غير الدينيّة التي تدعو للوقوفِ ضدّ قيامِ دولةٍ خاضعةٍ لحكمِ وسلطةِ المتدينين اليهود المسؤولين عن تطبيق القوانين والتعاليم اليهودية في دولة إسرائيل ، فقد كنتُ أفترضُ بأنها ستستشهدُ بالتجربةِ الأمريكيّة في فصلِ الدين عن الدولةِ كنموذجٍ يتوجّب على إسرائيلَ الاحتذاءُ به من أجل الوصولِ إلى دولةٍ علمانيّة ، إلا أنّها فاجأتني تماماً حين عارَضَت بشدةٍ احتذاءَنا بالتجربةِ الأمريكيّة ، حيث أصرّت على أنّ الدينَ اليهوديّ هوَ جزءٌ لا يتجزأ من الهويّة الوطنيّة للأمة اليهوديّة ; بالتالي يستحيلُ الفصلُ بينهُما.

من جانبٍ آخر ، فإنني أرى في العلمانيّة جانباً مهمّاً وضروريّاً في الهويّة الوطنيّة اليهوديّة ، وذلكَ انطلاقاً من مركزيّة مبدأ " الأمّة اليهوديّة " في العقيدة اليهودية ; الأمرُ الذي يفرضُ على المُتديّنين اليهودِ - وحتى على أكثر اليهودِ تشدّداً والتزاماً- قبولَ إخوتهم اليهود العلمانيين في المُجتمع الإسرائيليّ. بالتالي ، يتوجّب على دولةِ إسرائيلَ أن توائِمَ ما بينَ التوجّهاتِ الدينيّة والتوجّهاتِ العلمانيّة غير الدينيّة على حدٍ سواء ، آخذةً بعينِ الاعتبار أهميّة كلِ هويةٍ منهُما في الروح الوطنيّة العامّة للشعب اليهوديّ.

على الصعيدِ نفسِه ، فإنّهُ يتوجّبُ علينا تقديمَ تنازلاتٍ في سبيل إزالةِ هذا التوتّر بين التوجّهاتِ العلمانيّةِ غير الدينيّةِ والتوجّهاتِ الدينيّة في المُجتمعِ الإسرائيليّ. وعلى سبيلِ المثالِ ، فإنّ إدارةَ اليهودِ الأرثوذوكس للمحاكمِ الدينيّةِ اليهوديّةِ تحصرُ قضيّة الزواج في القانون العُثمانيّ القديم ، في الوقتِ الذي تمتلكُ فيه كلّ ديانةٍ محاكمَ شرعيّة خاصةً بها لتنظيم قضايا الأحوال الشخصيّة .(وبمناسبة ذِكرِ المَحاكِمِ الشرعيّة، فإن المِحاكمَ الشرعيّة الإسلاميّة يا جاريَ العزيزُ تتمتّع بنفسِ الدرجةِ القانونيّةِ التي تتمتّعُ بها المحاكمِ الشرعيّة اليهوديّة).

بالتالي ، فإن هذا يعني غياب الزواجِ المدنيّ من المحاكم الشرعيّة اليهوديّة في إسرائيل لكلا اليهودِ والمسلمين ، لكن العجيبَ في الموضوع هو أنّه إذا ما قام زوجان بالسفر إلى دولةٍ أخرى - مثل دولةِ قبرص التي تبعد مسافة عشرين دقيقة عن إسرائيل - وتزوّجا هُناك زواجاً مدنيّة في أحدِ محاكمِ تلكَ الدولة ، فإن الحكومةَ الإسرائيليّة تعترفُ بهذا الزواجِ المدنيّ فورعودةِ هذين الزوجين إلى إسرائيل. بالتالي يجبُ على هذا النظام السخيف أن يتغيّر عاجِلاً أم آجِلاً ولسببٍ بسيط : وهو الإقبالُ المُتزايدُ بينَ صفوفِ الشباب الإسرائيليّ على الزواج خارج البلادِ دون وساطةِ أي حاخامٍ يهوديّ.

من ناحيةٍ ثانية ، هناكَ تنازُلاتٌ يجبُ تقديمها من المُجتمع الإسرائيليّ العلماني غير المتديّن تجاه المتديّنينَ اليهود ، حيثُ تتمثّلُ أحدُ أهمِ هذه التنازلاتُ في الإلتزام العامِ في شتّى مناحي الحياة العامة بطقوس وتقاليد السّبتِ اليهودي. في الواقع ، فقد كان أحدُ أصعبِ القضايا التي واجهَت الإسرائيليينَ عقبَ قيام دولةِ إسرائيلَ يتمثّلُ في كيفَيةِ التزام الدولةِ اليهوديّة بتقاليدِ وشعائرِ السبت اليهوديّ في الأماكن والمرافقِ العامّة، وهَل يجبُ على إسرائيلَ حظرُ الأعمالِ التي لا تلتزمُ بقوانينَ السبت اليهوديّ بحسبِ القانون الدينيّ اليهوديّ ، أم يتوجبُ علينا التَعاملُ مع يومِ السبتِ على أنّهُ يومٌ عاديّ كبقيّةِ أيام الأسبوع؟

وكالعادة ، اختارَ المجتمعُ الإسرائيليّ تقديمَ تنازلاتٍ عشوائيّةٍ فوضويّةٍ غير منظّمة في سبيل حلّ هذه المعضلة ،حيثُ تقرّر ايقافُ المواصلاتِ العامةِ عن العملِ يومَ السبت اليهوديّ ، كذلكَ الحالُ بالنسبة للأعمال التجاريّة التي حُظرت ممارستُها إلى حدٍ ما يومَ السبت ، فيما سُمِح بإقامةِ الفعالياتِ والأنشطةِ الثقافية والرياضيّة، كما تمّ السماحُ للمقاهي والمطاعمِ أيضاً بممارسة عملِها كالمعتاد حتى في يومِ السبت اليهوديّ.

في الواقع ، فقد شهدَت السنواتُ الأخيرةُ تراجُعاً ملحوظاً فيما يَخصّ مسألةَ الإلتزامِ بما يسمّى بـ" الوضع القائم " أثناءَ فترةِ السبتِ اليهوديّ ، إذ صارَ يُسمحُ بممارسةِ الأعمالِ التجاريّةِ والبيعِ والشراءِ يومَ السبتِ شيئاً فشيئاً. في السياق نفسه، لقد كانت هناك دعوةٌ مقبولةٌ ومُتزّنةٌ إلى حدٍ ما ، إذ تمثّلت تلكَ الدعوة في مبادرةٍ مُشتركةٍ أطلقها أحدُ الحاخاماتِ اليهود البارزين وأحد القياداتِ العلمانيّة اليهوديّة غير المتديّنة، وهي مبادرةٌ تدعو للسماحِ لبعضِ وسائلِ المواصلات العامّة بممارسةِ عملِها إضافةً للسماحِ ببعضِ الأنشطة الترفيهيّة خلال يومِ السبت اليهوديّ ، مع التأكيد على حظر أي نشاطٍ تجاريّ أياً كانَ نوعهُ في ذلكَ اليوم ; ذلكَ لأن الانشطة التجاريّة تتناقضُ مع روح يوم السبت اليهوديّ وأحد أهمّ مقاصدهِ وهوَ عدم لمسِ النقودِ أو التعامل بها في هذا اليوم المُقدّس.

بنظري ، فإن مثل هذه المبادراتِ من شأنها أن تُفسحَ المجالَ لكل يهوديّ في هذه الدولةِ لقضاءِ يوم السبت اليهوديّ والاستمتاع به بالطريقةِ التي يراها مناسبةً له كيومٍ للرّاحة. كذلك فإن مثلَ هذه الدعواتِ تمثّلُ جانباً من التنازلاتِ التي يجبُ تقديمُها من أجل الوصولِ إلى علاقاتٍ دينيّة علمانيّة جيّدةٍ في دولةِ إسرائيل ، حيثُ تصبّ تلكَ العلاقاتُ بنهايةِ المطاف في بوتقةِ ايجادِ حيّزٍ في الرأي العام الإسرائيليّ لكلّ أطيافِ الأمةِ اليهوديّةِ بمُختلفِ توجّهاتِها في فهمِ التقاليدِ اليهوديّة.

لقد أسّسَ العلمانيونَ الصهاينةُ غيرُ المتديّنين دولةَ إسرائيل ، حيثُ تمرّدَ أولئكَ العلمانيّون على عائلاتهِم المتديّنةِ رافضين الانصياع لنمطِ الحياة الدينيّة التقليديّة ، بالتالي فقد شكّلت العلمانيّة أحدَ أهمّ الأسسِ التي قامَت عليها هذه الدولة ، كذلكَ فإنّ العلمانيّة تشكّل شبكةَ أمانٍ ضد التوجّهات الأصوليّة الدينيّة المتشدّدة ، إلا أنني - وكغالبيةِ أبناءِ المُجتمع الإسرائيليّ - أريدُ أن تطغى قيمُ الثقافةِ اليهوديّةِ على ملامح الحياةِ العامّة في دولةِ إسرائيل ، على الرغم من أن " مفهوم القيم اليهوديّة في الهويّة اليهوديّة " لا زالَ موضعَ جدلٍ كبيرٍ حتى يومِنا هذا.

وبكلّ الأحوال ، فقد أظهرَت العديدُ من استطلاعاتِ الرأي رغبةَ غالبيةِ المواطنين اليهود في التقليل من سنّ التشريعاتِ الدينيّة من جهة ، ورغبتهُم الشديدة في رؤية التقاليد اليهوديّة تحتلّ حيّزاً أكبر من مساحةِ حياتهِم اليوميّة من جهةٍ أخرى ، وهذا من وجهةِ نظري الشخصيّة هو الاتجاهُ الذي سيسيرُ المجتمعُ الإسرائيليّ نحوهُ في نهاية المطاف ; كونهُ يُجسّدُ توازناً معقولاً يوائمُ بين هويّتِنا الدينيّة وهويّتِنا العلمانيّة في آنٍ واحد ، فيما يتوجّبُ على كلّ جيلٍ من الأجيالِ أن يعيدَ صياغةَ تفاصيل هذا التوازنِ تبعاً لاحتياجاته. كذلكَ فإنّ مثلَ هذا الطرحَ المتّزنَ يجبُ أن يستمرّ بهذه الوتيرة ليضمنَ عدمَ وجودِ أيّ صلاحيّة أو سلطةٍ في يدِ أي فئةٍ من فئاتِ المُجتمع الإسرائيليّ لِتقويضِ هذا الجانبِ من جوانبِ الثقافةِ والسياسةِ الإسرائيليّة.

وعلى جانبٍ آخر من جوانب الصراعات الداخلية الإسرائيليّة ، ولأسبابٍ معقدةٍ بعض الشيء ، يَبرزُ نزاعٌ آخرُ لا زال مُحتدِماً بينَ الحكومةِ الإسرائيليّةِ والطوائفُ اليهوديّة الارثوذوكسيّة والإصلاحيّة حول امتلاكِ زمامَ الأمور فيما يخصّ أداءَ الصلواتِ اليهوديّة في الحائط الغربيّ. من جهتها ، فقد قدّمت الحكومة الإسرائيليّة بعضَ التنازلاتِ مانحةً سلطةً رسميّة لبعضِ الطوائف الليبراليّة على منطقةٍ محدّدةٍ من ساحة الحائط الغربيّ ، إلا أن هذا الاتفاقَ سرعان ما انهار بعد معارضةٍ شديدةٍ من الأحزابِ الارثوذوكسية اليهوديّة المتشددة التي ترفضُ الاعترافَ بالحركاتِ اليهوديّة غير الارثوذوكسيّة. بالتالي ، فقد خلق هذا الصراعُ القائم بين اليهودية الارثوذوكسية المتشدّدةِ وغالبية اليهودِ الأمريكيين الذين ينتمون للطوائفِ اللّيبراليةِ أو الإصلاحيةِ شرخاً عميقاً بين إسرائيل ويهودِ الخارِج.

حقيقةً ، فإنني أتأثّرُ بشدةٍ من حجم القهر الذي ينتابُ اليهودَ الذين ينتمون للطوائف الإصلاحيّة الليبراليّة ، كوني أتفهّم رسالتهُم الواضحة لإسرائيل ، حيثُ يُفترضَ بأن تكونَ إسرائيل هيَ الوطنُ الأمّ لجميع اليهودِ ، بالتالي يجبُ أن تراعي المرافقُ العامةُ حقيقة تنوّع الطوائف الدينيّة اليهوديّة على أرضِها ، الأمرُ الذي يعني أن وضع سلطاتٍ مُطلقةٍ في يد اليهود الأرثوذوكس المتدينينَ لوحدِهِم يُعدّ بمثابةِ " خيانة " دولةِ إسرائيلَ للإلتزام الصهيونيّ بمبدأ الأمةِ اليهوديّةِ الواحدة.

وإضافةً إلى جميع هذه الخلافات اليهوديّة الناجمةِ عن تنوّعِ الطوائفِ الدينيّةِ والتي يتوجّبُ على إسرائيل إدارتُها بحكمةٍ ، فإننا نجدُ تحدّياً أكبر وأعقَدَ بكثير: وهوَ احتواءُ دولةِ إسرائيلَ للمواطنينَ العربِ الذين باتوا يشكّلونَ ما نسبتهُ عشرون بالمئةِ من سكانِ المُجتمعِ الإسرائيليّ ، هؤلاءِ المواطنونَ الذين يُفضّلُ غالبيّتهُم التعريف عن نفسهِ على أنّه فلسطينيّ كجزءٍ من هويّته الوطنيّة القوميّة.

بنظري ، يجبُ على دولةِ إسرائيلَ أن تعتزّ وتثمّنَ هويتيّها الغير قابلتينِ للنقاش كدولةٍ يهويّة ودولةٍ ديمقراطيّة ، لكن في الوقتِ نفسه ، لا تستطيعُ دولةُ إسرائيلَ أن تستمرّ في كونِها حلقةً مُستمرةً من حلقاتِ التاريخ اليهوديّ وملاذاً آمناً يُدافعُ عن اليهودِ في شتّى أنحاء العالم دونَ أن تُلحقَ الضررِ بنفسِها لأنّهُ ضررٌ قد لا يُمكنُ إصلاحُهُ في بعض الأحيان. كذلك فإنّ الكثير من الإنجازاتِ الحيويّة في الحياةِ الإسرائيليّةِ مصدرُها الهَويةُ اليهوديّة لهذهِ الدولةِ ، انطلاقاً من الدافع التاريخيّ لتحقيقِ حُلمُ مضى من عمرهِ قرابة الألفي عامٍ على شكلِ مُعجزةٍ أبديّة. بمعنى آخر ، فإنكَ إذا ما أزلتَ اليهوديّة من جوهرِ إسرائيل فإنك سترى كيفَ ستختفي روحُ الحماسةِ من هذه الدولة.

حقيقةً ، فإن فشلَنا في الاعترافِ بالوجودِ العربيّ في الهوية الوطنيّة الإسرائيليةّ ومناحي الحياةِ العامّة في إسرائيلَ سيخلقُ مظهراً مُختلِفاً من مظاهر التهديد الوجوديّ لدولةِ إسرائيل. أذكرُ في أحدِ المواقف خلالَ حديثي مع أحدِ النوّابِ العربِ في الكنيست حينَ سألتهُ عن أجملِ اللحظاتِ التي شعرَ فيها بأنّهُ مواطنٌ إسرائيليّ ، فتوقّعتُ أن يذكرَ تلكَ اللحظةَ التي أدّى فيها اليمينَ الدستوريّ أمام الكنيست ، أو ربّما لحظةً انتصار أحد الفرق الرياضيّة الإسرائيليّة التي يُشجّعُها ، إلا أنني فوجئتُ حينَ قال لي بأنه لم يَشعُر في حياتهِ بأي لحظةٍ " إسرائيليّة " حقيقيّة ، وأنه لم يشعر خلالَ حياتهِ بأنّهُ مواطنٌ إسرائيليّ على الإطلاق.

فعلياً ، تتجسّدُ مُعضلةُ هويةِ المواطنينَ الإسرائيليينَ العرب في النشيد الوطنيّ الإسرائيليّ ، ذلكَ النشيدُ الذي يستحضرُ شوقَ اليهودِ وحنينهُم للعودة إلى أرضِ صهيون ، والذي تعبّرُ عنهُ بداية النشيدِ التي تبدأ بهذه العبارات : **" طالما في القلبِ تكمنُ، نفسٌ يهودية تتوقُ، وللأمام نحو الشرقِ، عينٌ تنظرُ إلى صهيون"** ، وهُنا أستحضرُ موقفاً آخر حينَ حدّثني أحدُ المواطنين الإسرائيليين العربِ قائلاً : " أنا شخصياً ليسَ لديّ أيّ مُشكلةٌ مع "القلبِ اليهوديّ" المذكور في النشيد الوطنيّ الإسرائيلي ، لكنّي بصراحةٍ لا أملكُ قلباً يهودياً ". كذلكَ أستحضرُ تصريحاً لقاضٍ عربيّ من قضاة المحكمةِ العليا الإسرائيليّة ، وهوَ قاضٍ ترأسَ هيئة القضاة التي أشرفَت على محاكمةٍ رئيسٍ إسرائيليّ سابقٍ بتهمة الاغتصاب ، حين قال بأنهُ لا يُغنّي النشيد الوطنيّ الإسرائيليّ رغمَ تمتعِهِ بمكانةٍ رفيعةٍ كقاضٍ لأعلى سلطةٍ قضائيّة في دولة إسرائيل.

لطالما سألتُ نفسي هذا السؤال يا جاريَ العزيز: كيفَ بإمكان العربِ واليهود أن يحتفلوا معاً في ذكرى يومِ استقلالِ دولةِ إسرائيل؟ كيفَ يحتفلانِ معاً في هذا اليوم الذي يُمثّل ذكرى خلاصِ اليهودِ من الشتات من جانبٍ ، بينما يُمثّلُ ذكرى كارثةٍ أليمةٍ حلّت بالفلسطينيينَ من جانبٍ آخر؟

ولنكونَ واقعيين أكثر ، فإن انفتاحَ الهويّة اليهوديّة واحتواءَها للهويّة العربيّةِ الإسرائيليّةِ هو أمرٌ مُقلقٌ لليهودِ والعربِ على حدٍ سواء. فمن وجهةِ نظر المواطنين العربِ في دولة إسرائيل ، فإن انفتاحهُم على المجتمع الإسرائيلي ونشاطهُم الفعّالَ في مناحي الحياة العامة لهذا المُجتمعِ يعني الانتماءَ والولاءَ للدولةِ التي تفرضُ احتلالاً على أشقائِهُم الفلسطينيينَ في الضفةِ الغربيةِ. ومن وجهةِ نظر اليهود ، فإن احتواءَ الهويّةِ اليهوديّةِ للهويّة العربيّة يعني منحَ الثقةِ للمواطنين الإسرائيليين العربِ الذين يدينون بالولاءِ للفلسطينيينَ خصوصاً ولِلعرب عموماً ، بعبارةٍ أخرى: هذا يعني منحَ الولاءَ لمصدر تهديدِ الأمةِ اليهوديّة وأعدائِها. لهذا ، وباعتقادِكَ يا جاريَ العزيز ، هل تجدُ هويّة أشدّ تناقضاً من هذه الهويةِ التي فرضَها علينا هذا الواقعُ والتي تُدعى هويّة " الإسرائيليّ الفلسطينيّ " ؟!

إنني أذكرُ تماماً ما حدثَ أثناء حرب لبنان سنة 2006 والتي خاضَتها إسرائيلُ مع حزبِ اللهِ اللبنانيّ حينَ كنتُ في أحدِ المطاعمِ العربيّةِ في شمال حيفا، فجأة دوّت صافراتُ الإنذارِ محذرة من هجومٍ صاروخيّ وشيكٍ فهرعَ كلّ من كان موجوداً في المطعم - عرباً ويهوداً - متوجّهينَ إلى الملجأ الموجودِ في المطبخ. أذكرُ وقتَها كيفَ وَقفنا مُلتصقين بجانبِ بعضِنا البعض فيما كان الصمتُ يخيّمُ على أرجاءِ المكان ، إلا أنّ أحد الموجودين قد كسرَ ذلكَ الصمتَ المُدقعَ قائِلاً : " تعايُش" ! ، فابتسمَ الجميعُ ابتسامةً خجولة لسخريةِ هذا الموقفِ الذي يُظهرُ حجم التناقضِ الإسرائيليّ الفلسطينيّ والذي يتجسّدُ بكلّ معانيهِ في تلكَ اللحظة: فها نحنُ العربُ واليهودُ نبحثُ معاً عن ملجأ لحماية أنفسِنا من صواريخٍ تُطلقُ على إسرائيلَ باسم القضيّة الفلسطينيّة !

وعلى أيّ حال ، وبعيداً عن حجم الغرابةِ والتناقُضاتِ والانفعالاتِ المتبادلة بين الجانبينَ أحياناً ، إلا أنني أؤمنُ بأنّ قدراً من الشعور بالانتماءِ المُشترك لهذه الدولة بين اليهودِ والعربِ هو أمرٌ ليسَ ضرورياً فحسب ، بل هو أمرٌ ممكن الحدوثِ أيضاً ، وهوَ أمرٌ تُثبتهُ استطلاعاتُ الرأي التي تُجرى باستمرار والتي تُظهرُ أنّ غالبيّة المواطنين العربِ في إسرائيل يؤمنون بأن حياتهُم في دولةِ إسرائيلَ هوَ أمرٌ جيّدٌ بحدّ ذاتهِ ، على الرغمِ من أنّ نصفَ السكانِ العربِ يؤمنونَ بأن الدولةَ تمارسُ تمييزاً عُنصرياً بحقّهِم كسكانَ عرب. لكن الأمرَ المفاجيء في استطلاعاتِ الرأي تلك كانَ ما عبّر عنهُ غالبيّة السكانِ العربِ قائلين بأنّهُم يشعرونَ بالفخر لأنّهُم مواطنون إسرائيليّونَ. أمّا عندما سُئِل المواطنون العربُ عن رغبتهِم في الحصول على مواطنةٍ في الدولة الفلسطينيّة المُستقبليّة، أجابَت الغالبيّة العظمى بعدمِ رغبتهِم إطلاقا في العيشِ تحت ظلّ الدولةِ الفلسطينيّة حتى لو كانت هذه المواطنة تتضمنُ بقاءَهُم في مكانِ إقامتهِم الحاليّ في إسرائيل.

من ناحيةٍ ثانية ، فإن الجانبَ السلبيّ من هذه الصورة يتمثّلُ في كونِ الأقليّة العربيّة - رغم تعداداها السكانيّ الكبير - مستثناةً ومهمّشةً من قبلِ المُجتمع الإسرائيليّ ; الأمرُ الذي يدفعُ بعضَ " الفلسطينيين الإسرائيليين " للتعريفِ عن أنفُسهِم على أنّهُم فلسطينيو 1948 ، أي الفلسطينيين الذين لم يغادروا أرضهُم خلال نكبة 1948 ، دونَ أيّ اعتبارٍ لكلمةِ إسرائيليّ في هويّتهِم الوطنيّة القوميّة على الإطلاق.

ولكن ، ولنكونَ دقيقين أكثر ، فإننا لا نستطيعُ أن نُخفيَ حقيقةَ تعريفِ غالبيّة المواطنين الفلسطينيين في دولةِ إسرائيلَ عن أنفُسهِم على أنّهُم – إلى حدٍ ما - جزءٌ لا يتجزّأ من دولةِ إسرائيلَ رغم عدمِ وجودِ حلٍ قريبٍ يلوحُ في الأفق لانهاءِ هذا الصراع، الأمرُ الذي يَعني وجودَ نقطةِ انطلاقٍ جيّدةٍ لبناءِ مُجتمعٍ مُشتركٍ وهويّةٍ مُشتركة تجمعُ العربَ واليهودَ في المجتمع الإسرائيليّ على الرغم من كونها نقطة انطلاقٍ هشّة إلى حدٍ ما. وبجميع الأحوال ، فإنني كمواطنٍ إسرائيليّ مُستعدٌ تماماً للعملِ من أجلِ تحقيق هذه الغاية والوصولَ إليها رغم جميع ما قد يواجهُنا من مصاعِبَ وعقبات.

لهذا ، تبقى إجابة هذا السؤال محيّرة جداً ، إذ كيفَ ينبغي علينا أن نمضي قدُماً في هذا الاتجاهِ يا جاريَ العزيز؟ حقيقة ، فقد أجابَ ناشطٌ فلسطينيّ بارزٌ يُدعى محمد دراوشة عن هذا السؤال عندما كان واحداً من زملائي في معهد هارتمان في السابق ، حيثُ وضّح دراوشة بأنه يتوجّبُ على العربِ أن يتعلّموا كيفَيّةَ التصرّفِ كاقليّة ، فيما يتوجّب على اليهود أن يتعلّموا كيفيّةَ التصرّفِ كأغلبيّة. من وجهة نظري ، فقد وضعَ محمد دراوشة اصبعهُ على الجرحِ من خلالِ تطرّقهِ في إجابتهِ عن هذا السؤالِ إلى العُمقِ النفسيّ والجوهريّ لهذا الصراع.

في الواقع ، فإن الأغلبيّة اليهوديّة في دولةِ إسرائيل تشكّل ظاهرةً غريبةٌ ومُلفتةٌ للنظر إلى حدٍ ما ; فنحنُ نشكّلُ أغلبيّة سكانيّة في دولتِنا ، إلا أننا نشكّلُ أقليّة سكانيّة بالنسبة للمنطقة التي نتواجدُ فيها ، كما أننا في الوقت نفسهِ نعي تماماً معنى وجودنا كأقليّة يهوديّة بين أغلبيةٍ من الدول التي تُبغضُ التواجدَ اليهوديّ بينَها ، وهيَ المنطقةُ نفسُها التي ينتمي لها المواطنونَ الإسرائيليون العرب ثقافياً ووجدانيّاً. بعبارةٍ أخرى، يشعرُ اليهودُ والعربُ في إسرائيل بأنّهُم أقليّة وأغلبيّة في الوقتِ نفسهِ.

لقد كان تحدّي محمود دراوشة للمجتمعِ الإسرائيليّ متمثلاً في تذكيرِ الإسرائيليينَ بأنهُم في نهاية المطاف يتحكّمونَ بدولةٍ قويّةٍ وناجحةٍ ; الأمرُ الذي يعني أنّه ينبغي علينا التصرّفُ بالمروءةِ التي تتصفُ بها الأغلبيّة السكانيّة الواثقةِ من نفسِها. في الوقت ذاتهِ ، كان تحدّي محمودَ دراوشة للعرب يتمثّلُ في تذكيرهم بضرورةِ التصرّفِ بحكمةٍ كأقليّة تعيشُ في ظلّ ظروفٍ حساسةٍ تتطلبُ منهُم الموازنة بينَ مسألتين : مسألةُ اخلاصِهم وولائِهُم للهويّة الفلسطينيّة من جهة ، وحاجتهِم الماسّة لإيجاد مكانٍ لهُم بين أغلبيّة سكانيّة يهوديّة من جهةٍ أخرى.

ومن منظورٍ آخر ، يخشى العديدُ من اليهودِ من حقيقةِ كونِ السكان العرب في إسرائيل طابوراً خامِساً يتغلغلُ في المُجتمع الإسرائيليّ ، فيما يُعزّزُ أعضاءُ الكنيست العرب من عُمقِ هذه المخاوفِ من خلالِ مواقفهِم المساندةِ لِجهاتٍ مُعاديةٍ لإسرائيل خلالَ الفترات التي تشهدُ حروباً ومواجهات بين إسرائيلَ وأعدائِها ، مثل حركة حماس وحزب الله اللبنانيّ. كذلكَ فقد وصفَ الأعضاءُ العرب في الكنيست الجنودَ الإسرائيليينَ على أنّهُم نازيونَ بينما أظهروا دعمهُم الكامل لأحداثٍ عنفٍ ارهابية في مناطقَ أخرى، في الوقت الذي رفضَ فيه أحدُ أولئكَ النوّاب وصفَ اختطاف ثلاثةِ شبّان إسرائيليين بالعملِ الإرهابي رغمَ أنّ اولئك الشبان الثلاثة وُجدوا مقتولين لاحِقاً. ونتيجة لهذا ، يؤمنُ المُجتمعُ الإسرائيلي بأنّ مثلَ هذه المواقف والتصريحات لا تعبّرُ عن تصرفاتٍ فرديّة بل هي تجسيدٌ واقعيّ لعقليّةٌ وأسلوبُ تفكير جماعيّ ينتهجهُ العربُ في إسرائيل.

من جانبٍ آخر ، ينبغي علينا كيهود يشكّلون الأغلبيّة السكانيّة في هذه الدولةِ أن نُشعرَ العربَ بثقتِنا بهِم كجزءٍ لا يتجزأ من المُجتمع الإسرائيليّ ، حيثُ تبدأ الخطوةُ الأولى في سبيلِ الوصولِ إلى تلكَ الثقة بإنهاء التمييز العنصريّ المُمارسِ ضدّ المواطنينَ الإسرائيليين العرب ، خاصةً فيما يتعلّقُ بالخدماتِ الحكوميّة المُقدّمةِ لهُم كالتعليمِ والبُنيّة التحتيّة وغيرِها. إن هذا التمييزَ يُعدّ أمراً مُعيباً على دولة إسرائيلَ ; كونهُ يخالفُ طموحاتِ مؤسّسي دولةِ إسرائيل الأوائل ، أولئكَ المؤسسين الذين بذلوا قصارى جُهدهِم لبناءِ مُجتمعٍ قائمٍ على أساسِ العدالةِ التي تعني لنا جزءاً من القيمِ التي أوصانا أنبياؤنا بإرسائِها في مُجتمعنا الإسرائيليّ.

ولنكونَ مُتزّنينَ في وصفِنا للأمور، فإنه لا يُمكننا إنكارُ وجودِ بعضِ التقدّم التدريجيّ فيما يتعلقُ بقضيّةِ الخدماتِ العامةِ المُقدّمةِ للتجمّعاتِ العربيّةِ في إسرائيل ، فحتى حكومةُ بنيامين نتنياهو اليمينيّة قد قامت بالاستثمار في بعضِ مناحي الحياةِ العامة في التجمّعات العربيّة إدراكاً منها بأن تهميشَ هذه المناطق والتجمعات السكانيّة أو أي جزءٍ آخر من هذا المُجتمعِ سيُلحقُ ضرراً كبيراً بالاقتصادِ الإسرائيليّ. من ناحيةٍ ثانية ، فإننا لا زلنا نعودُ للخلفِ في بعضِ جوانبِ الحياة الأخرى ، مثلَ منظومة القوانين التي يطرحُها مشرّعونَ ينتمونَ لليمينِ الإسرائيليّ من حينٍ لآخر والتي تهدفُ إلى التأكيد على يهوديّةِ دولةِ إسرائيلَ على حِسابِ الهويّة الديموغرافيّةَ لهذه الدولة. وعلى الرغم من أن عدداً محدوداً من هذه القوانينُ يتمّ إقرارهُ في الدولة من حينٍ لآخَر، إلا أن الديمقراطيّة الإسرائيليّة تبدو وكأنها في وضعِ الدفاعٍ عن النفسِ في ظلّ مثل هذه الممارسات.

أما من الجانب العربيّ في هذه الدولة ، فإنهُ ينبغي على المواطنين الإسرائيليينَ العربِ - كونهُم يمثّلون جزءاً من أغلبيّةٍ سكانيّةٍ إقليميّة - أن يُشعروا اليهودَ برغبتهِم في أن يكونوا جزءاً من دولةِ إسرائيل، وهوَ أمرٌ يُمكنُ أن يبدأ من انتخابهِم واختيارهِم لأعضاء يمثّلونهم في الكنيست الإسرائيليّ من ذوي الرؤى والأجنداتِ الوَحدويّةِ ، لا الرؤى القوميّة الفلسطينيّة أو الإسلاميّة. إنني أعتبرُ هذا أمراً في غايةِ الأهمية ، خاصةِ في ظلّ الفجوةِ العميقةِ التي تُظهرها استطلاعاتُ الرأي والتي تُوضّح فرقاً شاسِعاً بين تقديرِ المواطنين العربِ لدولة إسرائيل من جهة ، وحجم الجحودِ الذي يصلّ إلى حدّ الكراهية من قبلِ النواب العربِ في الكنيست الإسرائيليّ من جهةٍ أخرى ; الأمرُ الذي يجعلُ من توجّهاتِ المواطنين العرب في إسرائيل أمراً يصعبُ فهمُهُ إلى حدٍ ما ، كما أنّ هذه الفجوةَ في المواقف العربيّة للمواطنين العرب الإسرائيليينَ من شأنِها أن تُعزّز من المخاوفِ اليهوديّة من الوجودِ العربيّ في دولةِ إسرائيل.

وعلى أيّ حال ، فإن العلاقة بين المواطنين الإسرائيليينَ العرب واليهود ستظلّ متوترةً طالما استمر هذا الصراعُ القائمُ بينَنا ، لكننا لا نستطيع أن نُنكرَ محاولاتِ اليهود - على الأقل - لإقناع المواطنين العربِ بأن وجودَهُم في المجتمعِ الإسرائيليّ لا يشكلُ مُشكلةً يجبُ التعاملُ معها ، بَل يمثّلُ فرصةً يجبُ أن ينتهزَها اليهودُ من أجل إثباتِ مصداقيّةِ قيمِهِم الأخلاقيّة في التعامل مع غير اليهود. حقيقةً ، فإن احتواءَنا للهويةِ العربيّة واعتبارَها جزءاً من الهويّة اليهوديّة لهذه البلاد يُساعدنا في المضيّ قدُماً نحوَ الوصولِ إلى قبولٍ إقليميّ عربيّ بوجودِ إسرائيل كجزءٍ لا يتجزأ من هذه المنطقة.

بنهاية المطاف ، فإنني لا أعلمُ يا جاريَ العزيزُ إن كنّا سنتمكّنُ من إيجادِ حلولٍ لهذهِ التناقضاتِ الداخليّة الإسرائيليّة أم لا ، كما لا أعلمُ إن كانَت هُنالكَ حاجة تدعو إلى حلّ هذه التناقُضاتِ أصلاً ، لكنّ ما أعلمهُ تماماً هوَ أنَ ايجادَ الحلولِ لهذه التناقضاتِ يجبُ أن ينطلقَ من هذه القاعدةِ بالتحديد: إنّ أي محاولةٍ لتبنّي أي تعريفٍ لدولةِ إسرائيل مبنيّ على إقصاء الآخر فإنّهُ سيؤدي إلى تهميشِ شرائحَ رئيسيّةٍ من شرائحِ المجتمعِ الإسرائيليّ واستبعادِها من الروحِ الجماعيّةِ التي تتمتّعُ بها هذه البلاد ، كما سيؤدي أيضاً إلى الإخلال بحالةِ الإتزان التي توائمُ بين هويّاتِنا المُختلفةِ وتطلّعاتِنا وطموحاتِنا جميعاً.

وبجميع الأحوال ، فإن إسرائيلَ تستمدُ طاقتها وحيّويّتها من هذهِ التناقضاتِ; الأمرُ الذي يدفعني لرؤيةِ إسرائيلَ على أنّها مثالٌ حيّ على بعضِ التجاربِ التي قد نستفيدُ منها في حلّ بعضِ المُعضلاتِ والصراعاتِ العالميّة المُعقّدةِ ، مثلَ الصراعِ بينَ الدين والحداثةِ ، والصراعِ بين العرقيّة والديمقراطيّة ، والصراعِ بين منظومةِ الأمن ومنظومةِ الأخلاق ، وأخيراً: الصراع بين الشرق والغرب. إنني أرى إمكانيّة كبيرةً لأن تقومَ أمةٌ عريقةٌ كالأمةِ اليهوديّة بإيجادِ حلولٍ لهذهِ المُعضلات، كونَها مثّلَت جزءاً من التحدّياتِ والصراعاتِ التي عايشَها اليهودُ خلالَ ترحالِهم في بلدانِ الشتاتِ واستيعابهِم لتعدديّةِ اليهود في هذا العالم ، خاصةً وأنّها التحدّياتُ والصراعاتُ نفسُها التي جلبها اليهودُ معهُم عند عودتهِم إلى أرضِ إسرائيل.

إن التوازنَ القائمَ بين تلكَ التناقضاتِ الإسرائيليّة الداخليّةِ هوَ توازنٌ متغيّرٌ ومُتقلّبٌ باستمرار نتيجةً للمرونةِ التي تتمتّعُ بها بعضُ المُجتمعاتِ داخلَ إسرائيل ، الأمرُ الذي يجعلُها عُرضةً لتغييرِ مبادئِها الأساسيّةِ التي قامَت عليها خلال وقتٍ قصير، وهوَ الأمرُ نفسهُ الذي يحدثُ مع دولةِ إسرائيلَ نفسِها.

إنني أذكرُ تماماً كيفَ عاصَرْتُ ثلاثةَ وجوهٍ مُختلفةٍ لدولةِ إسرائيل خلال الأربعةِ عقود التي أمضيتُها هُنا ، حيثُ كانَ أوّل وجهٍ رأيتهُ هوَ وجهُ " إسرائيل اليائسة " في ثمانينيّاتِ القرن المُنصرم ، والذي شهد تضخّما مهولاً في الاقتصاد الإسرائيليّ وصل إلى ثلاثمئة بالمئة ، إضافة إلى حالةِ التوتّر وعدم الاستقرار خلال حربِ لبنان وحالةِ العُزلةِ التي تعرَضَت لها إسرائيل من قِبلِ المُجتمع الدوليّ. أمّا الوجهُ الثاني فكانَ وجهَ " إسرائيلَ المُبتهِج " عقِب بدايةِ مباحثاتِ أوسلو بداية التسعينيّات وبداية تطوّر الصناعاتِ التكنولوجيّة المتقدّمةِ في إسرائيل وتزايد الهجراتِ اليهوديّة من الاتحادِ السوفييتيّ عقب انهياره ، وصولاً إلى القبولِ الدوليّ المتزايدِ بدولةِ إسرائيلَ. في حين كان الوجهُ الثالثُ لإسرائيل هوَ الوجهُ الذي تعتريه ملامحُ الفشلِ نتيجةً لانهيار مباحثاتِ السلامِ بداية سنة 2000 ، هذا الفشلُ الذي أدّىً إلى خوضِ إسرائيلَ لعدة حروبٍ مُتتاليةٍ في الوقت الذي تعرّضت فيه إسرائيلُ لاستهدافَ متواصلٍ لمدنييها بالهجماتِ الانتحاريّة والصواريخِ ، الأمرُ الذي جعل الواقعَ الإسرائيليّ يفرضُ عليكَ أن تقاتلَ من أجل بقائكَ وتفرضَ على نفسك أقصى درجاتِ اليقظة لدرجةٍ لا تتمكّن فيها من التفكير بأي أمرٍ مستقبليّ.

وعلى أيّ حال، لا زالتُ ملامحُ الوجهِ الأخير طاغيةً على واقعِ دولةُ إسرائيلَ خلال العقدين الأخيرين. من ناحية ثانية ، فإن التاريخَ اليهوديّ - إذا ما أردنا استقراءَهُ - يخبُرنا بأن ملامحَ هذا الوجه لن تدومَ طويلاً نتيجةً للمدّ والجزرالذي شهدهُ التاريخُ اليهوديّ منذ الأزل ، وأنّ المرحلةَ القادمةَ ستمثّلُ وجهاً إيجابياً في ملامحِه بكل تأكيد.

أخيراً وليسَ آخراً، فإنني آملُ يا جاريَ العزيز أن تُجدّدَ مُجتمعاتُنا خلالَ تلكَ المرحلةِ القادمة طبيعة العلاقةِ والتعاملِ بينها لتكونَ مبنيّة على أرضيّةٍ راسخةٍ من الاحترام المُتبادلِ بين الجانبين.

الرّسالةُ التاسِعة : النّاجونَ والضحايا

جاريَ العزيز ،

تُصادفُ اليوم ذكرى المحرقة اليهوديّة " الهولوكوست "، وقد اعتدنا في هذا اليوم على سماعِ دَويّ صفاراتِ الإنذار في تمام الساعةِ العاشرةِ صباحاً. يَطغى الجمودُ على جميعُ مظاهر الحياةِ عندَ سماعِ هذا الصوتِ ; كونَنا نقفُ لمدةِ دقيقتين صمتاً وحِداداً على أرواح الضحايا الذين قَضَوا في المحرقة ، فيما يوقِفُ سائقو المركباتِ مَركباتِهم على جوانبِ الطرُقاتِ حتى تتوقّفَ صفاراتُ الإنذار. كذلكَ الحالُ في المدارسِ والمصانعِ والمكاتبِ وقواعدِ الجيش ، جميعُ هذه الأماكن تُعلّقُ أنشطتها ، فيما تتوحّدُ جميعُ الأمّةِ اليهوديّة حول هذا الجرحِ اليهوديّ العميق.

وفي خِضمّ هذه الأجواء تذكّرتُكَ يا جاريَ العزيز، فأنتَ بلا شكّ تسمعُ أصواتَ صفّاراتِ الإنذار من تلّتِك ، مما جعلني أتساءلُ بيني وبينَ نفسي: بماذا كنتَ تُفكّرُ في هذهِ اللحظات؟ هل انتابَكَ شعورٌ بالتعاطفِ والتضامنِ الإنسانيّ معنا في مثل هذه الذكرى الأليمة؟ أم انتابكَ شعورٌ بالشماتةِ والسخريةِ فقلتَ لنفسِك ها هوَ المُحتلّ يعيدُ جروحَ الماضي إلى الواقع متقمّصاً دورَ الضحيّة؟

لربّما لاحظتَ بأنني قد تجنّبتُ حتى هذه اللحظة الخوضَ في حكاية الهولوكوست خلال الرسائلِ السابقةِ التي كتبتُها إليك ، حيثُ كان تأجيلي للكتابةِ عن هذا الموضوع أمراً متعمّداً ذلكَ لأنّ الحديثَ عن هذا الموضوعِ سيُثقِلُ كاهلي وكاهلِك على حدٍ سواء. من جهةٍ ثانيةٍ ، فإن بابَ التلاعُبِ مفتوحٍ على مصراعيه عندما يتمّ طرحُ قضيّة الهولوكوست والحديثُ عنها. بمعنى آخر، إذا أردتُ أن أتلاعبَ بقضيّة الهولوكوست وأستغلّها لتجاهُلِ معاناتِك والتقليلِ من شأنِها يا جاريَ العزيز، فإنّه من السهلِ عليّ أن أطرحَ هذا السؤال: كيفَ تقارنُ بين المحرقةِ اليهوديّةِ والاحتلال؟ أمّا إذا أردتَ أنتَ أن تتلاعبَ بقضيّة الهولوكوست وتشكّكَ في مصداقيّةِ حدوثِها، فإنّهُ من السهل عليكَ أن تطرحَ هذا السؤال: كيفَ يقومُ اليهودُ دون غيرِهم من الشعوبِ بإساءةِ معاملةِ الشعبِ الفلسطينيّ بعد أن تعرّضوا لتجربةِ قاسية مريرةٍ مثلَ تجربةِ الهولوكوست؟.

ها أنا أخيراً يا جاريَ العزيزُ أنتهزُ الفرصةَ لسردِ حكايةَ عودةِ الأمّة اليهوديّةِ إلى أرض إسرائيلَ بطريقةٍ موضوعيّةٍ مُجرّدةٍ وخاليةٍ تماماً من المُغالطاتِ التي لطالما سمعتُها خلال العقودِ الماضيّة من الفلسطينيين بشكلٍ خاصٍ ومن المُسلمين بشكلٍ عام ، تلكَ المُغالطاتُ القائمةُ على أن السببَ الوحيدَ لوجودِ دولةِ إسرائيلَ هوَ شعورُ الغربِ بعُقدةِ الذنبِ نتيجةً لما اقترفهُ بحقّ اليهودِ في أوروبا .

في سنة 2009 ، توجّه الرئيسُ الأمريكيّ السابقُ باراك أوباما إلى القاهرةِ مُخاطِباً الأمة الإسلاميّة من هُناك ، فيما شعرَ اليهودُ بالسخطِ الشديد بعد أن أنهى أوباما خِطابه ، ذلكَ لأنّ أوباما قد عبّرَ خلالَ خطابه بأنّهُ لا يوجدُ سببٌ يُبرّرُ وجودَ دولة إسرائيل سوى ما حدثَ في الهولوكوست. حقيقةً ، فقد كانَت نيّة أوباما واضحة جدّاً، وهيَ تغييرُ حالةِ الأنكار التي تسودُ العالمَ الإسلاميّ للمحرقةِ اليهوديّةِ ، لكن اليهودَ لم يُفسّروا خطابَ أوباما من هذا المُنطلق، ذلكَ لأنّ خطابَ أوباما قد تجاهلَ حقائقَ مهمّة بالنسبةِ لليهود: ماذا عن تاريخ الأمةِ اليهوديّةِ على هذه الأرض والذي يمتدّ لأربعةِ آلافِ عام؟ وماذا عن الروايةِ التاريخيّة لليهود؟ لاحِقاً ، حاولَ الرئيسُ باراك أوباما تصحيحَ تلكَ الهفوة من خلالِ زيارتهِ لِمتحف ذكرى الهولوكوست في القدس " ياد فاشيم " ، حيثُ إشارَ أثناءَ زيارتهِ إلى أنّ دولةَ إسرائيلَ لا تستمدّ شرعيّتَها من معاناةِ اليهودِ بل من العقيدةِ اليهوديّة وارتباطها المُتجذّرِ بهذه الأرض.

وبينما أنا أتصفّحُ موقع التواصل الاجتماعيّ فيسبوك ، لفتَت انتباهي مقولةٌ لشخصٍ مجهولٍ قالَ فيها " أن قيامَ دولةَ إسرائيلَ لم يكُن نتيجة للمحرقةِ اليهوديّة، بل إنّ حدوثَ المحرقةِ اليهوديّة كانَ نتيجةً لعدم وجودِ دولةِ إسرائيلَ على أرضِ الواقعِ آنذاك ".

بطبيعةِ الحالِ يا جاريَ العزيز، فإن التطرّقَ لموضوعِ الهولوكوست أثناء حديثنا مع بعضِنا البعض هو أمرٌ يستحيلُ تجنّبهُ، بنفس درجةِ استحالةِ تجنّبنا سماعِ دويّ صَفاراتِ الإنذار في يومِ ذكرى الهولوكوست. كذلك أريد منكَ أن تُدركَ أيها الجارُ العزيزُ حقيقةً أخرى مفادُها بأنّ وفاة مُعظمَ الناجينَ من المحرقة اليهوديّة لا تعني انتهاءَ المحرقةِ وتبعاتِها، فالهولوكوست وآثارُها لا زالت حيّةً حتى يومِنا هذا، كما أنّها لا زالتُ تؤثّر على الصراعِ القائمِ بينَنا بطرقٍ مباشرةٍ وغير مباشرة. لهذا، دَعني أوضّح لكَ ماذا يحدثُ في تلّتي عندما يسمعُ اليهودُ دويّ صفاراتِ الإنذار في هذا اليوم، وكيفَ تؤثرُ الهولوكوست في طريقةِ تفكيري تجاهَك وتجاه هذا الصراع بشكلٍ عام.

توجَهتُ ليلة أمس لحضورِ مراسم الذكرى السنويّة الرسميّة للمحرقة والتي تقامُ كل سنةٍ في متحفِ " ياد فاشيم " في القدس ، حيثُ تحدّثَ الرئيسُ الإسرائيليّ الحاليّ رؤوفين ريفلين عن ضرورةِ تخلّصِ اليهودِ من العُقدةِ التي سبّبتها لهُم الهولوكوست قائلاً : " لم تولد الأمّةُ اليهوديّةُ في أوشوتز ، ولم يكُن الخوفُ هوَ الحافزُ الذي دفع الأمة اليهوديّة للبقاءِ والاستمرار خلالَ شتاتٍ طالَ مدةِ ألفي سنة ، بل كانت أصولُنا الروحيّة وابداعُنا الجماعيّ هما الحافزانِ الحقيقيّانِ وراءَ ذلك ". ثم أردفَ رؤوفين قائلاً : " إنّ المحرقةُ اليهودية هيَ بمثابةِ وشمٍ محفورٍ باللهبِ على أجسادِنا ، لكن في الوقت نفسه لا يجبُ أن تكونَ المحرقةُ اليهوديّة بمثابة العدسةِ التي نستقريءُ من خلالِها حاضرَنا ومُستقبلَنا ". ثمّ تابعَ ريفلين خطابهُ مُحذّراً من مغبّةِ استغلالِ المحرقةِ اليهوديّة في سبيلِ تحقيق مكاسبَ سياسيّةٍ بأي شكلٍ من الأشكال ، حتى لو كان هذا ضدّ أعداءِ اليهودِ أنفسهِم ، ثمّ بمنتهى الشجاعة ، ندّدَ ريفلين في نهايةِ خِطابهِ بما قامَ به أحدُ أساتِذته في السياسة ، رئيسُ الوزراءِ الأسبق مناحيم بيغين ، حينَ أعلنَ عن اجتياح لبنان سنة 1982 بذريعةِ أنّها حربٌ لمنع حدوثِ محرقةٍ يهوديّة أخرى.

وبعدَ أن أنهى ريفلين خطابَهُ ، أضاءَ ستةُ ناجينَ من الهولوكوست ستةَ مشاعلَ ، بحيثُ يرمزُ كل مشعلٍ إلى مليون ضحيةٍ يهوديّة مِمن قَضوا أثناء الهولوكوست. كانَ أحدُ هؤلاء الناجينَ الستة مُحاربٌ يهوديّ قديمٌ من أصولٍ اوكرانية كانَ ينتمي لحركةٍ أوروبيّةٍ قاومَت النازيّة بشكلٍ سرّيٍ تُدعى" البارتيزان " ، فيما بدَت النياشينُ العسكريّة معلّقة على صدره أثناءَ مراسم الذكرى. كذلكَ كانت إحدى الناجياتُ امرأةً يهوديّة من أصولٍ جزائريّةٍ كانَت قد فرّت إلى باريس للنجاة بنفسِها من المحرقة.

تحدّثَ هؤلاء الناجون خلالَ مراسمِ الذكرى عن تجربتهِم المريرة أثناء الحربِ وشرحوا معاناتهم في خضمّ أحداثِها ، إلا أنّهُم عبّروا في الوقتِ ذاتهِ عن فخرهِم الشديدِ بحياتهِم التي بدأوها مُجدّداً بعد انتهاءِ الحرب، كما عبّروا عن اعتزازهِم بأبنائهِم وأحفادِهِم الذينَ نشأوا وترَعرَعوا في دولةِ إسرائيل، كما عبّروا عن امتنانهِم الشديدِ لوجودِ دولةِ إسرائيل في واقع ما بعد المحرقة ; الأمرُ الذي ساعدَهُم إلى حدٍ ما في شفاء ذلك الألمِ العميقِ الذي سبّبتهُ لهُم الهولوكوست. وبتحوّل هؤلاءِ الأشخاصِ من " ضحايا " إلى " ناجينَ " من المحرقة ، فقد انتزعَ هؤلاءُ قدرَهُم في الحياة من جديدٍ من بين ثنايا مصيرٍ مأساويّ حتميّ.

بنهايةِ المطاف ، وبالنسبةِ لي - كابنٍ لأحدِ الناجينَ من المحرقةِ - فإنّ أكثرَ القضايا المتعلّقةِ بالهولوكوست أهميةً تتجسّدُ في انتصارِنا بعدَ المحرقة ، لا في كونِنا ضحايا لها. إننا أمةً تمسّكَت بعقيدتِها بكلّ صبر وإيمانٍ رغم ما واجهناهُ من مصاعبَ ، كما واصلنا الوجودَ والبقاءِ رغم المحاولاتِ الحثيثةِ التي سعَت من خلالها العديدُ من الامبراطوريّاتِ لِلقضاءِ علينا في مصر وبابلَ وروما ، لكن بتتّبعِ التاريخ الطويلِ لمحاولاتِ اليهودِ من أجل البقاء، فإنه يستحيلُ وجودُ أدنى مقارنةٍ بين جميعِ مساعي اليهود للبقاء خلال التاريخ اليهوديّ بأكملِهِ من جهة، وبين صراعِ اليهودِ من أجل البقاءِ خلال القرن العشرين من جهةٍ ثانية. لقد بدا التاريخُ اليهوديّ الحافلُ بالمصاعبِ وكأنهُ مقدّمةٌ لما سيحلّ باليهودِ من كوارث في القرن العشرين ، حيثُ بدت تجربة القرن العشرين كمفترق طرقٍ يفرضُ على اليهود أن يحسموا أمرَهُم بِالبقاءِ أو الفناءِ.

وبالعودة إلى قصّةِ نجاةِ والدي ، فقد نجا من المحرقةِ بينما كانَ مُختبئاً في جحرٍ صغيرٍ في أحدِ الغابات ، حيثُ تمكّن من الهربِ برفقةِ اثنين من أصدقائهِ في الوقتِ الذي كان يتمّ فيهِ تجميعُ اليهودِ في الغيتوهات قبل أن يتمّ ترحيلهُم إلى مُعسكرِ أوشوتز، فيما كانَ أحدُ حرّاسِ الغابةِ يجلبُ الطعامَ لهُم من وقتٍ لآخر، حيثُ كانَ ذلكَ الحارسُ يعملُ في كرمٍ للعنبِ امتلكهُ أبي حينها.

وعام 1945 عندما وَضَعَت الحربُ أوزارَها، عادَ أبي إلى بيتِهِ فوجدَ بيته وأرضَه في حالةٍ يُرثى لها ، حيثُ قضى الأسابيعَ الأولى لعودتهِ إلى بيتِهِ برفقةِ مجموعةٍ من اليهودِ الذين نجوا من معسكراتِ الموتِ النازيّة ، فيما أمضَوا تلكَ الفترةَ مُستغرقينَ في شُربِ الكحولِ بنَهَمٍ شديد . وفجأة - وبحسبِ ما أخبرني - استيقظَ والدي من حالةِ الثمالةِ التي كان مُستغرقا فيها حينَ رأى والديهِ - والذين قُتِلا في أوشوتز- في المنام ، حيثُ كانا يحدّقانِ به بنظرةً دفعتهُ لتأنيب نفسهِ والاستيقاظِ من هذه الحالةِ المُزرية للنهوضِ والمضيّ في الحياة من جديد.

لهذا يا جاريَ العزيز، إنني أعتبرُ نفسيَ ابناً لأمةٍ نهضَت من بين الركامِ ، لا أمة تم سحقُها والقضاءُ عليها آنذاك; الأمرُ الذي يَجلعني أتذكّرُ أنّ ابني سيحملُ اسم جدّهِ الذي نجا من المحرقة أكثر من تذكّري لاسميَ الذي يحملُ اسم جدّي الذي قُتلَ حرقاً في أفران الغاز النازيّة. في الوقتِ ذاتِه ، فإن هذا لا يعني خروجيَ من حالةِ الذهولِ الدائمِ التي تنتابُني كلّما تذكّرتُ الهولوكوست ، ذهولٌ جرّاءَ ما جرى من صِناعةِ مُتقنةٍ للموتِ العشوائيّ وإنشاءِ مصانع للقتلِ وانتاجِ الجُثثِ في ظلّ غيابِ الوجدانِ والضمير الإنسانيّ من عصرِ " الحداثةِ " ذاك. كذلك فإنني لا أستطيعُ إخفاءَ ذهولي مما جرى من تخطيطٍ مُتقنٍ ودقيق بين الحكومةِ النازيّة والطبقة البيروقراطيّة من أجلِ إنجاحِ هذهِ الصناعةِ . حقيقة ، فقد كانت معضلاتُ النازيينَ آنذاك تتمثّلُ في إيجادِ أكثر أنواع الغاز نجاعةً في القتلِ والبحثِ عن أسرعِ طريقةٍ للقضاء على اليهودِ، هذا عدا عن الحيلِ والأكاذيبِ التي ابتدَعَها النازيّونَ من أجلِ تسكين وتهدئةِ ضحاياهُم قُبيلَ وصولِهم إلى المحطةِ النهائيّة من محطّاتِ الموتِ.

حقيقةً ، لم تكُن صناعةِ الموتِ تلك مُنبثقةً عن أسبابٍ تتعلقُ بالكراهيةِ أوالثأر والانتقام ، ولم تكُن مذبحةً عشوائيّة حتّى ، بل إنّ ما حدث في الهولوكوست جسّد أقصى درجاتِ الجريمةَ المُدبّرة التي تمّ اقترافُها بكلّ دمٍ باردٍ بطرُقٍ يتجسّدُ من خلالِها انعدامُ المشاعر الإنسانيّة بكلّ ما تحملهُ الكلمة من معنى ، تلكَ الجريمة التي استمرّت بكلّ سلاسةٍ لمدةِ ستة سنواتٍ متواصلة.

كذلكَ يا جاريَ العزيزُ فإنني أسرحُ بيني وبينَ نفسي من حينٍ لآخرَ مُتسائِلاً: هل حدثَت المحرقة اليهوديّة فعلاً ؟ وهَل هُناكَ امكانيّة لحدوثِ شيءٍ من هذا القبيل؟ أسألُ وأسألُ ، وفي خضمّ أسألتي أتفاجأ من استمرار ذهوليَ مما حدثَ في الهولوكوست كوني عشتُ في صراعٍ داخليّ دائمٍ حولَ المحرقةِ طيلةَ حياتي. حقيقةً ، إنني أدركُ خلال تلكَ اللحظاتِ بأنّ جزءاً منّي لا زالَ مُضطرباً بعضَ الشيء ، لا زالَ مَصعوقاً مما تعلّمته خلالَ طفولتي عنِ استغراقِ البشريةِ إلى حدّ الجنون في كراهية اليهود ، وعن قدرةِ البشريّة على إبادةِ نفسِها بنفسِها، تلكَ الأمورُ التي أعتبرُها ملوّثة لأيّ روحٍ بشريّة.

في الوقتِ نفسه ، يتملكّني ذهولٌ عميقٌ من قدرة الناجين من المحرقة كأفرادٍ تمكّنوا من البقاءِ على قيد الحياة وكأمةٍ نجحَت في الصعودِ من الهاويةِ لتَبنيَ ذاتَها من جديد. في الواقع ، لم يكُن نهوضُ اليهودِ أمراً بنّاءاً فحسب ، بل ارتقاءاً وسموّاً إذا ما أردنا أن نكونَ دقيقين في وصفِه، هذا السموّ الذي تجسّد في تحقيق أكبر الأحلام اليهوديّة والمتمثّل في تأسيس إسرائيل مباشرةً بعد انتهاء أفظع الكوابيس اليهوديّة وأشدّها ترويعاً. باعتقادي ، فإن اليهودَ سيحتفلون مُستقبلاً بعودتِنا إلى أرضِنا بنفس الطريقة التي نحتفلُ بها نحنُ بمغادرتنا أرض مصر بمزيدٍ من الاحترام والتقدير لما فعلناه.

بالتالي وكما ترى يا جاريَ العزيز، فإن الذكرى السنويّة للمحرقة اليهوديّة لا تعني تشبّثنا بدورِ الضحيّة مثلما يعتقدُ الجميعُ ، بل على العكس تماماً، لأنّ استحضارَنا لذكرى المحرقة اليهوديّةِ هو بمثابة تأكيد مُتجدّدٍ على الواجبِ الإسرائيليّ بأن لا نُصبحَ ضحايا مرةً أخرى، هذا الواجبُ الذي يُعبّرُ عن جوهرِ الروحِ الجماعيّة اليهوديّة الإسرائيليّة بشكلٍ عام.

وبالعودةِ إلى المؤسّسينَ الأوائل للحركةِ الصهيونيّةِ وبعيداً عن أيّ منظورٍ عاطفيّ لما حدثَ في الماضي ، فإنهُم لم يُلقوا باللّوم على الجهاتِ المعاديةِ للساميّةِ جرّاء ما تعرّض له اليهود من اضطهادٍ ، بل ألقوا باللومِ على اليهودِ أنفُسهِم ! فيما استغلّ مؤسّسو الحركةِ الصهيونيّة الظروفَ التي عاشَها اليهود آنذاكَ في سبيل إحداث نقلةٍ نوعيّة في حياتهم من خلال التركيز على عيوبِ وأخطاءِ الشخصيّةِ اليهوديّةِ التي ظهرَت عبر القرون الطويلة التي أمضاها اليهود في الشتات، بالتالي فقد عَملوا على تصحيحِ تلكَ العيوب والأخطاء في سبيل إنجاحِ تلك النقلةِ النوعيّة.

فعلى سبيل المثال ، كانَ يتساءَلُ قادةُ الحركةِ الصهيونيّة: هل عَمِلَ اليهودُ في الشتاتِ كسماسرةٍ للأراضي والعقاراتِ في بلدان الشتات؟ إذن فلنَجعَلهُم يفلحونَ الأرضَ بعد عودتهِم إلى إسرائيل ، وهَل تعرّضَ اليهودُ للتهديدِ بالقتل أو الضربِ او غيرها من مظاهر التهديد الجسديّ في الشتات؟ إذن فلنعلّمهُم كيف يكونُ الدفاعُ عن النفس في إسرائيل ، وهكذا. في الواقع ، لقد اختصرَ ديفيد بنغوريون هذا النهجَ في إحدى مقولاته حينَ قال : " ليس مهمّا ما يقولهُ غيرُ اليهود ، بل المهمّ هو ما يفعلهُ اليهود"، معبراً عن عدم اكتراثِنا بالطريقة التي يصوّرنا بها الآخرون ، فأفعالُنا هي التي تقرّرُ من نحنُ، لا أقوالهُم.

إنني أستذكرُ أكثَر الشعراء الصهاينةِ شعبيّة ، الشاعرُ حاييم ناحمان بياليك، والذي برزَ كشاعرٍ يهوديّ معروفٍ رغم صِغَرِ سنّه بعد أن ألّفَ قصيدةً سنة 1903 أطلقَ عليها " في مدينةِ الذبحِ "، تلكَ القصيدةُ التي عبّر فيها عن عويلهِ وغضبهِ الشديدَين عقبَ مجزرةٍ دمويةٍ ارتكِبَتْ بحقّ اليهود في روسيا القيصريّة. والمُلفتُ للانتباه في هذه القصيدة هو أن بياليك لم يصبّ جامَ غضبهِ على المجرمين الذين ارتكبوا هذه المجزرة ، بل على ضحايا هذه المجزرة الذين ألقى باللوم عليهِم نتيجةٍ لسلبيّتهِم وخضوعهِم للأمرِ الواقعِ آنذاك. كذلكَ فإنّه من الصعبِ جداً أن تتخيلَ وجودَ شاعرٍ وطنيّ يحترفُ جلدّ الذّاتِ ويكتبُ كلماتٍ لاذعةٍ بحقّ أبناءِ شعبه مثل باليك ، حيثُ كتب ساخِراً في إحدى قصائِدِه : **" اذهبوا إلى المقبرةِ يا متسوّلين ، احفِروا وابحَثوا عن عظامِكم وعظامِ آبائِكُم وإخوتِكُم المُقدّسين ، واملؤوها في الأكياسِ ، احمِلوها على أكتافِكُم وامضوا قُدُماً ، اعرضُوها في كلّ معرضٍ وفي كلّ سوق ، وتوسّلوا العطفَ منَ الأممِ ، وَصَلّوا للرحمة كّي تأتيكُم من غير اليهودِ ..."**

في الواقعِ يا جاريَ العزيز، فإن الكُرهَ الإسرائيليّ لعقليّةِ الضحيّةِ هو أحدُ أهمّ الأسبابِ التي تقفُ خلفَ وجودِ إسرائيل اليوم ، وهو أيضاً أحدُ أهمِ أسبابِ نجاحِها المُتواصِل. كذلكَ فإن إسرائيلَ تواصلُ حياتَها اليوميّة بشكلٍ مُعتادٍ رغم استِغراقِها الدائمِ في مواجهةِ التهديداتِ المُستمرّةِ والمُحدقةِ بها. وهُنا دعني أستحضر ما حدثَ صبيحةِ أحدَ الأيام حينَ تعرّضَ أحدُ اليهودِ للطعن داخل محطة القطار الخفيف التي تقعُ بالقربِ من منزلي، حيثُ توجّهتُ صوبَ تلك المحطة لأركبَ القطار بعد قرابة ساعة من وقوعِ ذلكَ الحادث، فيما كنتُ أتوقّعُ أن أرى الشرطةَ وسيارات الإسعافَ وحشداً من الأشخاصِ المتجمهرينَ في المكان ، إلا أنني فوجئتُ عندما وصلتُ إلى مكانِ الحادثِ دونَ أن أجد أياً من هذا على الإطلاق، فقد تم تنظيفُ الدم من مكانِ الحادثِ فيما واصلَ الناسُ انتظارَهُم للقطار الخفيفِ في تلكَ المحطّة وكأنّ شيئاً لَم يَكُن.

إنني أعيشُ يا جاريَ العزيز بين أبطالٍ لا يَعتبرونَ أنفسهُم أبطالاً ، لهذا دعني أسردُ لكَ بعض قصصِ إخوتي اليهود وبطولاتهِم في سبيل الوصولِ إلى هذه الأرض ، ودعني أبدأ بجارتي عليزا التي قدِمَت من كردستان عندما كانت طفلة صغيرة، حيثُ جاءَت هُنا برفقةِ والدتِها قبيل فترة وجيزة من قيام دولة إسرائيل ، فيما قرّرت أمّها الأرملةُ أن تربّيَ أولادَها في القدس ، كونها أوّل مدينة عِشنَ فيها بعد رحلة سفرٍ شاقةٍ استمرّت لأسابيعَ على ظهر الحمار انطلاقاً من كردستان مروراً بالعراق وسوريا ولبنان وصولاً إلى إسرائيل. صحيحٌ أنها وصلَت هُنا رثّة الثيابِ جائعةً في حالةٍ يُرثى لها ، إلّا أنّها لم تأبه كثيراً بذلكَ كونَها حقّقَت مُبتغاها ونجحَت أخيراً في الوصولِ إلى وطنِها الأمّ إسرائيل.

كذلكَ دعني أحدّثكَ عن صديقتي شولا التي كانت تبلغُ من العمر اثني عشر عاماً عندما قرّرَت عائلتُها أن تتركَ قريتَها في اثيوبيا وتبدأ ترحالَها صوبَ أرض صهيون مشياً على الأقدام ، حيثُ بدأت شولا رحلتَها حاملةً أخاها الصغيرة على ظهرِها خلال تلك الرحلة المُضنيةِ التي استمرّت لأسابيعَ أيضاً. أضِف إلى ذلك قصّة صديقي أليكس الذي كان ينظّمُ صفوفاً في معسكرات الاضطهادِ السوفييتيّة " الغولاغ " من أجلِ تعليم اللغةِ العبريةِ رغم أنّها كانت لغةً محظورة في أراضي الاتحاد السوفييتي آنذاك.

لهذا ، فإنني أعتبرُ نفسي كيهوديّ عاشَ سابقاً في الولايات المتحدة الأمريكية جزءاً من المُجتمع اليهوديّ الأوفر حظاً إذا ما أرَدنا مُقارنةَ تجربة اليهودِ الأمريكيين بتجربةِ غيرهِم من المجتمعاتِ اليهوديّة في الشتات، حيثُ كانت أكبرُ همومِنا ومخاوفنا تتجسّدُ في بعض المخاوفِ التي ورثناها عن أجدادِنا في السابق، لا التي عشناها بأنفُسِنا . لهذا ، قررتُ العودة إلى إسرائيل لأكونَ جزءاً من هؤلاءِ الأبطالِ الذي رفضوا الانصياعَ لِلهزيمةِ التي كان يُمليها عليهِم التاريخُ.

وبالنسبة لي ، فإنّني لا أجدُ انساناً يُجسّدُ الشخصيّة اليهوديّة بكلّ ملامحِها سوى شابٍ يهوديّ يُدعى حيمي، حيثُ كان حيمي أباً لإحدى زميلاتِ ابنتي في المدرسةِ الإبتدائية ، إلا أنهُ تعرّضَ لإصابةٍ بالغةٍ أثناء حادثٍ مؤسفٍ وقع خلال مشاركته في تدريبات الجيش مما أدى إلى إصابته بشللٍ في العمودِ الفقريّ. لكنّ الإصابة لم تمنع حيمي من مواصلةِ حياتِه بشكلٍ طبيعيّ ، فتزوّجَ من الممرضةِ التي كانت تعتني به رغم أنه كان مُقعداً ، كذلكَ لم تمنعهُ الإصابة من أن يُصبحَ واحداً من أفضلِ لاعبي الرياضاتِ الخطِرة في إسرائيل، إضافة إلى ذلكَ فقد أسّسَ حيمي مؤسسةً أهليّة تهدفُ إلى تشجيع ذوي الإعاقةِ الإسرائيليين على ممارسةِ الرياضاتِ الخطِرة.

من ناحيةٍ ثانية ، فإن هذا لا يعني أننا لسنا ندفعُ ثمنا لحياتِنا في ظل ظروفٍ حياتيّةٍ قاسيةٍ ; فالشخصيّة اليهوديّة أيضاً تتصفُ بملامح قاسيةٍ وحادّةٍ بعض الشيء ، وهوَ ما توضّحهُ زوجتي سارة التي نشأت وترَعرَعت في ولايةِ كونيكتيكت الأمريكيّة حينَ تتحدّثُ عن دولةِ إسرائيلَ واصفة إيّاها بأنّها أكثرُ مكانٍ في العالمِ تتجسّدُ فيه ملامحُ الحياةِ في مرحلةِ ما بعدَ الصدمة.

كذلكَ فإننا شديدونَ في تعامُلِنا مع بعضِنا البعض ، فنحن لا نحترمُ الدورَ في كثيرٍ من الأحيانِ ونتجاوزُ بعضَنا في الشوارع والصفوفِ الطويلة مسبّبين الفوضى في بعضِ الأوقات ، كما أنّ سياسيّينا يتعاملونَ مع بعضهم البعضَ بقسوةٍ أيضا ، لدرجةٍ يظهرُ فيها أولئكَ السياسيون عندما يكيلون لبعضهِم الاتهامات بِمظهر الأعداء لِدولةِ إسرائيل، أضفِ إلى هذا كله التصاعدَ المُستمر للعنفِ في المدارس الإسرائيليّة وللفسادَ السياسيّ في دولةِ إسرائيل.

إننا نعيشُ في ظلّ طبقاتٍ مُتراكمةٍ من الصدماتِ والعُقدِ التي لم نجِد لها علاجاً بعد ، في الوقتِ نفسه، لا زالت إسرائيلُ تستقبلُ موجةً تتلوها الأخرى من المهاجرين العائدين إلى وطنهِم الذي يواجهُ تهديداتٍ ارهابيّةٍ متواصلة وصواريخَ موجّهة نحوهُ من كلّ اتجاه ، أضف إلى ذلكَ الحروبَ المروّعة التي تندلعُ كل بِضعِ سنواتٍ في هذه المنطقة. حقيقةً ، لو كان المُجتمعُ الإسرائيليّ مُجتمعاً ليّناً ضعيفاً لما صمدَ كثيراً أمام تلكَ الضغوطاتِ والتحدّيات ، إلا أن الأمة اليهوديّة التي نهضَت من ركام الهولوكوست بحيويّة فاقَت أكثر الأوقاتِ حيوية في التاريخ اليهودي ، قادرةٌ على التعاملِ مع هذه المصاعبِ والضغوطات مهما بلغَت شدّتُها.

من جانبٍ آخر ، هُناك جانبٌ مُظلمٌ للمحرقةِ اليهوديّةِ ، وهوَ الجانبُ الذي حذّرنا منهُ الرئيسُ الإسرائيليّ رؤوفين ريفلين أثناءَ خطابِهِ في ذكرى المحرقة ، وهو جانبٌ أعرفهُ تمامَ المعرفة: إنّهُ الخوفُ المتجذّر لدى اليهودِ من أن يَجدوا أنفُسهُم بمفردِهِم في هذا العالم مرةً أخرى ، تماماً كما حدثَ في أربعينيات القرنِ المُنصرم ، ذلكَ الوقتُ الذي لم يكُن يأبهُ فيهِ أحدٌ بمصير اليهودِ سوى أولئكَ الذين كانوا يرتكبون المجازر بحقّهم ، هذا الخوفُ الذي يعني عدم قابليّتنا للهروبِ من نظرةِ الجميع تجاهَنا على أننا غرباءٌ لاننتمي لهذا الجمعِ من الأمَم البشريّة.

لقد حاولتُ جاهِداً خلال السنواتِ الماضية تحريرَ نفسي من مثل هذه الكوابيس التي خلّفتها الهولوكوست، فيما توقّفتُ عن مُشاهدةِ الأفلام الوثائقيةِ وقراءةِ الكُتب التي توثّق أحداثَ الهولوكوست، حيثُ تصِفني زوجتي سارة في هذا السياق بأنّني كالمدمنِ الذي يجبُ عليه أن يتجنّبَ الإغراءاتِ إذا ما أرادَ التوقّف عن كونه مُدمناً. لهذا ، فإنني أُذَكّرُ نُفسي مراراً وتكراراً قائلاً: لقد انتهت الهولوكوست ، إلا أن تلكَ المخاوفَ تستيقظُ بداخلي كلّما شُنّت حربٌ على دولةِ إسرائيلَ مُهدّدةً وجودَها أو شرعيّتها على حدٍ سواء.

وبالعودة إلى أحداثِ المحرقة اليهوديّة، فقد بدأ الطريقُ إلى الهولوكوست والتحريضُ ضدّ اليهود من خلال عامِلين هامّين لا يُمكننا غض الطرفِ عنهُما أبداً: وهما إظهارُ اليهودِ بمظهر المُجرمين أوّلاً ، ومعاداةُ الساميةِ ثانياً.

أما بالنسبة للعاملِ الأول الذي ساهمَ في تنفيذ المحرقة ، فإننا بتتبّعِ أحداثِها سنكتشفُ بأن الهدفَ من وراء المحرقة كان المحرقة نفسَها. بمعنى آخر ، عندما سلبَ النازيونَ جميعَ مُمتلكاتِ اليهود لدرجةٍ وصلَت بهِم إلى انتزاع الشعر من جثثِ اليهودِ وسرقة الأسنان الذهبية من أفواه الموتى ، فإننا نجدُ أنّ هدف النازيين من الحربِ الموجهةِ ضدّ اليهود لم يكُن تحقيقَ مكاسبَ ماديّةٍ على الإطلاقِ بقدر ما كان هدفهُم محو كل ما لهُ صِلةٌ بالوجودِ اليهوديّ من الوجود.

ومع اقترابِ نهاية الحربِ العالمية الثانية ، وقُبيل خسارة الألمان لهذه الحرب ، فقد كانَ الجنودُ الألمانُ ينقلون الرجالَ من اليهودِ من مقدمةِ القطارات إلى مؤخّرتِها من أجل التسريع في وصولِهم إلى مُعسكراتِ الموت ، حيثُ كانوا حريصين كلّ الحرصِ على عدمِ نجاةِ اليهود بالرغم من انتهاءِ الحربِ وخسارة الألمان. بالتالي ، فإن مثلَ هذه التصرفاتِ النابعةِ عن عقليّةٍ مُصرّةٍ على حرقِ اليهود بأي شكلٍ من الأشكال - على الرغم من انّها كانت تعملُ ضدّ مصلحتِها في كثيرٍ من الأحيان - فقد كان دافعُ النازيين من وراء ما اقترفوه يتلخّصُ في " مهمةٍ مسيانية " لتحرير البشريّةِ من أعظم خطرٍ يُشكل تهديداً لها: وهو الوجودُ اليهوديّ على هذه الأرض. بمعنى آخر ، إذا كانَ الوجودُ اليهوديّ هو الجريمةُ ، فإن العقابَ الوحيدَ لهذه الجريمةِ هو إزالة الوجودِ اليهوديّ من الوجود.

أما بالنسبة للعاملِ الثاني ، فقد شكّلَت معاداةُ الساميّةِ عامِلاً هامّاً استندَ إليهِ النازيونَ في تنفيذ الهولوكوست. كذلكَ فإنه من الجدير بالذكر بأن النازيّين لم يُوجّهوا حِقدهُم وكراهيتهم لليهودِ ، بل حوّلوا اليهودَ إلى رمزٍ ذو مدلولاتٍ بغيضةٍ ومقزّزةٍ في عالم القيمِ والأخلاقياتِ الانسانية التي تسودُ المُجتمعاتَ الإنسانيّة المُتحضّرة. فعلى سبيل المثال ، كان اليهوديّ رمزاً لقتلةِ المسيحِ من وجهةِ نظرِ المسيحيّةِ القديمة ، فيما كان اليهوديّ رَمزاً للرأسماليةِ الجشعةِ بالنسبة للشيوعيّة السوفييتية ، أما بالنسبة للنازيةِ فقد كانَ اليهوديّ رَمزاً للعِرقِ المُلوّث.

وعلى أيّ حال ، فإن نَمَط شيطنةِ اليهودِ يُكرّرُ نفسهُ خلالَ الصراع القائم بيننا يا جاريَ العزيز. صحيحٌ بأن انتقادَ السياساتِ الإسرائيليّة لا يُعدّ شكلاً من أشكال معاداةِ الساميّة ، حيثُ أنّني أعلم تماماً بعدم وجودِ أيّ إسرائيلي جادّ في أمره يُؤمنُ بأنّ انتقادَ إسرائيلَ يُعدّ شكلاً من أشكالِ معاداةِ الساميّة - نظراً لكوننا أكثر الناقدين لعملِ بعضنا البعض كيهود - ، إلا أنّ إنكار حقّ دولةِ إسرائيل في الوجودِ بهدفِ القضاء عليها وإعادةَ اليهودِ إلى دولِ الشتاتِ التي اضطهَدتهُم وارتكبت بحقّهم أفظع الجرائم ، وعزلَ الأمةِ اليهوديةِ عن باقي أممِ العالمِ ، جميعُها دعواتٌ تتوافق كلّياً مع النمطِ التقليديّ الذي اتّبعهُ النازيّونَ لمعاداةِ الساميةِ .

عندما أسمعُ تصريحات القيادةِ الفلسطينيّةِ التي تصفُ قيامَ دولةِ إسرائيلَ على أنّه جريمةُ من أفظعِ الجرائمِ التي ارتُكبَتْ عبر مرّ التاريخ ، معبّرين عن احتلالٍ للأرض دام " سبعين سنةً " ، أي منذ قيام دولة إسرائيل ، وعندما أسمعُ مؤيّدي الشعبَ الفلسطينيّ حولَ العالم يهتفون خلال التظاهراتِ بأنّ " فلسطينَ حرةٌ من البحرِ إلى النهرِ " ، في رسالةٍ واضحةٍ منهُم إلى عدمِ وجودِ مكانٍ للدولةِ اليهوديّة على أرضِ فلسطين ، فإنني أفهمُ من مثلِ هذه التصرّفاتِ رسالةً واحدة يا جاري العزيز: وهيَ أنّ هذا الصراع القائم بيننا لا يتعلّقُ بسياساتِ دولةِ إسرائيل ، بل يتعلقُ بوجودِها على هذه الأرض ، فإسرائيلُ - من خلال هذه الدعواتِ المُناهضةِ لها - ليسَت متهمةً بارتكاب جرائم تجاهَ الفلسطينيين ، بيدَ أنّ وجودها هو الجريمة بحدّ ذاتِها من وجهةِ نظر الفلسطينيينَ والمؤيّدينَ لهُم.

وبالعودةِ إلى العاملِ الثاني للتحريض ضدّ اليهود من خلال " الرمز " الذي أضفاهُ النازيون على اليهود تمهيداً لارتكاب المحرقة بحقّهم والذي جعلَ من كلمةِ يهوديّ أمراً مكروهاً ، فإننا نجدُ إسرائيلَ في عالم حقوق الإنسان تشكّلُ رمزاً للعنصريّةِ المقيتةِ التي يعتبرُها العالم اليومَ أمّ الخطايا ، وهيَ خيرُ رمزٍ على الدولِ التي تنتهكُ حقوقَ الإنسان. كذلكَ فإن قيامَ الأمم المتحدة بالتصويتِ على القرارات التي تنتقدُ دولةَ إسرائيل بدرجةٍ تفوق انتقاداتها لجميع دول العالم مُجتمعةً ، فإنّها تُعزّزُ بذلكَ من فكرةِ شيطنةِ دولةِ إسرائيلَ وتميّزها بتلك الصفة المكروهةِ بين دول العالم.

بطريقةٍ أو بأخرى ، فإن لمثل هذه السلوكيّاتِ والدعواتِ يا جاري العزيزعواقبَ كارثيّة تضرّ بكلا الجانبين على حدٍ سواء; ذلكَ لأنّ تلك الحربَ التي تُشنّ ضدّ وجودِ دولةِ إسرائيل قد أيقظَت في الذاكرةِ الإسرائيليّةِ الأفكارَ التي سعَت إلى شيطنة إسرائيل قديماً رغم اكتسائِها بِحُلّةٍ جديدة مُهندمة في الوقت الحاليّ. كذلكَ فإنه عندما يتمّ إثارةُ واستفزازُ المخاوف اليهوديّة ، فإنّ معاناتكِ يا جاري العزيز ستصبحُ من منظورنا تهديداً يجبُ علينا التعاملُ معهُ بمنتهى الحزمِ، لا مأساة يجبُ علينا التعاطفُ معها والعمل على إنهائِها. أضِف إلى هذا كلّه بأن تلكَ الدعواتِ والصيحاتِ التي تدعو إلى شيطنتِنا تدفعُنا إلى تشديدِ الإحتلال بدلاً من الاعترافِ بتبعاتهِ السيئةِ على الحياةِ الفلسطينيةِ ; لأنّ تلك الدعواتِ تدفعُنا إلى زاويةٍ نكونُ فيها بمثابةِ الإنسانِ الذي يدافعُ غريزيّاً عن بقائِه ووجودِه ، فنُغدو في مثلِ هذه الحالةِ أقلّ تفهّماً ومرونةً في التعاملِ مع غيرنا ، غيرَ آسفينَ على أيّ إجراءٍ نتّخذه في سبيلِ الدفاعِ عن أنفُسِنا.

إن الحربَ الموجهة ضدّ وجودِ دولةِ إسرائيلَ تزيدُ من بلادتِنا وقَسوَتِنا في التعاملِ مع الآخرين ، من جهةٍ ثانية ، لو كانَ هذا النقدُ الذي يوجّهه مناهِضو دولةِ إسرائيلَ نقداً بناءاً لكنّا أخذناهُ على محملِ الجدّ وتقبّلناه بكلّ صدرٍ رحبٍ انطلاقاً من إيماننا العميقِ بحاجتِنا واحترامِنا للنقد البنّاء ، إلا أن هذا النقدَ موجّهٌ لإسرائيلَ من قبلِ دُعاة إزالةِ إسرائيل من الوجود; الأمرُ الذي يجعلُنا غير آبهينَ أبداً بمثلِ هذا النقدِ طالما أنه صادرٌ عن مثل هؤلاء. بالنسبةِ لأمةٍ تعتزّ بنفسِها وبمنظومتها الأخلاقيّة التي امتدّت لآلافِ السنين والتي تنصّ على اعترافِنا ما نرتكبه من أخطاء وتقبّلنا للنقد الذاتيّ كَعاملٍ هامٍ من عواملِ نجاحِنا وتقدّمِنا، فإنّ عدمَ تقبّلنا لِلنقدِ في مثل هذه الظروف يعدّ كارثة روحيّة بحدّ ذاتِها بالنسبة لنا.

كذلكَ يا جاري العزيز، أريدُكَ أن تُدركَ جيّداً بأنني أمتلكُ أسباباً قوية ومنطقيّة تجعلُني أعيشُ هذا الهاجسَ الدائم الذي يفرضُ عليّ الوجودَ في وضع الدفاع عن النفس من أجل البقاء. فعندما ألقي نظرةً على حدودِنا مع جيرانِنا من الدولِ فإنني أجدُ حزب الله على الحدود الشمالية ، وأجدُ حركة حماس على الحدود الجنوبيّة ، فيما أجدُ جنودَ الحرسَ الثوريّ الإيراني على حدودِنا مع الجولان ، وهي جميعُها تنظيماتٌ إسلاميّة أخذّت على عاتِقِها تدميردولةِ إسرائيل كواحدٍ من أهم غاياتِها وأهدافِها.

أضف إلى ذلك تهديداتِ القادة الإيرانيينَ الذين يُصرّحون من حينٍ لآخر مُهدّدينَ بأن إسرائيل ستختفي من الوجود في ظلّ فترةٍ زمنيّة أقصاها عقدين من الزمن ، في الوقت الذي تجدُ فيه عبارةً " الموتُ لإسرائيل " مكتوبةً على الصواريخ الإيرانيّة علَناً. كذلكَ فإنني أستذكرُ تصريحاتِ الأمين العام لحزب الله اللّبناني حسن نصر الله والذي يعدّ أحد أبرزِ حلفاءِ النظام الإيراني في المنطقة ، تلكَ التصريحاتُ التي دعا من خلالها – ساخِراً – جميع اليهودِ للعودةِ إلى أرضِ إسرائيلَ ، نظراً لأن هذا سيُسهّلُ مهمّتهُ في القضاء على اليهود بضربةٍ واحدة خلال تواجُدِهِم في مكانٍ واحد. في الحقيقة يا جاري العزيز، فقد علّمَتنا الهولوكوست درساً في غايةِ الأهميّة : إذا ما سمعتَ عدوّكُ يقولُ بمنتهى الصراحة بأنه يرغبُ في القضاء عليك فإنه يتوجّبُ عليكَ أن تأخذَ تصريحاتِهِ على محملِ الجدّ.

وفي خضمّ هذه الأحداث ، فإن مخيّلتي تكادُ تكونُ كَشاشةِ عرضٍ تعرضُ أماميَ مشهدين على جانبي الشاشة في الوقتِ ذاتِه، فها أنا أرى في المشهد الأوّلِ الإسرائيليّ في مواجهة الفلسطينيّ ، فيما ألعبُ أنا دور جالوت ، بينما تلعبُ أنتَ دور داوود في هذا المشهد . أما على الجانبِ الآخر لتلكَ الشاشة أرى إسرائيلَ في مواجهةِ العالم العربيّ والإسلاميّ ، فيما تتبدّلُ الأدوارُ فَألعبُ أنا دورَ داوود هذه المرة. في الواقع، لربّما تكمنُ رمزيّة هذه الأدوارفي وجوبِ تحريرِنا لبعضِنا البعض كفلسطينيين وإسرائيليين بطريقةٍ أو بأخرى.

أذكرُ في ربيع عام 2004 ، وعقبَ انتهاءِ الانتفاضةِ الثانية ، حينَ توجّهتُ في رحلةٍ إلى معسكر أوشوتز برفقةِ مجموعةٍ من المواطنين الإسرائيليين العربِ واليهود ، حيثُ بادر بِهذه الفكرة قِسّ من الناصرة ينتمي لطائفة الروم الملكيين يُدعى الأب إيميل شوفاني ، برفقةِ عددٍ من الشخصياتِ المسيحيّةِ والإسلاميةِ البارزة التي تنتمي للمجتمع العربيّ الفلسطينيّ في إسرائيل ، فيما كانَت هذه المبادرةُ جزءاً من مساعيهِم الراميةِ إلى إنهاءِ حالةِ الجفاءِ المُتزايد في العلاقةِ بينَ المجتمعين العربيّ واليهوديّ في إسرائيل.

وخلالَ تلكَ الرحلة راودتني الشكوكُ في مدى نجاحِ هذه التجربة ، حيثُ كنتُ أجادلُ المشاركين الفلسطينيين في هذه الرحلة بشدةٍ موضحاً لهُم بأن أصولَ الصدماتِ النفسيّة التي تعرَضتُ لها أنا شخصيّاً في السابقِ كانت في الشرق الأوسط، لا في أوروبا ، في الباصات التي كان يُفجّرُها الانتحاريّون ، لا في معسكر أوشوتز. لكن في الوقتِ ذاتِهِ قلتُ لنَفسي: طالما قرّر الفلسطينيون الانفتاحَ على واحدة من أسوأ التجاربِ التي مرّ بها اليهودُ ، فإنه ينبغي عليّ أن أشاركَ في هذه الرحلةِ تحتَ أي ظرف.

لقد شاركَ في هذه الرحلةِ قرابةُ ثلاثمئةِ عربيّ ويهوديّ ; الأمرُ الذي جعلني أتساءلُ فيما إذا شهِد معسكرُ أوشوتز خلال تاريخهِ الطويل رحلةً تضمّ زوّاراً بهذه الدرجة من الغرابة. وبينما نحنُ بداخلِ الحافلة ، أمسَكَتْ إحدى المشاركاتُ الفلسطينيّاتِ بالمايكروفون قائلةً : لقَد كان دافعي لزيارة هذا المكان هوَ إنقاذُ نفسي وتحريرُها من البغض والحقد اللذان يشوّهانِها من الداخل ، جئتُ هُنا لأحرّر نفسي من مخاوفي في أن يسيطرُ هذا البغضُ والحقدُ عليّ ". لربّما تكونُ زيارتي لهذا المكان مصدرُها السببُ نفسهُ أيضاً: وهوَ أنني لا أريدُ إنقاذَ الشرق الأوسط بقدر ما أريدُ إنقاذَ نفسي وتَحريرَها.

ومما لا شكّ فيه بأننا لم نتمكّن من تجنّب الأجواءِ المتوترة والمشحونة بين الجانبين خلال تلك الرحلة ، خاصة عندما استذكرَ الفلسطينيّون مأساة النكبة أثناءَ تجوالهِم في معسكرِ أوشوتز ورؤية ما مرّ بهِ اليهودِ من عذابٍ أثناء الهولوكوست ، فيما لم يبدِ اليهودَ المشاركون في الرحلةِ موافقتَهُم على تلكَ المقارنة بين المعانَتين ; كونها مقارنةٌ تُقحمُ الجانبَ الفلسطينيّ في العِقدة التاريخيّةِ التي سبّبَها هذا المكانُ لليهود.

وخلالَ هذه الرحلة ، اعترفَ أحدُ المشاركينَ العربُ بأن صديقاً له كان قد نصَحهُ بعدم المشاركة في هذه الرحلة مُحذّراً إياه قائلاً : " سوفَ تفقدُ صِفَتَكَ كضحيّةٍ إذا قُمتَ بزيارةِ أوشوتز " ، فيما اعترفَ أحدُ المشاركين اليهودَ بشيء مماثل ، حيث نصحهُ أحدُ أصدقائهِ بعدم زيارة أوشوتز برفقة العرب محذّراً إياه قائلاً : " إن زيارتكَ لأوشوتز برفقةِ العربِ تعني أنكّ تضربُ التاريخ اليهوديّ بعرضِ الحائط ".

لكن ورغم المدّ والجزر الذي سادَ الأجواء من حينٍ لآخر، إلا أننا احتضَنّا بعضنا بعضاً وذَرَفنا الدموعَ سويّةً عندما وقفنا أمام أحدِ أفران الغاز التي كانَ يُحرَقُ فيها اليهودُ في هذا المُعسكَر ، فيما وجّه لي علي - أحد قادة الحركات الكشفيّة العربيّة الإسرائيليّة - سؤالاً بينما هو مُمسكٌ بيدي قائلاً : " هل ستجعلُ زيارتُنا إلى هذا المكانِ منَ التعامل مع الماضي أمراً سهلاً ، أم أنّها ستَزيدُ الأمورَ تعقيداً؟ ". وخلالَ انتقالِنا من مكانٍ لآخر ، تجوّلَ الشبّانُ والشاباتُ العربُ بصحبةِ كبارِ السنّ الناجينَ من المحرقةِ في مرافقِ هذا المكانِ الذي يُجسّدُ المعنى الحقيقيّ للانكسار، على أملِ الوصولِ إلى مرحلةٍ ننظرُ فيها للواقع من منظور إنسانيّ مُشتركٍ انطِلاقاً من هذا المكان الذي يخلو تماماً من أيّ أمل.

لقد تمثّلت رؤية الأب ايميل شوفاني في أن خروجَ هذه الرحلة عن المألوف ، وتركَنا للشكوكِ المُتبادلةِ بين الطرفين جانِباً ، سيخلقُ مساحةً تُفسحُ المجالَ أمامَ التدخّل الإلهي ، فهذا ما يحدثُ فعلياً عندما نشهدُ حدوثَ المُعجزات الإلهيّة. حقيقة ، فقد كنا نناديه " أبونا " ايميل، كنا نناديهِ جميعنا بهذا اللقبِ بغضّ النظر عن كونِنا يهوداً أو مسلمين، فقد كانَ أبونا ايميل بمثابةِ الأبِ الروحيّ لهذهِ الرحلة; كونهُ رجلُ دينٍ مسيحيّ مُنفتحٍ ومتقبلٍ لكلا الجانبين ، مما جعلهُ ينجحُ في جلبِ مشاركينَ مسلمين ويهود معاً إلى مُعسكرِ أوشوتز.

بنهاية المطاف ، فقد كان قبولُنا لتلكَ المخاطرة ومشاركتنا في هذه الرحلةِ المُشتركةِ بمثابة تبادلٍ للمشاعر والأحاسيسَ بين الجانبين، حيثُ أدركَ اليهودُ المشاركونَ في الرحلة بأن ما حلّ باليهودِ في معسكر أوشوتز يمثّل جرحاً للإنسانيّة بأكملها، لا لليهود بمفردِهِم . أما المشاركونَ العربُ فقد شعروا بشيءٍ من مشاعر الغضبِ التي تملّكَت اليهود عقبَ هذه المحرقة حينَ سألوا السؤالَ نفسهُ الذي كانَ يُردّدهُ اليهودُ: أين كانَ العالمُ عندما حدثَت المحرقة؟

وبجميع الأحوال، وبرغم حالةِ عدمِ الارتياحِ التي كانت تسودُ بيننا من حينٍ لآخر، إلا أننا بنهايةِ المطافِ إسرائيليّون يتحدّثونَ اللغةَ العبريّة ويشاركونَ في الرحلةِ نفسَها. وخلالَ أحدِ المواقفِ التي حدثَت خلالَ الرحلةِ ، وقفَت امرأةٌ عربيّة مخاطبة المشاركين اليهودَ قائلةً : " لقد أحببتُ اليهودَ منذ اللحظةِ التي تعرّفتُ فيها عليهِم ، لكن يبدو ليَ وكأنّ اليهودَ لا يرغبونَ بأن أشعرَ تجاهَهُم بمثلِ هذا الشعور". حقيقة ، فقد كانَ هذا أحد المواقفِ المؤلمة التي جعلَت هذه المرأة العربيّة تُفسّر تقوقعَ الأمة اليهوديّة وانغلاقَها على ذاتِها على أنهُ رفضٌ لمشاعر الحبّ من الآخرين، وهيَ - مع الأسفِ الشديدِ - القناعةُ نفسُها التي يشعرُ بها غيرُ اليهودِ خلال تعامُلِهِم مع اليهود.

كذلكَ فقد كانَ أحدُ أهدافِ الأب ايميل من هذه الرحلة يتمثّلُ في تغيير حالةِ " إنكار وقوعِ المحرقةِ اليهوديّةِ " التي تُسيطرُ على المُجتمعِ الفلسطينيّ بشكلٍ خاص ، والعالمين العربيّ والإسلاميّ بشكلٍ عام. من وجهة نظري ، فإنني أعتبرُ إنكارَ الهولوكوست بمثابةِ اعترافٍ ضمنيّ من مُنكري حدوثِ المحرقة بفظاعة أحداثِها لدرجة أنهُم يعتقدونَ جزافاً بمبالغتِنا عندما نتحدّثُ عمّا وقع خلالَها من أحداث ; وهوَ أمرٌ لا زلتُ أراه أمراً غير معقولٍ بأي شكلٍ من الاشكال. في الغرب ، فإن إنكار المحرقة هو بمثابةِ عُملةٍ لا يتاجرُ بها سوى غريبو الأطوار، أما في العالم الإسلاميّ الممتدّ من مصر إلى إيران فإن إنكارَ الهولوكوست هو بمثابة رسالة تبثّ علانيّة بشكلٍ اعتيادي في محطاتِ التلفاز دون أدنى غرابة.

إنّ المواقفَ التي تتبنّاها بعضُ دولِ العالم العربيّ والإسلاميّ تتلخّصُ باختصار في هذهِ العبارة التي تضيفُ قدراً من التهكّم والسخريّة إلى هذه الذكرى الأليمة: فالهولوكوست لم تحدُث أبداً ، إلا أننا سعيدون لكونِها حدثَت ، بينما سنسعى للقيام بها مرةً أخرى!

كذلك فقد أظهرَتْ هذه الرحلةُ جزءاً بسيطٌ من حجمِ الرسالةِ المسمومةِ التي تبثّها المنظومة التعليميّة في العالم العربيّ والإسلاميّ حول الهولوكوست، ذلك عندما تحدّثَت إحدى المشاركاتُ العربيّات خلال أحد اللقاءاتِ المسائيّة قائلةً : " لطالما كنتُ أعتقدُ بمبالغةِ اليهود فيما يتعلّق بقضيّة المحرقة ، لقد كنتُ أؤمنُ بأنها مأساة حقيقية ، لكنّ سقوطَ الضحايا من الأبرياء ِهو أمرٌ طبيعيّ جدّاً أثناء الحروبِ ، أما الآن ...." .

كذلك فقد وضّح لنا المشاركون العربُ الذين انضمّوا إلينا في هذه الرحلة بأنّ صراعهُم مع اليهودِ لا يعني بأيّ شكلٍ من الأشكال إنهاءَ الوجودِ اليهوديّ على هذه الأرض، بل على العكس تماماً : نحنُ على أتمّ الاستعدادِ للوقوفِ إلى جانب اليهودِ من أجل التصدّي لأي محاولةٍ لإنهاءِ وجودِهِم . إننا على استعدادٍ لسماعِكُم وتفهّم روايتِكِم والعيشِ معكُم كجيران على هذه الأرض ، إلا أنّ ما نريدهُ منكُم هوالإصغاءَ إلى قصّتنا وتفهّم ألمِنا بدونِ أي مقارناتٍ تاريخيّة حمقاءَ لا داعيَ لها ، وأن تتفهموا خصوصيّة ألمِ كل طرفٍ من أطراف هذا الصراع ، تلكَ الخصوصيّة التي لا يمكنُ مقارنتُها بأي ألمٍ تعرّضَ لهُ أيّ شعبٍ آخر.

لقد حاولَ الأبُ ايميل من خلال هذه الرحلة أن يُساعدَنا في رؤيةِ المعاناةِ الإنسانيّة لكلِ طرفٍ من الأطرافِ، فيما كان يطمحُ لمساعدَتِنا في إيجادِ طريقةٍ نحرّرُ بها ذاتَنا من الشوائبِ التي تعكّرُ سكينتَها وطمأنينتَها.

بنهاية المطاف، هل تعتقدُ يا جاريَ العزيزُ بأنّ زيارةً مُشتركة للعربِ واليهود معاً إلى مُعسكر أوشوتز من شأنِها أن تُحدِثُ تغييراً ما؟ وبعيداً عن المشاركين العربِ واليهود الذين انضمّوا إلى هذه الرحلةِ ، هل ستَعلقُ هذه الرحلةُ في ذاكرة أحَد؟ حقيقةً ، فقد علّمتني تجرُبتي مع أبونا أيميل بأنه لا بُدّ من وجودِ نتائجَ ايجابيّة لأيّ مبادرةٍ دينيّةٍ روحيّة قائمةٍ على النوايا الصادقة ، نتائجُ إيجابية يصعبُ توقّعُها سَلفاً.

أخيراً وليسَ آخراً يا جاريَ العزيز ، فإن اليهودَ والمُسلمينَ قد قاموا بهذه الرحلةِ معاً في وقتَ اندلاع الانتفاضةِ الثانية، وبأنّ هذا المشهدَ الذي طغت عليه الأجواء الايجابية والنوايا الحسنةُ والبعيدةُ كل البعدِ عن التطرّفِ الذي تفرضه علينا أحياناً المشاعر العامةُ التي نشعرُ بها خلال الأحداث السياسيّة قد حدثَ فعلاً خلالَ تلكَ الفترةِ العصيبة ، فيما أصبحَت ذكرى هذه التجربةُ المميزة جزءاً لا يتجزأُ من قصةِّ اليهودِ والعربِ معاً على هذه الأرض. لهذا ، ها أنا أكتبُ إليكَ لأشاركُك هذه التجربة التي خلّدتها ذاكرتي والتي تعني ليَ إمكانيّة وجودِنا معاً وتجاوز أزماتِنا حتى في ظلّ أصعبِ الأوقاتِ وأكثرها حساسيّة.

الرّسالةُ العاشِرة : خيمةٌ في طرفِ الصّحراء

جاريَ العزيز،

يهلّ علينا اليوم أحدُ الأعيادِ اليهوديّة الهامة: عيدُ السوكوت - أو عيدُ العرش - ، وهوَ العيدُ الذي نحييهِ مُستذكرينَ رحلةَ اليهودِ من صحراءِ سيناء إلى هذه الأرضِ مُصطحبين معهُم أكواخاً وخيماً لتحميهِم من قسوةِ الصحراءِ خلال ترحالِهم ، لذلكَ فإنّنا ننصبُ المظلياتَ والخيم بالقربِ من بيوتنا كجزءٍ من تقاليدِ وطقوسِ هذا العيد ، بحيثُ تصبحُ هذه الخيمُ والمظلّياتُ مكانَ معيشتِنا لمدة أسبوعٍ كامل ، حيثُ نأكلُ ونشربُ ونستضيفُ الأصدقاءَ ونتدارسُ التوراة وننام أحياناً بداخلِها.

بالنسبة لي ، فقد نصبَت عائلتي مظليّةً - سوكاه باللغةِ العبريّةِ - على شرفة منزلي المطلّةِ على تلّتِك يا جاريَ العزيز ، ولربّما تستطيعُ رؤيةَ بُنيتِها الهشّة من منزلِك ، فمظليّتي عبارةٌ عن أعمدةٍ تَنتَصبُ وسط سقفٍ من سعفِ النخلِ المنثورِ فوق قطعٍ خشبيّة ، فيما تُغطّي قطعٌ من القماشِ جوانبَ هذه المظلّية. وإن كانَ باستطاعتِكَ رؤية مظلّيتي أيّها الجارُ العزيزُ فإنّك ستلاحظ أن الجانب المُطلّ على تلّتِكَ قد تُركَ مفتوحاً بأكملِه ; الأمرُ الذي سيمنحُني شعوراً مُضاعفاً بالبهجةِ التي تمنحني إياها حميميّة العلاقةِ التي تجمعُ بين تلّتي وتلّتِك في هذا العيدِ المُميّز.

وفي الصباحِ الباكر أسمعُ صياحَ الأطفالِ الفلسطينيين بينما يلعبونَ في فناء المدرسة ، فيما أستطيعُ بوضوحٍ رؤيةَ عماراتٍ سكنيّة جديدةٍ ترتفعُ لدرجةٍ تتعدّى ارتفاع الجدار بكثير ، تلكَ البناياتُ التي تم تشييدُها من أجل حلّ أزمةِ الاكتظاظ السكانيّ في منطقة شعفاط، إلا أنّها وعلى ما يبدو لا زالت خالية من السكانِ حتى الآن. في الوقتِ نفسِه ، يدنو منّيَ صوتَ الأذانِ وكأنهُ يشقّ طريقهُ إليّ من بين ثنايا خيمتي المنصوبة مقابل تلّتِك ، فيما تبدو الصحراءُ المُمتدة في الأفقِ وكأنها فناءٍ خلفيّ نتشاركهُ سوياً.

في الواقع ، تُذكّرُنا هذه المظلّياتُ والخيمُ التي ننصبُها حولَ بيوتِنا في هذا العيدِ بِهشاشةِ الواقع وسرعةِ زوال هذه الحياة ، كذلكَ فإن شعورَك بالأمن والأمانِ داخلَ هذه الخيمِ والمظلّياتِ التي نستعيضُ بها عن منازلِنا لسبعةِ أيامٍ هو بمثابةِ شعورٍ بالثقةِ في الطبيعةِ الآمنةِ لهذا العالم في ظلّ الحمايةِ الإلهيّة. أما في المُخيّلةِ اليهوديّة ، فإنّ هذه المظلّيات ترمزُ إلى خلاصِ هذا العالم ، ذلكَ الخلاصُ الذي يتجسّدُ حقيقةً في الوصولِ إلى مرحلةٍ يعيشُ فيها البشرُ مع بعضهِم البعض بأمنٍ وسلام ، لهذا نصلّي في هذا العيد متضرّعين إلى الله أن ينصبَ خيمة السلام علينا كي تستظلَ بها البشريّة جمعاء.

كذلكَ يا جاريَ العزيز ، فإنّ كل عائلةٍ يهوديّة تُزيّنُ تلكَ الخيمة أو المظلّيةَ بطريقةٍ مختلفةٍ عن الأخرى، وذلكَ اعتماداً على طبيعةِ فهمِ كلّ عائلةٍ يهوديّةٍ لمعنى الهويّةِ اليهوديّةِ وتطلّعاتِ اليهود. فعلى سبيلِ المثال ، ينصبُ اليهودُ الأرثوذوكس المتديّنون خيَمهم ومظلّياتهِم بطريقةٍ تتضمنُ صُوراً ورسوماتٍ لحاخاماتٍ بارزين ، فيما يُزيّنُ آخرونَ خيَمهُم بصورٍ ورسوماتٍ للزرع والحصاد ، أمّا عائلتي فقد اختارَت أن تكونَ زينةُ خيمتِنا مرتبطةً بموضوعِ الوحدةِ الإنسانيّة تيّمناً بالتقليدِ الذي سادَ خلال عيدِ العرشِ أثناء حقبةِ الهيكل اليهوديّ القديم ، حين كانَ الكهنةُ يُقدّمونَ القرابينَ من أجلِ خيرِ وصلاحِ جميعِ الأممِ البشريّة.

لهذا ، قرّرنا أنا وزوجتي سارة أن نستحضِرَ بعضَ التقاليدِ العالميّة المُقدّسةِ والقديمة لتكونَ زينةَ لِخيمتِنا التي سنسكنُها مؤقتاً في هذا العيد ، حيثُ علّقنا أعلاماً تتدلّى من السقفِ الخشبي للمظليّة ، فيما كُتبَ على تلكَ الأعلامِ صلواتٌ وأدعيّة تَعودُ أصولُها إلى منطقة التبت ، وهيَ أعلامٌ أحضَرَتها ابنتُنا موريا من منطقةِ الهملايا ، فيما قمنا بكتابةِ بعضِ الصلواتِ اليهوديّة التي تدعو إلى خير وصلاحِ البشريّة جمعاء بجانب الكتاباتِ الموجودةِ على تلكَ الأعلام.

كذلكَ قُمنا بتزيين الخيمةِ بمجسمٍ لفيلٍ مُزخرفٍ ، وهو مُجسّمٌ هنديّ يرمزُ إلى الطاقةِ البدائيّة للخلق ، حيثُ علّقناهُ بحبلٍ بجانبِ الشوفار – أي قرنِ الكبش – وهوَ الرمزُ اليهوديّ الذي يدعو إلى الاستيقاظ الروحيّ. أما جانبُ الخيمةِ فأردتهُ أن يكونَ مُزيّناً بشيء لهُ علاقة بدراستي ، رغبةً مني في الربطِ بين موضوع دراستي وعيد العرش ، لذلكَ قمتُ بتعليق لوحة من السيراميك مكتوبٌ عليها واحدة من أحبّ الآيات القرآنية وأقربِها لقلبي : " اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ". بالنسبةِ لي ، تؤكدُ جميعُ هذه النصوصُ والرموزُ على رسالةٍ واحدةٍ مفادُها اتّحادُ هذا الكونِ مع نفسهِ وخالقهِ الواحدِ الأحَد.

في الوقتِ نفسه يا جاريَ العزيز، فإن جلوسيَ في خيمةِ عيد العرش يُشعرني أحيانا بأنني أجلسُ في العراء دونَ أدنى حماية، فها أنا أطلّ من شُرفةِ منزلي على ثلاث مناطق تابعةٍ لثلاث دولٍ ذات سياداتٍ مُختلفة ، بدءاً من المنطقة الخاضعة للسيادة الإسرائيليّة والتي تنتهي حدودها بالجدار، مروراً بالمنطقةِ الممتدةِ من الجدار إلى بداية المنطقة الصحراوية والخاضعة لسيادة السلطة الفلسطينيّة ، وصولاً إلى الصحراء الممتدة في الأفقِ والتي تخضعُ للسيادةِ الأردنيّة. كذلكَ في المنطقة البعيدة الخارجة عن نطاق رؤيتي أجدُ منطقة الشرق الأوسط بين الركام والخراب ، فها هي سوريا تبدو كالمقبرة ، وها هو العراقُ يلتهمُ نفسَهُ بنفسِه ، بينما الدكتاتورُالتركيّ يقمعُ ويُعذّبُ صفوةَ أبناءِ مُجتمعه ، فيما اليمنُ يتضوّرُ جوعاً. وبينما أنظرُ إلى حجمِ الخراب المحيطِ بنا ، أحدّثُ نفسي مُتسائلاً : أيّ مُستقبَلٍ ينتظرُ شعبينا على هذه الأرضِ يا جاريَ العزيز؟

الطقسُ لطيفٌ إلى حدٍ ما ، فيما يبدو صباحُ هذا اليوم التشرينيّ مُشرقاً ، إلا أنّ الغيومَ آخذةٌ بالتجمّع تمهيداً لتساقط المطر الذي سينعُشُ البشرَ والحجرَ بعد مضيّ قرابة ستة شهورٍ على انقضاء الشتاء الماضي. إنني أجلسُ الآنَ على وسادةٍ داخل الخيمةِ بينما تحيطُ بيَ مجموعة من النباتاتِ الجميلةِ التي زرَعَتها زوجتي سارة ، كالزعتر والشاي الأخضرِ والرّمانِ وأشتال الزيتون ، فيما أحملُ بإحدى يديّ قطعةً من سعف النخل الملفوفِ حولها أغصانٌ من الصفصافِ والآس ، وباليدِ الأخرى أحملُ أغصان نبتةِ الأترج التي تفوحُ رائحتُها العَطرةُ في أنحاءِ الخيمة. لقد أوصتَنا التوراةُ بتجميعِ أغصانِ تلكَ الأصنافِ الأربعةِ على وجه الخصوصِ استعداداً لموسم الحصاد ، وخلال صلواتِنا في هذا العيدِ فإننا نمسكُ بأغصان تلكَ النباتات الأربعة ملوّحين بها في الاتجاهاتِ الأربعة ثمّ للأعلى صوبَ السماء وللأسفل صوبَ الأرضِ لِنباركَ الأرضَ وما عليها.

كذلكَ فإن حاخاماتِ اليهودِ وأحبارَهُم قد وضّحوا الحكمة من وراءِ تجميع أغصانِ هذه الأصناف الأربعةِ من النباتات على وجه الخصوص والتلويح بها في صلواتِنا خلال عيد العُرش. فعلى سبيل المثال ، فإن نبتة الأترجِ ترمزُ إلى القلب ، فيما يَرمزُ سعُفُ النخلِ إلى العمود الفقريّ. وبجميع الأحوال ، فإن رمزيّة هذه النباتاتِ هي رمزيّة شِعرية إلى حدٍ ما ، إلا أنّها قريبةٌ إلى حدٍ ما من الرمزيّةِ الحقيقيّة التي تمثّلها هذه النباتاتُ في هذا العيد. كذلكَ فإن رمزية هذه النباتات ليسَت مهمة بقدرِ أهميّة هذه الحقبةِ الزمنيّة تحديداً، والتي تمكّنَ اليهودُ فيها من احتضان نباتاتِ الأرض التي لطالَما صلّى اليهودُ من أجلِها في الشتاتِ لآلاف السنين.

في الواقع ، تبدو الطقوسُ الدينيّة اليهوديّة وكأنها أقدمُ من التوراةِ نفسها في بعض الأحيان ، تلكَ الطقوسُ التي لربّما تعودُ إلى التقاليد الشامانيّةِ القديمةِ. إنني أعتزّ جداً بهذه الطقوسِ الدينيّة التي تعيدُني بالزمنِ إلى الوراء ، فها أنا الحاضرُ الذي يستحضرُ طقوسَ الماضي . حقيقة ، يختلجُني الشعورُ نفسهِ في كلّ مساءٍ من يوم الجمعة ، عندما انتقلُ من عالمِ العلمانيّة إلى عالم التديّن الذي يبدأ بدخولِ السبتّ اليهوديّ " الشابات " ، عندما أوقفُ تشغيلَ جهاز الحاسوب وهاتفي النقّالَ وسيارتي وامتنعُ عن استخدامِهما امتثالاً لطقوسِ يوم السبتِ اليهوديّ ، إذ يُحظرُ علينا خلالهُ استعمالُ كل ما له علاقةٌ بالأجهزة الالكترونيّة، الأمرُ الذي يعيدُني مؤقّتاً إلى عصر ما قبلَ الحداثة.

وبينما رأسي مغطىً بِشالِ الصلاة ، أحملُ سعفةَ النخلِ ملوّحاً بها ببطءٍ شديدٍ باتجاه عقاربِ الساعة لأحيط بكلّ منطقة الشرق الأوسط خلال دوراني ، إنني أصلّي لأولئكَ المقهورينَ المُنكسرينِ في الدولِ المحيطة بي ، إلا أنني أصلّي على

وجهِ الخصوص من أجلي ومن أجلِكَ يا جاريَ العزيز، مُتضرّعا للهِ بقولي :" أنا أدوناي هوشيعانا " باللغة العبريّة، أي " احفظنا يا الله " باللغةِ العربيّة.

كذلك يا جاريَ العزيز ، فإنك إذا ما دقّقتَ نظركَ جيّداً فإنك ستجدُ هذا العالمَ يتقلّبُ على صفيحٍ ساخِن، وأن منطقتنا ليست المنطقةَ الوحيدة المُلتهبة فوق سطح هذا الكوكب ، فيما ستجدُ مشاعرَ اليأس والإحباط تخيّمُان على العالم بأسره بشكلٍ مُتصاعِد. لكن من وجهةِ نظري ، فإنني - كواحدٍ من أبناءُ هذا الجيلِ بالتحديد - على درايةٍ تامّة بهذه الحقيقةِ المروّعة والتي مفادُها بأنّ البشريةَ قادرةٌ على تدمير ذاتِها بطرقٍ عديدة ، كالحروبِ النوويةِ والكوارثِ البيئية المحيطة بنا وغيرِها من الوسائلِ الكارثيّة. حقيقةً ، يبدو ليَ الأمرُ وكأننا قد بدأنا للتوّ بإدراكِ الفرقِ الهائلَ بين المخاطر المُحدقةِ بنا في هذه الحقبة الزمنية والحقبِ والزمنيّة السابقة ; الأمرُ الذي قد يعني عجزَ أحدِنا عن ممارسةِ حياتِهِ بشكلٍ روتينيّ كالمعتاد إذا ما أخذّ بالحسبان طبيعةَ هذه التهديداتِ ووجودها فعلاً في حياتِنا ، وهو ما يجعلُنا نتعامى أحيانا عن هذه الحقائقِ الواقعيةِ في سبيلِ تجنّبِ التفكير مُعمّقاً في الطريقةِ التي ستنتهي بها حياتُنا على هذه الأرض.

وعلى أيّ حال ، ورغمَ تلكَ الحقائق المفزعة ، إلا أن هذه الحقبة الزمنيّة تتيحُ لنا أيضاً فرصةَ تخيّل البشريّة وهي ترتقي بنفسِها من خلالِ الإنجازاتِ العلميّة والتكنولوجيّةِ التي من شأنِها أن تضعَ حداً للكثير من الكوارثِ المحيطة بنا ، كالمجاعاتِ والأوبئة الفتّاكةِ وغيرها من الكوارث. كذلكَ يبدو ليَ العالمُ حالياً كمكانٍ تتواردُ فيه الخواطرُ بين معظمِ أجزائه ، حيثُ يهبّ كلّ طرفٍ منه لمساعدةِ الطرفِ الآخر إذا ما دعت الحاجة لذلك ، فعندما تحلّ كارثةٌ طبيعية معيّنةٌ بدولةٍ من دول العالم فإنك تجدُ دولاً أخرى تهبّ على الفور لِمساعدةِ وإنقاذ تلكَ الدولةِ في واقعٍ يبدو مختلفاً تماماً عن طبيعةِ العلاقةِ بين تلكَ الدول قبلَ وقوع الكارثة.

وعندما عادَ بنو إسرائيلَ إلى هذه الأرض قامَ يوشَع بن نون بتقسيمِ اليهودِ إلى اثنتي عشرَ قبيلة ، حيثُ صعدَت ستّ قبائلَ منها إلى جبلِ جرزيم - أي جبل البركة - فيما صعدتُ ستُ قبائلَ إلى جبلِ عيبال - أي جبل اللعنة بحسبِ الروايةِ اليهوديّة- ، أما الوادي الذي يقعُ أسفلَ الجبلينِ فقد كانَ المكان الذي أعلنَ الكهنةُ اليهودُ فيهِ مكاناً للإلتزامِ بأوامرِ وتعاليمِ التوراةِ ووصاياها.

وفي موقفين متشابهينِ ، فقد أعلنَ الكهنةُ أمامَ القبائلُ التي صعدَت إلى جبل جرزيم بأنّ الإلتزام بِأوامر ووصايا التوراة سيكونُ سبباً في جلبِ البركةِ من الله ، فاستجابَ أتباعُ تلكَ القبائل معبّرين عن قبولِهم بقولِهم " آمين " ، فيما أعلنَ الكهنةُ أمام القبائلِ التي صعدَت إلى جبلِ عيبال بأن مُخالفتَهُم لهذه الأوامرِ والوصايا ستكونُ سبباً يؤدي إلى أن تحلّ لعنةُ الله عليهِم ، فاستجابَ أتباعُ تلكَ القبائلِ معبّرين عن قبولِهم بقولِهم " آمين". لقد جسّدَ هذا الموقفُ تعبيراً قويّاً عن اللحظةِ التي دخلَت فيها أمّة كُتبَ لها أن تكونَ أمةً مباركةً لأرضٍ كُتبَ لها أن تكونَ أرضاً مُقدّسة ، فيما كانَت الرسالةُ لهذا الحدث المهم تنصّ على إنّ الإلتزامَ بهذه الوصايا والتعاليم يعني اختارنا للعيشِ في ظلّ بركةِ اللهِ ، بالتالي اختيارَنا للحياة.

لربّما تتساءلُ بينَك وبينَ نفسِك يا جاريَ العزيز عن السببِ الذي دفعني للحديثِ عن هذا الموقف. حقيقةً ، تبدو ليَ البشريّة جمعاءُ وكأنها مُنقسمةٌ إلى قسمينِ يقفُ كلّ منهُما على أحدِ هذين الجبلين. من جهةٍ ثانية ، فإن طبيعةَ مشاعرِ اليأسِ والإحباطِ الذين يخيّمانِ على عَصرنا هذا، أي عَصرَ ما بعدَ الحداثة ، يُعمّق من شعوري بالمسؤوليّةِ تجاه البشريّة كإنسانٍ يحملُ رسالةً قديمةٍ لحقبةٍ زمنيّة حديثة ; إذ ماذا يعني للبشريّة وجودُ أمةٍ يهوديّة نجحَت في الحفاظِ على هويتِها الأصيلةِ خلال أربعةِ آلافِ عامٍ ؟وما هيَ الحكمةُ التي يتوجّبُ على اليهودِ - كونهُم نجحوا كلّياً في الحفاظ على بقائهِم عبرَ مرّ التاريخ - أن يُفيدوا بها البشريةَ في هذا العصر؟

حقيقة ، فقد آمنَ اليهودُ منذُ نزولِ التوراةِ حتى يومنا هذا بأنَ غايةَ الأمةِ اليهوديّةِ تتجسّدُ في كونها أمةً مُبارِكَةً للبشريّة جمعاء، وهو أمرٌ يطرحُ عدداً من التساؤلات : كيفَ تؤثرُ هذهِ الغاية على قضيّة تعامُلنا وعلاقتِنا بالشعبِ الفلسطينيّ؟ وما هيَ المُبادراتُ التي يتوجّبُ عليّ القيامُ بها من أجلِ مدّ يد السلامِ إليكَ مُجدداً رغم كلّ العقباتِ والمصاعِب؟

بالنسبة لي ، أقصدُ كيهوديّ مُتديّنٍ يسكنُ مدينةَ القُدسِ، فإنني أجدُ الإجابة عن هذه التساؤلات في غايةِ ومعنى عيدِ العرش، إنني أجدُ في كل حركةٍ أوتي بها أثناءَ بناءِ مظلّية هذا العيد وانتقالي للعيشِ فيها خلال هذا العيد تعبيراً قويّاً عن مُجابهةِ مشاعر اليأس والإحباطِ التي تحيطُ بدربِ الوصولِ إلى السلام بيني وبينك ، خاصّة وأنّ هذا البناءَ الهشّ مفتوحَ الجوانبِ يمثّل بالنسبةِ ليَ نقيضَاً لِلملجأ المشيّد الموجودِ في أسفلِ بنايتي والذي يُفرضُ بناؤهُ على كلّ عائلةٍ إسرائيليّة من أجلِ الاحتماءِ به أثناءَ تعرّضِ إسرائيل لأي هجمةٍ صاروخيّة. إن واقع خوفِنا من الصواريخ يمثّل جُزءاً لا يتجزأ من واقع الحياةِ الروتينيّةِ لكلّ مواطنٍ إسرائيلي ، إلا أنني أشعرُ بواقعٍ مُختلفٍ تماماً داخل خيمةِ عيد العرش ، هذه الخيمةُ الروحيّة التي يُداعبُها الهواءُ العليلُ من كلّ جانبٍ تمثّلُ لي شعوراً بالأمانِ والطمأنينة.

لقد حاولتُ خلالَ هذه الرسالةِ أن أطلِعَك يا جاريَ العزيزُ على أهّميةِ الهويّة اليهوديّة والإسرائيليةِ بالنسبة لي ، كما حاولتُ أن أعرّفكَ على ما ساهمت بهِ يهوديّتي وإسرائيليّتي في الشدّ من أزري وتقويةِ عزيمتي لتحمّل تبعات كونيَ يهوديّاً وإسرائيلياً. كذلك فقد حاولتُ في الوقتِ ذاتِهِ أن أذكّرَ نفسي بأنّ هذه الهويّاتِ ستفنى بنهايةِ المطافِ حينَ تغادرُ أرواحُنا هذا العالمَ تاركةً جميعَ هذه المسائلَ خلفَها. صحيحٌ أنه يتوجّبُ علينا إجلالُ هذهِ الهوياتِ القوميّة والوطنيّة واحترامَها خلال مسيرةِ حياتِنا على هذه الأرض ، إلا أنّ كونكَ انساناً مُتديّناً يفرضُ عليكَ أيضاً أن تمنح قدراً أكبرَ من الاهتمام بالمسائلِ الروحيّةِ ، كونَها تشكّلُ جوهرَ وجودِنا على هذه الأرض ; الأمرُ الذي يمنحُها أولويّة تفوقُ أولويةَ الهويةّ القومية والوطنية.

لهذا ، هلّ تعتقدُ بوجودِ إمكانيّةٍ للرجوعِ إلى مُعتقداتِنا الروحيّة لتكونَ نقطة انطلاقٍ نتجاوزُ من خلالِها جروحَنا وآلامَنا ومخاوفنا من أجل المضيّ قدُماً في هذه الحياة؟ وما هيَ مسؤولياتُنا كأناسٍ مُتديّنينَ تجاهَ هذه الأرضِ التي قدّسَها اللهُ بالمحبّةِ والعبادةِ وبِآمالِ الأجيال التي عاشَت على هذه الأرض لآلافِ السنين؟ أخيراً ، ما هي مسؤوليتُنا كبشرٍ أستأمَنَهُم اللهُ على أرضٍ شهدَت واحداً من أعقدِ الصراعاتِ وأشدّها استعصاءاً خلالَ فترةٍ زمنيّة تعدّ من أشد فتراتِ التاريخ خطورةً؟

وها أنا أنهي الكتاب مثلما بدأتهُ يا جاريَ العزيز، أشاركُكَ أحداثَ ليلةٍ أخرى يُجافيني فيها النومُ بينما تراودُني بعضُ الكوابيسِ رغم كوني مُستيقظاً. عقاربُ الساعةِ تشيرُ إلى الرابعةِ فجراً ، فجأةً أسمعُ صوتَ أذانِ الفجر القادم من تلّتكَ ، هذا الصوتُ الخاشعُ الذي يبدو لي كصوتِ صديقٍ قديمٍ يحاولُ تقريبَ المسافةِ الفاصلةِ بين تلّتي وتلّتِك ، هذا الصوتُ الذي أشعرُ بعظيمِ الامتنان لهُ كونهُ يؤنسُ وحدَتي في هذا الليل الطويل. إنني أنهي رسائلي إليكَ بدعواتٍ صادقةٍ بأن نلتقي بعضَنا بعضاً على أرضِ الواقع بعدَ هذا المشوار الذي أمضينا فيه بعضَ الوقتِ في عالمِنا الروحيّ المعنويّ ، على أملِ أن استضيفَك يوماً ما في بيتي داخلَ خيمةِ عيد العرشِ إن شاءَ اللهُ ، " بعزرات هاشيم " باللغة العبريّة.

شكرٌ وعِرفان

أتقدّم بجزيلِ الشكر وعميقِ الإمتنان إلى كلٍ من :

- الصديقة العزيزة ماري برينير والتي أرسلَتها مملكةِ الملائكة إليّ لتساهم في تحويلِ حلم كتابةِ هذا الكتاب إلى حقيقة.
- المُحرّرة المميزة صوفيا غروبمان على جهودها المُضنية في دعم الكتابة والكتّاب ، والتي ساهمَت لمساتُها الساحرةُ في أضفاءِ مزيدٍ من الجمال إلى ملامح هذا العمل.
- زوجتي وشريكةُ حياتي إلى الأبد سارة .
- أبنائي مورياه وغابرييل وشاحار، والذين أضفى وجودُهُم مزيداً من البهجةِ إلى حياتي وعمّقَ من فهمي لمعنى دولةِ إسرائيل.
- الأصدقاءُ تيري كاسِل وبول ي.سينغَر وماكس كارپِل ودانييل بونِر بالأصالةِ عن مؤسسة باول ي.سينغَر الخيريّة على صداقتهِم الرائعة ودعمهِم السخيّ ، كما أتوجّه بعميقِ الشكرِ للصديق هاري ز.كوهين على المجهود العظيم بالأصالة عن هذا العمل.
- لِن شوسترمان وليزا إيزِن بالأصالةِ عن مؤسسةِ عائلةِ لِن شوسترمان الخيريّة لِقاءَ دعمهِم السخيّ وصداقتهِم الرائعة.
- الأصدقاء لاري وايزمان وساشا ألبيرت كوكلاء لهذا العملِ الأدبي والذين ساهمَت جهودُهُم في إظهار هذا العمل إلى النور.
- الصديق دانييل هارتمان على صداقتهِ الرائعة ودعمهِ السخيّ وإلهامِه الدائم ، كما أتوجّه إليه بجزيل الشكر على جهوده الحثيثة في تحرير هذا الكتاب والتعقيبِ عليه ، والأهم من ذلك في تشجيعهِ لي على الوصولِ إلى أعماق ذاتي الحقيقية.
- الصديق الذي آمَن بهذا العملِ رغم تردّدي في طرحِه جوناثان كيسلِر والذي لا يُمكنني أن أنكر فضلَ دعمه وتشجيعه وحكمته ، ولو وُجدُ أبٌ روحيّ لهذا الكتاب فإنهُ سيكون جوناثان.
- الصديق جوناثان روزِن ، والذي لم يكُن هناك غنىً عن تعليقاتهُ البنّاءةُ في صياغةِ الكتاب وإثرائِه في مراحله الأولى.
- الصديق العزيز هارون موغول على صداقتهِ ودعمهِ مادّياً ومعنوياً.
- الأصدقاء وزملاءُ الدرب في معهد شالوم هارتمان خلال ندوات وورشات عمل " آي إنغايج " : تال باكير وإيلانا ستاين هاين ودانييل هارتمان ويهودا كورتزير، هؤلاءُ الزملاءُ الذين لا أنكُر فضلَهُم في إثرائي أدبياً وروحياً ، كما لا أنكر مساهمتهُم في حثّي على التعمّق بشدّة في القضايا المطروحة في هذا الكتاب.
- الأصدقاء والزملاء في معهد شالوم هارتمان والذين أكنّ لهُم فضلاً عظيماً في إنجاح مبادرة القيادة المسلمة: ألان أبّي ، إرفانا أنور ، لورين بِركون ، ميراف فريشمان ، ميتال فريدمان ، داليت هورن ، مارلين هوري ، هنا غيلات ، راشيل جاكوبي روزنفيلد ، يهودا كورتزر ، كايت لي ، هارون موغول ، جِدعون مايس ، شيري مِرزِل ، توفا بيرلو ، توفا سيركِن ، عتارا سولو ، سابرا واكسمان ، مِك وينشتاين .
- الأصدقاء يوئِل ونومي غليك على صداقتهِم الحميمة ودعمهِم السخيّ.
- الصديقة ستيفاني ليبا إنغلسون أرغامون ، إحدى النعم التي لا يسعني شكرُها على ما قدّمتهُ من جهودٍ كان لها بالغُ الأثر في إثراءِ تجربتي الروحية إلى أبعدِ حدّ.
- الأخ والصديق والشريك ديفيد سويسا من صحيفة ذا جويش جورنال على كونه صديقاً وسنداً لي في كلّ مرةٍ أحتجتهُ فيها.

- الأصدقاءُ غاري روزنبالت وثيا فيزلتير من مجلة ذا جويش ويك على جهودهِم المباركة في دعمِ الأمة اليهودية، والذين كانا من أوائلِ شركائي في المشاريع التي بدأتُها خلال مشواري في هذا المجال.
- الصديق دان سينور على صداقتهِ وإرشاده لي على الدوام.
- الأصدقاء والأحبّة ديان ترودِرمان وهارولد غرينسبون على دعمهِم المتواصل.

- الصديقات أنجلِكا بِري وروث سالزمان بالأصالة عن مؤسسة راشل بِري الخيريّة ، كذلكَ الصديقات جولي ساندورف ونيسا رابابورت بالأصالة عن مؤسسة رفسون الخيريّة لقاءَ دعمهِم البنّاء والمتواصل لمبادرة القيادة المُسلمة.
- الصديق جوناثان بورنهام على إيمانِه العميق بهذا العمَل.
- الطاقمُ المميز في شركة هاربر كولينز للنشر : تينا أندرياديس وميلان بوزيتش وراشيل ألينزكي وتوم هوبك ودوغ جونز وماريبل جورغينسين وديفيد كورال وليأه واسيليوسكي .
- الصديقة الرائعة بامبي شيليغ والتي فارقَتنا مُبكّراً ، تلكَ الصديقةُ التي كانت أوّل من أوحى ليَ بفكرة هذا الكتاب من خلال نشرها لمجموعةٍ من الرسائل التي أرسلها الإسرائيليون لجيرانهِم الفلسطينيين عبر مجلتها الرائدة ، مجلة إيريتز أحيرت.
- الصديق موشي هالبيرتال والذي ساهم مساهمةً عظيمة من خلال وجهاتِ نظرهِ العميقة في ما يخصّ ماهيّة وطبيعة المسائل المقدّسة.
- الأصدقاء بارفيز أحمد وعلي عمورا وميجال بيتون وسام فريدمان ويحزقل لاندو وجون موسكويتز ونوام زيون لتعليقاتهِم البنّاءة ومراجعتهِم للعديد من النصوص المذكورة في هذا الكتاب.
- لجميع المشاركين في مبادرة القيادة المسلمة على دعمهِم المتواصل وصداقتهِم الرائعة، وأخصّ بالذكر : إرفانا أنوير ، توبي بيرل فريليخ ، زاخ غيلمان ، ديفيد هورويتز ديبرا مجيد ، ليسلي مايرز ، رايان سايد ، كلاير واتشتيل ، إيناس يونس.
- الأعزّاء المتدرّبين في معهد شالوم هارتمان والذين ساهموا بشكلٍ كبير في عمليات البحث اللازمة لإثراء المحتوى : هاري أرونسون ، ليورا بالينسكي ، إيفان تشارني ، رفكا كوهين ، جدعون هالفينغَر ، سام ميلينز ، يوسي كوينت ، دانييل شوارتز ، آرون تانينباوم .
- الصديقة الرائعة داليا لاندو ، مؤسِّسة أحد مراكز التعايش العربي اليهوديّ في مدينة الرملة والذي أطلقَت عليه اسم " البيت المفتوح " ، حيثُ لا تُسعفني الكلماتُ لشكرها على جرأتِها وتقبّلُها للجميع في هذا المركز ، وهما أمران لا يُمكنني أخفاءُ حجم تأثري بهما في سبيلِ تعميق عملي والتزامي بأنشطة التعايش بين العرب واليهود.
- ختاماً ، اودّ أن أشكر الصديقين والمعلّمين الغاليين ديفيد هارتمان ومناحيم فرومان ، هؤلاء المُعلّمَين الذين افتقدُهما بشدّة ، والذين كان لتعاليمهما المُميّزة شديدُ الأثر في كيفيّة مضيّي قُدُماً تجاهَ توسيع حدودِ الوجودِ اليهوديّ في هذا العالم.

المؤلّف في سطور

مؤلفُ هذا الكتاب يوسي كلاين هاليفي هوَ كاتبٌ وباحثٌ في الشؤون اليهوديّة والإسرائيليّة من مدينة القدس ، وهوَ محرّرٌ سابقٌ في مجلةِ " ذا نيو ريبلك " الأمريكيّة. يُشرفُ يوسي حالياً على مبادرةٍ أمريكيّة تُدعى مبادرة القيادةِ المُسلمة برفقةِ الإمام عبد الله عنتبلي ، كما يعتبر يوسي واحداً من أبرزِ زملاءِ معهد شالوم هارتمان في القدس، فيما حازَ عملهُ الأدبيّ الأخير" **مثلُ الحالِمينَ** " على جائزة مجلس الكتابِ اليهوديّ كأفضلِ كتابٍ لعام 2013 في مدينة إيفرت الأمريكية ، كذلكَ تظهرُ مساهماتُ يوسي وتعقيباتهُ وتحليلاتهُ المتعلّقةُ بالشؤون اليهوديّة والإسرائيليّة في كبرى الصحفِ الأمريكيّة ، كما يتوافرُ ليوسي أعمالٌ أدبيّة أخرى ، مثل كتابهِ المعروف " **على مدخلِ جنّةِ عدَن** " و " **مُذكّراتُ يهوديّ مُتشدّد** ".